أطفال السكة الحديدية

إديث نسبيت




تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

أطفال السكة الحديدية

تأليف

إديث نسبيت

ترجمة

إسلام سميح الردان

مراجعة

شيماء طه الريدي



أطفال السكة الحديدية

إديث نسبيت

The Railway Children

E. Nesbit

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

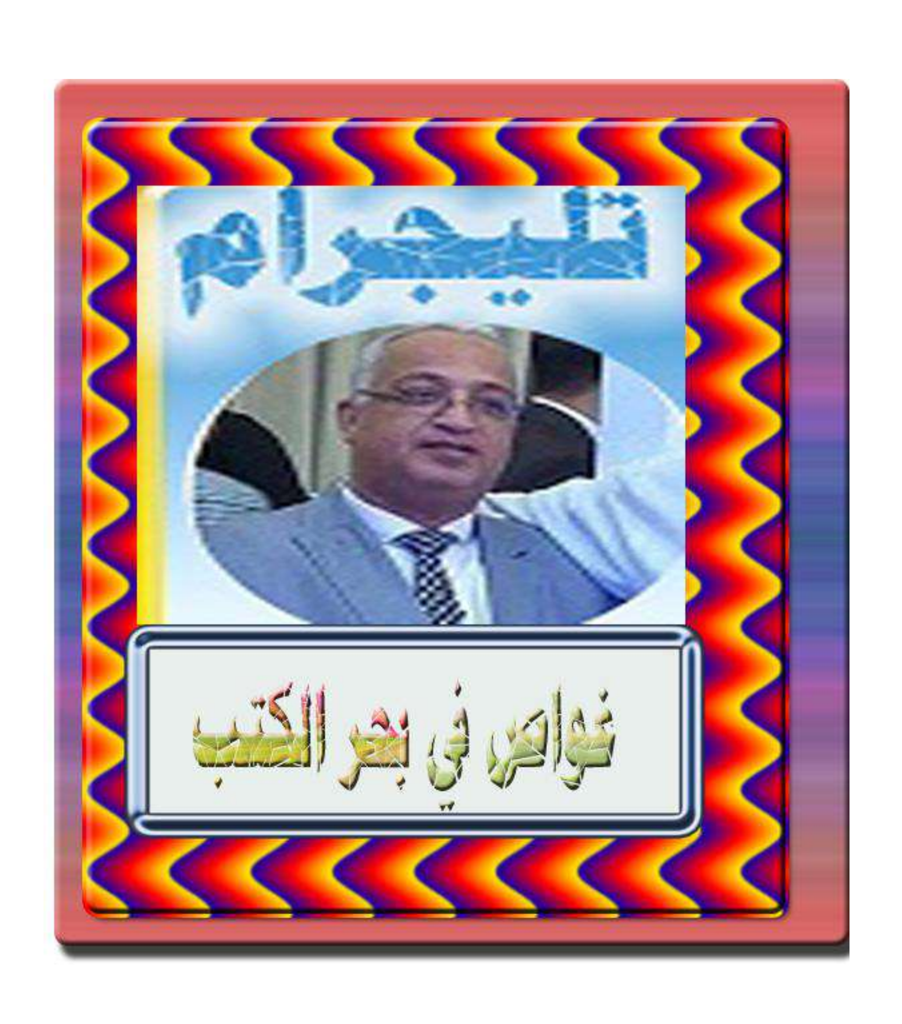
إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٠٩١ ٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٠٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

المحتويات


تليجرام
غواص في بحر الكتب

إلى ابني العزيز بول بلاند

الذي يلتجئ جهلي بالسكك الحديدية إلى علمه بها ويطمئن إليه.


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

الفصل الأول

بداية الأمر

لم يكونوا أطفالَ سكة حديدية في البداية. لا أظنُّ أنهم نظروا إلى السكك الحديدية قطُّ إلَّا باعتبارها وسيلةً تنقلُهم إلى مسرح ماسكلين آند كوك للألعاب السحرية، وعروض البانتومايم، وحدائق الحيوانات، ومتحف مدام توسو. لم يكونوا سوى أطفال عاديين من سكان الضواحي، وكانوا يعيشون مع أبيهم وأمهم في دارةٍ عاديةٍ يكسو واجِهتَها الطوبُ الأحمر، وفي بابها الأماميِّ زجاجٌ ملون، ولها ممرٌّ مكسوٌّ بالقرميد اسمُه الرُّواق، وبداخلها حمامٌ به ماءٌ ساخنٌ وبارد، كما كان فيها أجراسٌ كهربائية، ونوافذ فرنسية، وكثيرٌ من الطلاء الأبيض، و«جميع وسائل الراحة الحديثة» كما يقول سماسرةُ البيوت.

كانوا ثلاثة أطفال، وكانت روبيرتا أكبرهم. إن الأمهات بالطبع لا يُفضِّلن أحدَ أبنائهنَّ على غيره، لكنْ لو أنَّ أمهم فضلَتْ واحدًا منهم على البقية فربما كانت ستُفضل روبيرتا. بعد ذلك يأتي بيتر، الذي كان يتمنى أن يصبح مهندسًا عندما يكبر، وكانت أصغرهم فيليس، وكانت حسَنةَ النوايا إلى أبعد الحدود.

لمْ تكن أمهم تُنفِق وقتها كله في زياراتٍ مملَّةٍ لسيداتٍ مملَّات، ولا في الجلوس ببلادةٍ في منزلها تنتظر زيارات من سيداتٍ مملَّات. كانتْ حاضرةً طوال الوقت تقريبًا، على استعداد للعب مع الأطفال، والقراءة لهم، ومساعدتهم في عمل واجباتهم المنزلية. وكانت بالإضافة إلى ذلك تؤلِّف لهم قصصًا أثناء وجودهم في المدرسة، ثم تقرؤها عليهم بصوتٍ عالٍ بعد شرب الشاي، ودائمًا ما كانت تَنظم أبياتَ شعرٍ مسليةً من أجل أعياد ميلادهم ومناسباتٍ عظيمةٍ أخرى، مثل تعميد القطيطات الجديدة، أو إعادةِ تجهيز بيت الدمية بالأثاث، أو من أجل ذلك الوقت الذي كانوا يتعافَون فيه من مرض النُّكاف.

كان هؤلاء الأطفال الثلاثة المحظوظون دائمًا يحصلون على كل شيءٍ يحتاجونه؛ ملابس أنيقة، تدفئة جيدة، حجرة أطفال جميلة بها أكوامٌ من اللُّعب، وورق حائط يزدان برسومٍ من

قصص الأطفال. كان لديهم مربيةُ أطفالٍ طيبةٌ مرِحة، وكلبٌ يُدعى جيمس، لمْ يشاركهم فيه أحد. كان لديهم كذلك أبٌ مثاليٌّ تمامًا، فلمْ يكن فظًّا ولا ظالمًا البتة، وكان مستعدًّا دائمًا للَّعب معهم. وعلى أقل تقدير، إذا حدثَ في أيِّ وقتٍ من الأوقات أنْ لمْ يكن مستعدًّا، فإنه دائمًا ما يكون لديه مبررٌ قويٌّ لهذا، وكان يشرح مُبررَه للأطفال بطريقةٍ شائقةٍ ومُضحكةٍ جدًّا لدرجةٍ تجعلهم يتأكدون أنه لا يملك من أمره شيئًا.

سوف تظنون أنَّه من المفترض أنهم كانوا في غاية السعادة، وقد كانوا كذلك بالفعل، لكنهم لمْ يعلموا كَمْ كانوا سعداء حتى انتهتِ الحياةُ الجميلةُ في الدارة الحمراء إلى الأبد، واضطُروا إلى أن يعيشوا عيشةً شديدةَ الاختلاف فعلًا.

جاء التغييرُ المُفزِع مُفاجئًا تمامًا.

كان بيتر يحتفل بعيد ميلاده العاشر. كان بين هداياه الأُخرى قطارٌ لعبةٌ أروعُ من أيِّ شيءٍ ربما حلمتم به يومًا. كانت الهدايا الأخرى أخَّاذة الجمال، لكنَّ القطار كان أجمل من أي هديةٍ أخرى.

استمرَّ جمالُه كما هو لم يُفسِده شيءٌ مدةَ ثلاثة أيامٍ بالضبط. ثم، إما بسبب قلة خبرة بيتر أو بسبب نوايا فيليس الحسنة، والتي كانت مُلِحَّةً نوعًا ما، أو نتيجةً لسببٍ آخر؛ انفجر القطارُ فجأةً وأحدث دويًّا حادًّا. أُصيب جيمس بحالةٍ شديدةٍ من الذعر حتى إنه خرج من المنزل ولم يعد إليه طيلةَ النهار. تهشَّم كلُّ راكبي سفينة نوحٍ من الدُّمى التي كانت في عربة الماء والوقود من القطار، لكنْ لمْ يتضرر أيُّ شيءٍ آخر سوى القطار الصغير المسكين ومشاعر بيتر. قالت أختاه إنه بكى عليه؛ لكنَّ الأولاد في سن العاشرة لا يبكون بالتأكيد، مهما بلغَتْ فظاعةُ الأحداث المأساوية المتسببة في تجهُّمِ أقدارهم. لقد قال إن عينيه كانتا حمراوَين لأنه أُصيب بالبرد. واتضح أنَّ هذا كان صحيحًا، رغم أن بيتر لمْ يكن يعلم أنه كذلك عندما قاله، وفي اليوم التالي اضطُر إلى الذَّهاب إلى فراشه وملازمته. بدأت الأم تخشى من احتمال أن يكون قد أصابتْه الحصبة، لكنه جلس فجأةً في السرير وقال:

«إنني أكره الحساء، أكره ماء الشعير، وأكره الخبز واللبن. أريد أن أنهض وأن آكل طعامًا حقيقيًّا.»

سألته أمه: «ماذا تحب أن تأكل؟»

قال بيتر بتلهفٍ: «فطيرةَ حمام، فطيرةَ حمامٍ كبيرة؛ كبيرة جدًّا.»

وهكذا طلبتْ أمه من الطاهي أن يصنع فطيرةَ حمامٍ كبيرة. أُعِدتِ الفطيرةُ. وعندما أُعِدتِ الفطيرةُ، خُبِزتْ. وعندما خُبزت، تناول بيتر جزءًا منها. وبعد ذلك شُفي من البرد. نظَمتْ أمُّه أبياتًا من الشعر لتسليته بينما كانت الفطيرةُ تُصنَع. بدأتِ الأبياتُ بالتحدث عن بيتر وكم كان ولدًا تعيس الحظ لكنه كان جديرًا بالإعجاب، ثم جاء فيها:

كان القِطارُ لُعْبَةً   خَلَّابَةً في حُجْرَتِهْ
صِدْقًا لَكَمْ أحبَّها   من رُوحِهِ ومُهجَتِهْ
وما تمنى قلبُهُ   إلَّا بَقَاءَ لُعبتِهْ
تجري على قُضبانِها   ما جارَ في أُمنيَّتِهْ

* * *

وفي يومٍ أَيَا صَحْبِي   أعيروني مسامِعَكُمْ
فسوفَ أَقُصُّ أسوأَ ما   جرى وأَمَضَّ صاحبَكُمْ
نوى مِسمَارُ قاطرةٍ   على شيءٍ من الغدْرِ
وطار كطلقةٍ قُذفتْ   مسارعةً إلى الضُّرِّ
ففجَّرَ قلبَ مِرجَلِها   مُباغتةً بلا عُذْرِ

* * *

بوجهٍ مُفْعَمٍ أَلَمًا   يَزيدُ الحُزنُ في غَمِّهْ
أتى وأقامَ لُعبتَهُ   وسارَ بها إلى أُمِّهْ
ولم يَرَ أنها حتى   ستعرفُ كيف تُصلحُهَا
ولكنْ قد أتى بالرغـ   ـمِ من هذا يُفاتِحُهَا

* * *

ولم يعبأْ بمن هلكوا   على قُضبان لُعْبَتِهِ
فقد كان القطارُ حبيـ   ـبَهُ ورفيقَ بسمتِهِ
وما بلغوا جميعُهُمُ   نصيبًا من مكانتِهِ

* * *

ترونَ الآنَ يا صحبي لِمَ مرضَ الفتى بيترْ
وكيف يُزيلُ لوعَتَهُ بصدرِ حمامةٍ فاخِرْ
ونصفِ فطيرةٍ نضجتْ يعيشُ الخابِزُ الماهِرْ

* * *

يلُفُّ جراحَ مُهجتِهِ بأغطيةٍ هنا كُثْرِ
ويُدفِئُ نفسَهُ وينا مُ حتى ساعةِ العصرِ
على عزمٍ يُبيِّتُهُ بأنْ سيَجوزُ مِحنتَهُ
وسوف يُفيقُ منتصرًا وسوف يُعيدُ بسمتَهُ

* * *

ولو تحمرُّ عيناهُ لَلَامَ عليهما البَرْدَا
هلمُّوا بالفطيرِ فلنْ يَرُدَّ فطيرةً أبَدَا

كان والده في زيارةٍ للريف منذ ثلاثة أو أربعة أيام. كانت جميعُ آمال بيتر في مداواة قطاره المنكوب مُعلَّقةً في تلك اللحظة على والده؛ إذ كان ماهرًا بصورةٍ رائعةٍ في استخدام أصابعه. كان يستطيع إصلاح جميع الأشياء؛ فكثيرًا ما قام بدور الجراح البيطري للحصان الخشبي الهزاز؛ فقد أنقذ حياتَه ذات مرةٍ عندما باتتْ جميعُ إسعافات البشر ميئوسًا منها، ولمْ يَعُد ثَمة أملٌ في شفاء المخلوق البائس؛ حتى إن النجار قال إنه لا سبيل أمامه لفعلِ أي شيء. كما أن والده هو الذي أصلح مهدَ الدُّمية عندما عجز الآخرون؛ واستطاع بقليلٍ من الغِراء وبعض قطع الخشب الصغيرة وسكين جيبٍ أن يُثبِّتَ جميع حيوانات سفينة نوحٍ في دبابيسها بقوةٍ كما كانت من قبل تمامًا، إن لمْ يكن أقوى.

بإيثارٍ بطوليٍّ، لمْ يقُلْ بيتر أيَّ شيءٍ عن قطاره حتى انتهى والده من تناول غدائه وتدخين سيجاره الذي يدخنه بعد الغداء. كان الإيثارُ فكرةَ والدته؛ لكنَّ بيتر هو من نفَّذها. وقد احتاج إلى قدرٍ كبيرٍ من الصبرِ أيضًا.

في النهاية قالت أمه لأبيه: «والآن يا عزيزي، إذا كنتَ قد أخذتَ كفايتك من الاسترخاء والراحة، فإننا نود أن نخبرك عن حادثة السكة الحديدية المروعة، وأن نطلب منك النصيحة.»

قال الأب: «حسنٌ، هاتا ما عندكما!»

وهكذا حكى بيتر الحكايةَ الحزينة، وأحضر ما تبقَّى من القطار.

فحص والدُه القطار فحصًا دقيقًا جدًّا، ثم راح يهمهم بصوتٍ خافتٍ دون أن يفتح شفَتَيه.

حبس الأطفالُ أنفاسهم وهم ينتظرون في قلق.

قال بيتر بصوتٍ خفيضٍ متهدج: «أمَا ثمة أمل؟»

قال الأبُ بابتهاج: «أمل؟ بالتأكيد! الكثيرُ منه، لكنَّ الأمرَ سيحتاج إلى شيءٍ ما بجانب الأمل؛ فلنقُل مثلًا: سيحتاج إلى شيءٍ من اللحام بواسطة النُّحاس أو بواسطة سبائك اللحام، وصمامٍ جديد. أظن أنه يجدر بنا أن نؤجله إلى أحد الأيام الماطرة. أو بعبارةٍ أخرى، سأُخصص له فترة العصر من يوم السبت القادم، وسوف تساعدونني جميعًا.»

سأل بيتر متشكِّكًا: «هل تستطيع البناتُ المساعدةَ في إصلاح القطار؟»

«بالتأكيد يستطعن. إن البنات في مثل ذكاء الأولاد تمامًا، وإياك أن تنسى هذا! إلى أيِّ مدًى تُحبين أن تصبحي سائقةَ قطارٍ يا فِل؟»

قالت فيليس بنبرةٍ خاليةٍ من الحماسة: «سيكون وجهي مُتَّسخًا طوال الوقت، أليس كذلك؟ وأعتقد أنني سأكسر أحد الأشياء.»

قالتْ روبيرتا: «أما أنا فسأحب هذا العمل. أتظن أنني سأستطيع ممارستَه عندما أكبر يا أبتِ؟ أو أن أُصبح مُذْكِيَةً حتى؟»

قال الأب وهو يشد القطار ويَلْويه: «تقصدين وقَّادة؟ حسنٌ، إذا ظلَّتْ هذه هي أمنيتَكِ عندما تكبرين، فسننظر في أمر جعْلِكِ وقَّادة. أذكر عندما كنتُ صغيرًا ...»

في تلك اللحظة سُمِع طرقٌ على الباب الأمامي.

قال الأب: «من عساه يكون هذا؟! إن بيت الرجل الإنجليزي هو قلعتُه، لا شك في ذلك، لكنني أتمنى أن يبنوا داراتٍ شِبهَ منفصلةٍ عما حولها، تُحيطها خنادقُ الماء ويكون الدخول إليها عبر جسور متحركة.»

جاءت روث — وهي خادمةٌ حمراء الشعر كانت تُعْنى بأمر المائدة — وقالتْ إن ثمة سيدَين يريدان رؤية سيدها.

ثم قالت: «لقد أدخلتُهما غرفةَ المكتبة يا سيدي.»

قالت الأم: «أظن أنهما جاءا لأخذ مساهمتنا في هدية الشكر التي ستُقدَّم لراعي الأبرشية، أو من أجل المبلغ المخصص لإجازة جوقة المرنِّمين. تخلَّصْ منهما سريعًا يا عزيزي. لقد قاطعا ليلتنا، واقترب موعدُ نوم الأطفال.»

لكنْ لمْ يبدُ أنَّ الأب كان قادرًا على التخلص من السيدَين سريعًا على الإطلاق.

قالت روبيرتا: «ليت بيتنا كان محاطًا بخندقٍ مائيٍّ وله جسرٌ متحرك، كنَّا فقط سنسحب الجسر المتحرك عندما لا نرغب في استقبال أحد، وما كان أحدٌ سيستطيع الدخول حينئذٍ. أتوقع أن ينسى أبي ما كان سيقوله عن طفولته لو مكثا أكثر من هذا.»

حاولت الأم تزجيةَ الوقت بحكاية خرافية جديدة عن أميرةٍ خضراء العينَين، لكنَّ هذا لم يكن سهلًا؛ لأنهم كانوا يستطيعون سماع أصوات والدهم والسيدَين في المكتبة؛ فقد كان صوت والدهم مرتفعًا ومختلفًا عن الصوت الذي كان يتكلم به عادةً مع مَن يأتون من أجل هدايا الشكر أو أموال الإجازات.

حينئذٍ دُقَّ جرسُ المكتبة، وتنفس الجميعُ الصُّعَداء.

قالت فيليس: «سيُغادران الآن، لقد دق الجرس ليوصلهما أحدٌ إلى الخارج.»

لكن بدلًا من توصيل أيِّ أحدٍ إلى الخارج، دخلتْ روث عليهم، وبدتْ تصرفاتُها غريبةً، كما اعتقد الأطفال.

قالت روث: «من فضلكِ يا سيدتي، سيدي يريدكِ في حجرة المكتب. إنه شاحب كالموتى يا سيدتي؛ أظن أنه تلقَّى أخبارًا سيئة. يجدر بكِ أن تُهيِّئي نفسكِ لسماع الأسوأ يا سيدتي، ربما تُوفِّي أحد أفراد العائلة أو أفلس أحد البنوك أو ...»

قالت الأم برفق: «يكفي هذا يا روث، يمكنكِ الانصراف.»

بعد ذلك دخلَت الأم حجرة المكتبة. وتواصل الكلام مرةً أخرى، ثم دُقَّ الجرس من جديدٍ، وأحضرتْ روث عربة أجرة. سمع الأطفال وقْعَ أحذيةٍ تخرج من البيت وتنزل على الدَّرَج الخارجي. انطلقتْ عربةُ الأجرة بعيدًا، وأُغلِق البابُ الأمامي، ثم دخلت الأم. كان وجهها الحبيب إلى قلوبهم في بياض ياقة فستانها البيضاء المصنوعة من الدانتيل، وبدَتْ عيناها شديدتَي الاتساع ولامِعتَين. بدا فمُها وكأنه مجرد خطٍّ أحمر باهت اللون؛ كانت شفتاها نحيلتَين ولمْ تكونا في هيئتهما الجميلةِ على الإطلاق.

قالت: «حان وقتُ النوم. ستأخذكم روث إلى مضاجعكم.»

قالت فيليس: «لكنكِ وعَدتِنا أن نسهر الليلةَ لأنَّ أبي عاد إلى المنزل.»

قالت الأم: «لقد استُدعي والدكم إلى مهمة عمل. هيا يا أحبتي، اذهبوا في الحال.»

قبَّلها الطفلان وانصرَفا. أما روبيرتا فتباطأت كي تُعانق أمها وتَهمس في أُذنها قائلةً: «لمْ تكن أخبارًا سيئةً يا أمي، أليس كذلك؟ هل مات أحدٌ ما ... أو ...»

قالت الأمُّ وهي تكاد تدفع روبيرتا بعيدًا: «لمْ يمتْ أحدٌ ... لا. لا يمكنني إخبارُكِ بأيِّ شيءٍ الليلةَ يا حبيبتي. اذهبي يا عزيزتي، اذهبي الآن.»

وهكذا انصرفتْ روبيرتا.

سرَّحتْ روث شعر البنتَين بالفرشاة وساعدتهما في تغيير ملابسهما. (كانت أمهما تفعل هذا بنفسها دائمًا تقريبًا.) وعندما خفضتْ ضوءَ المصباح الغازيِّ وتركتْهما وجدتْ بيتر منتظرًا على الدَّرج وهو لا يزال مرتديًا ملابسه.

سألها قائلًا: «أخبريني يا روث، ما الأمر؟»

أجابت روث ذاتُ الشعر الأحمر: «لا تسألني أي أسئلةٍ ولن أكذب عليك مطلقًا. سوف تعرف قريبًا جدًّا.»

في وقتٍ متأخرٍ من تلك الليلة صعدت الأم إلى أبنائها الثلاثة وقبَّلتهم جميعًا أثناء نومهم. لم توقظ القُبلةُ أحدًا سوى روبيرتا، لكنَّها ظلتْ ساكنةً، ولمْ تنطق بأي شيء.

حدَّثَت روبيرتا نفسها وهي تسمع ارتعاش أنفاس أمها في الظلام: «إذا كانت أمي لا تريدنا أن نعلم أنها كانت تبكي، فلن نعلم ذلك. انتهى الأمر.»

عندما نزلوا لتناول الإفطار في صباح اليوم التالي، كانت أمهم قد غادرتْ بالفعل.

قالت روث: «لقد ذهبتْ إلى لندن»، ثم تركتْهم لتناوُل إفطارهم.

قال بيتر وهو يكسر بيضته: «ثمة أمر فظيع. لقد قالت لي روث في الليلة الماضية إننا سنعرف كل شيء قريبًا جدًّا.»

قالت روبيرتا بازدراء: «هل سألتَها؟»

قال بيتر بغضب: «نعم، سألتُها! إذا كنتِ تستطيعين النوم دون اكتراثٍ لِما إنْ كانت أُمنا مهمومةً أم لا، فأنا لا أستطيع. وليكُن ما يكون!»

قالت روبيرتا: «لا أعتقد أنه يجدر بنا سؤالُ الخدم عن أشياء لمْ تخبرنا بها أمنا.»

قال بيتر: «هذا صحيحٌ يا داعية الفضيلة، وفِّري مواعظك.»

قالت فيليس: «أنا لستُ داعيةَ فضيلة، لكنْ أظن أن بوبي مُحقَّةٌ هذه المرة.»

قال بيتر: «بالتأكيد. إنها محقةٌ دائمًا؛ من وجهة نظرها.»

صاحت روبيرتا وهي تضع ملعقة كسر البيض من يدها: «أوه، كُفَّا عن هذا! فلنترفَّع عن الإساءة إلى بعضنا. أنا موقنةٌ أنَّ ثمة مصيبةً فظيعةً تحدث. فلا نَزِدْها نحن فظاعةً!»

قال بيتر: «من الذي بدأ، أخبريني؟»

تحاملتْ روبيرتا على نفسها، وأجابتْ:

«أنا من بدأتُ، على ما أعتقد، لكنْ ...»

قال بيتر في زهو: «حسنٌ إذن.» لكن قبل أن يذهب إلى المدرسة لَكَمَ أختَه برفقٍ بين كتفَيها وطيَّبَ خاطرها.

عاد الأطفال إلى البيت لتناول وجبة غداء الساعة الواحدة، لكنَّ أمهم لمْ تكن هناك. ولمْ تأتِ كذلك وقتَ تناول الشاي.

كانت الساعةُ تقتربُ من السابعة عندما أتتْ إلى المنزل، وكانتْ تبدو مريضةً ومُتعَبةً للغاية لدرجة أن الأطفال شعروا أنه ليس بإمكانهم أن يسألوها أي أسئلة. ألقَت الأمُّ بنفسها على كرسيٍّ ذي ذراعَين. أخذت فيليس تُخرج الدبابيس الطويلةَ من قُبعتها، بينما نزعَتْ روبيرتا قُفازَيها، وحلَّ بيتر أربطةَ حذائها وأحضر لها خُفَّيها المخمليَّين الناعمَين.

بعدما تناولتْ أمهم فنجانًا من الشاي، ووضعتْ لها روبيرتا ماء الكولونيا على رأسها المسكين المصاب بالصداع، قالتْ:

«والآن يا أحبتي، أريد أن أخبركم بأمرٍ ما. إن هذَين الرجلَين جاءا بأخبارٍ شديدة السوء في الليلة الماضية، وسيغيب والدكم عن المنزل لبعض الوقت. إنني قلقةٌ جدًّا لهذا الأمر، وأريدكم جميعًا أنْ تساعدوني، وألَّا تُصعِّبوا الأمور عليَّ.»

قالت روبيرتا وهي تضع يدَ أمها على وجهها: «وهل يُعقَل أن نُصعب الأمور عليكِ!»

قالت الأم: «يمكنكم أن تساعدوني مساعدةً كبيرةً جدًّا إذا أحسنتم التصرف وتحلَّيتم بالرضا وامتنعتم عن الشجار أثناء غيابي» — تبادل كلٌّ من روبيرتا وبيتر نظراتٍ مِلؤها الإحساس بالذنب — «لأنني سأُضطَر إلى التغيب عنكم مدةً طويلة.»

قال الجميع: «لن نتشاجر. بالتأكيد لن نفعل.» وقد عزموا بالفعل على ألَّا يتشاجروا.

تابعت الأم حديثها قائلةً: «ما دام الأمر كذلك، فإنني أطلب منكم ألَّا تسألوني أي أسئلةٍ عن هذه المشكلة؛ وألَّا تسألوا أيَّ أحدٍ آخر كذلك.»

انكمش بيتر خوفًا وأخذ يجر حذاءه على السجادة.

قالت الأم: «سوف تَعِدني بذلك أنت أيضًا، أليس كذلك؟»

قال بيتر فجأةً: «لقد سألتُ روث، أنا آسفٌ جدًّا، لكنني فعلت.»

«وماذا قالتْ؟»

«قالت إنني سأعرف قريبًا جدًّا.»

قالت الأم: «لا يلزمُكم أن تعرفوا أيَّ شيءٍ عن الأمر، إنه متعلِّقٌ بالعمل، وأنتم لا تفهمون أمور العمل على الإطلاق، أليس كذلك؟»

قالت روبيرتا: «بلى. هل هو أمر متعلقٌ بالحكومة؟» لأن أباهم كان يَشغل منصبًا حكوميًّا.

قالت الأم: «نعم. والآن حان وقت النوم يا أحبتي. ولا تقلقوا. سيُصبح كلُّ شيءٍ على ما يُرام في نهاية الأمر.»

قالت فيليس: «إذن، لا تقلقي أنتِ أيضًا يا أمي. وسنكون أطوعَ لكِ من خاتمك.»

تنهَّدتْ أمهم ثم قبَّلَتْهم جميعًا.

قال بيتر وهم يصعدون إلى الطابق العلوي: «سيكون تحسينُ سلوكنا أوَّلَ شيءٍ نبدأ بفعله في صباح الغد.»

قالت روبيرتا: «ولِمَ لا يكون ذلك الآن؟»

قال بيتر: «ليس ثمة ما نُحسِّن سلوكنا فيه الآن أيتها الحمقاء.»

قالت فيليس: «يمكننا أن نبدأ بالسعي إلى اكتساب مشاعر طيبة، وعدم ترديد الشتائم.»

قال بيتر: «من هذا الذي يردد الشتائم؟ إن بوبي تعلم تمامًا أنني عندما أقول «حمقاء»، فكأنني أقول بوبي.»

قالت روبيرتا: «حسنٌ.»

«لا، أنا لا أقصد ما تقصدين. إنما أقصد أنها فقط — ماذا يُسميها أبي؟ — فاتحةٌ للتودد! طابت ليلتُك.»

بالَغتِ البنتان في إتقانِ طيِّ ملابسهما؛ وكانت هذه الطريقة الوحيدة التي رأَتا أنه يمكنهما من خلالها أن تُحسِّنا سلوكهما.

قالت فيليس وهي تُسوي مريلتها: «أخبريني، لقد كنتِ من قبل تقولين إنَّ حياتنا مملة جدًّا؛ وإنه ما من شيءٍ يحدث، كالذي نقرؤه في الكتب. والآن لقد حدث شيءٌ ما بالفعل.»

قالت روبيرتا: «ما تمنيتُ قطُّ أن يحدث ما يُحزنُ أمي. لقد أصبح كلُّ شيءٍ سيئًا للغاية.»

ظلَّ كلُّ شيءٍ في غاية السوء لبضعة أسابيع.

كانت الأم تخرج طوال الوقت تقريبًا. كانت الوجباتُ مملةً وبغيضة. فُصِلت الخادمةُ المساعدةُ من العمل، وجاءت الخالة إيما في زيارة لهم. كانت الخالةُ إيما تَكْبر أمَّهم بكثيرٍ. كانتْ مسافرةً إلى الخارج للعمل مربية. وكانت مشغولةً للغاية بتجهيز ملابسها، وكانت

ملابسها هذه قبيحةً ورثَّةً جدًّا، ودائمًا ما كانت تُبعثِرها في كل مكان، وكانت آلة الخياطة لا تكاد تكف عن الأزيز طوال النهار ومعظم الليل. كانت الخالةُ إيما تعتقد بوجوب إبقاء الأطفال في أماكنهم المناسبة. أما الأطفال فقد قابلوا معروفها هذا بأكثرَ منه. كانوا يرون أن أنسب مكانٍ للخالة إيما هو أي مكانٍ لا يكونون هم فيه؛ لذا فنادرًا ما كانوا يرونها. كانوا يُفضِّلون صحبة الخدم، الذين كانوا أكثر إبهاجًا من خالتهم. فإذا ما كان الطاهي في مزاجٍ جيدٍ، فربما يُغنِّي أغانيَ مُضحكةً، وإذا كانت الخادمة غيرَ منزعجةٍ منكَ فربما تُقلد الدجاجة حينما تضع بيضةً، أو تقلد صوت فتح زجاجة النبيذ، أو تَموء مثل قِطَّتَين تتشاجران. لم يتحدث الخدم إلى الأطفال قطُّ بحقيقة الأخبار السيئة التي جاء بها السيدان إلى أبيهم. لكنَّهم ظلوا يُلمِّحون إلى أنه يمكنهم قولُ الكثير إذا أرادوا ذلك؛ ولم يكن هذا مُطَمْئِنًا.

ذات يومٍ عندما نَصَبَ بيتر شَرَكًا عابثًا من دلوِ ماءٍ فوق باب الحمام، وانسكبَ الدلو فوق رأس روث مباشرةً أثناء مرورها من الباب، أمسكتْ به تلك الخادمةُ ذات الشعر الأحمر ولطَمتْ أُذنَيه.

وقالتْ بحَنَق: «ستكونُ نهايتك سيئةً، أيها اللعين المؤذي! إذا لمْ تُحسن سلوكك فستذهب إلى حيث ذهب أبوك الغالي، هكذا أُخبِرك بصراحة!»

أعادت روبيرتا هذا الكلام على والدتها، وفي اليوم التالي طُرِدتْ روث من المنزل.

ثم جاء يومٌ عادتْ فيه الأم إلى المنزل وذهبتْ إلى فراشها ومكثتْ فيه يومَين حتى زارها الطبيب، وراح الأطفالُ يمشون متثاقلين بائسين في أرجاء المنزل، ويتساءلون إنْ كانت الدنيا قد أوشكت على الزوال.

وفي صباح أحد الأيام نزلتْ أمهم لتناول الإفطار، وكانت شاحبةً للغاية وفي وجهها خطوطٌ لمْ تكن فيه من قبل. وابتسمتْ أفضل ابتسامةٍ قدرتْ عليها، ثم قالت:

«والآن يا أحبائي، لقد حُسِم كلُّ شيء. سوف نترك هذا المنزل، وسنعيش في الريف. إنه بيت صغير لطيف أبيض اللون ورائع للغاية. أنا متأكدة أنكم ستُحبونه.»

مرَّ بعد ذلك أسبوع سريع من حزْمِ الأمتعة؛ ليس فقط حزم الملابس، مثلما تفعلون عند ذهابكم إلى الشاطئ، لكنْ أيضًا حزم المقاعد والمناضد، التي كانت أسطُحُها تُغطَّى بالخيش وأرجلها تُكسَى بالقش.

كانوا يحزمون جميع الأشياء التي لا تحزمونها عند ذهابكم إلى الشاطئ؛ الأواني الفخارية، والبطانيات، والشمعدانات، والسجاجيد، وهياكل الأسِرَّة، والقُدُور، وحتى حواجز المِدْفأة، وأدوات الموقد الحديدية.

كان البيتُ أشبه بمخزنٍ للأثاث. أعتقد أن الأطفال استمتعوا بالأمر للغاية. كانت الأم من قبل مشغولةً جدًّا، لكنها لم تعد في ذلك الوقت بتلك الدرجة من الانشغال التي تمنعها من الحديث إليهم، والقراءة لهم، وحتى تأليف قليلٍ من الشعر من أجل فيليس لإبهاجها؛ بعدما سقطتْ وهي تُمسِك مِفكًّا وغرزتْه في يدها.

سألت روبيرتا، مُشيرةً إلى الخِزانة الجميلة المُطعَّمةِ بالنحاس الأصفر وأشكال باللون الأحمر تشبه قوقعة السلحفاة الحمراء: «ألنْ تحْزمي هذه يا أمي؟»

قالت الأم: «لا يمكننا أخذُ كل شيء.»

قالت روبيرتا: «لكننا نكاد نأخذ كل الأشياء القبيحة.»

قالت الأم: «نحن نأخذ الأشياء النافعة. علينا أن نتظاهر أننا فقراء قليلًا من الوقت يا صغيرتي.»

عندما حُزمتِ الأغراضُ القبيحة النافعةُ كلُّها، ووضعها رجالٌ يرتدون مرايل من جوخٍ أخضرَ في عربةٍ من عربات نقلِ الأمتعة وأخذوها بعيدًا، نامتِ البنتان وأمهما والخالةُ إيما في الغرفتَين الاحتياطيتَين المجهَّزتَين بأثاثٍ كلُّه جميل. كانت أسِرَّتُهم جميعها قد رحلتْ. وصنعوا لبيتر فِراشًا فوق أريكة غرفة الاستقبال.

قال بيتر وهو يتلوى في ابتهاجٍ، بعدما وضعتْه أمه في فراشه الوثير: «أرى هذا مُمتعًا. إنني أُحب الانتقال! ليتنا ننتقلُ إلى سكنٍ جديدٍ في كل شهرٍ مرة.»

ضحكت الأم.

وقالت: «لكنني لا أُحبه! طابتْ ليلتُك يا عزيزي بيتر.»

وبينما كانت تهم بالانصراف رأتْ روبيرتا وجهها؛ لمْ تُمحَ هيئتُه من ذاكرتها مطلقًا.

همستْ روبيرتا لنفسها وهي تتخذ مضجعها: «ما أعظمكِ يا أمي! كمْ أنتِ شجاعة! كمْ أُحبكِ يا أمي! كم هو عجيبٌ تحلِّيكِ بالشجاعة كي تضحكي وأنتِ في هذه الحالة!»

في اليوم التالي ملَئوا بعض الصناديق بأمتعتهم، ثم ملَئوا غيرها وغيرها؛ ثم في آخر النهار جاءت عربةُ أجرةٍ لتأخذهم إلى المحطة.

وقفتِ الخالةُ إيما تُودِّعهم؛ لكنهم شعروا أنهم هم الذين كانوا يُودِّعونها، وكانوا سعداء بهذا.

همستْ فيليس قائلةً: «لكن، يا لأولئك الأطفال الأجانب المساكين الذين ستصبح حاضنتهم! لم أكن لأصبح في مكانهم بأي حالٍ من الأحوال!»

كانوا مستمتعين في البداية بالنظر من النافذة، لكن عندما بدأ الغسقُ ينشر ظلمته أخذ النعاسُ يتملَّكهم أكثر فأكثر، ولا أحد يدري كم مكثوا في القطار قبل أن يستيقظوا على يدِ أمهم وهي تهزهم برفقٍ، وتقول:

«استيقظوا يا أحبتي. لقد وصلنا.»

استيقظ الأطفال من نومهم فأحسوا ببردٍ وانقباض، ووقفوا يرتجفون على رصيف المحطة المُعرَّض لتيارات الهواء بينما راح الحمالون يُنزِلون حقائبهم من القطار. ثم بدأ المُحرك يعمل من جديدٍ، مطلِقًا نفثاتٍ من الدخان وأصوات صفير، وسُحب القطار بعيدًا. وقف الأطفال يشاهدون الأضواء الخلفية للعربة الأخيرة وهي تختفي في الظلام.

كان هذا أول قطارٍ يراه الأطفال في خط السكة الحديدية ذاك، والذي سيصبح بمرور الوقت عزيزًا جدًّا على قلوبهم. لم يخطر ببالهم في ذلك الوقت كيف سيحبُّون السكة الحديدية، وكيف ستصبح خلال وقتٍ قصيرٍ محورَ حياتهم الجديدة، ولا خطر ببالهم كذلك ما ستتسبَّب لهم فيه من التغييرات والأعاجيب. كانوا فقط يرتجفون ويعطسون ويأملون ألَّا يطول بهم المسيرُ إلى المنزل الجديد. كان أنف بيتر أبرد من أي وقتٍ مضى. الْتَوتْ قبعةُ روبيرتا، وبدا شريطُها المطاطيُّ أضيق من المعتاد. أما فيليس فقد انحلَّ رباطُ حذائها.

قالت أمُّهم: «هيا، علينا أن نسير. لا توجد أي عربات أجرة هنا.»

كان الطريق مظلمًا وموحلًا. تعثَّر الأطفالُ قليلًا في الطريق غير الممهد، وسقطتْ فيليس مرةً دون أن تنتبه في بركة ماءٍ صغيرةٍ موحلة، وأخرجتها أمها مبللةً مستاءة. لم يكن ثمة مصابيح غاز في الطريق، وكان الطريق متجهًا إلى أعلى. كانت عربةُ الحمالين تمضي بسرعة السير على الأقدام، وكانوا يسيرون خلف خشخشة عجلاتها الشبيهة بصوت انسحاق الرمال الخشنة. عندما اعتادتْ أعينهم على الظلام، تمكَّنوا من رؤية كومة الصناديق تتأرجح في العتمة أمامهم.

اضطُرَّ الحمَّالون إلى فتح بوابةٍ عريضةٍ كي تمرَّ خلالها عربتُهم، ثم أخذ الطريق بعد ذلك يمتد عبر الحقول؛ وهُنا راح مسارُه يتجه إلى الأسفل. بعد قليلٍ ظهر شيءٌ ضخمٌ متكتلٌ جهة اليمين.

قالت الأم: «ها هو ذا المنزل. تُرى لِمَ أغلَقتْ مصاريع النوافذ؟»

سألتْ روبيرتا: «مَن هي؟»

«المرأةُ التي استأجرتُها لتنظف المكان وتنظم الأثاث وتُعِد العَشاء.»

كان ثمةَ سورٌ منخفضٌ، وأشجارٌ بالداخل.

قالت الأم: «هذه هي الحديقة.»

قال بيتر: «إنها تبدو أشبه بمقلاةٍ مليئةٍ بقطع الكرنب السوداء.»

سارت العربةُ بمحاذاة سور الحديقة، واستدارت إلى الجهة الخلفية من المنزل، وهناك أخذت تقرقع فوق فناءٍ مرصوفٍ بالحصى حتى توقفتْ أمام الباب الخلفي.

لم يكن ثمة ضوءٌ يُشِع من النوافذ.

راحوا جميعًا يطرقون الباب مرةً بعد أخرى، لكنْ لمْ يظهر أحد.

قال سائق العربة إنه يتوقع أن تكون السيدة فايني قد عادتْ إلى بيتها.

وأضاف: «لقد كان قطاركم متأخرًا للغاية.»

قالت الأم: «لكنَّ المفتاح معها. كيف نتصرف الآن؟»

قال سائق العربة: «أوه، لا بد أنها ترَكتْه تحت عتبة الباب، هكذا يفعل الناس في هذه الأنحاء.» ثم أخذ المصباح من عربته وانحنى به.

وقال: «نعم، ها هو ذا، بالتأكيد.»

فتح السائق الباب ودخل إلى المنزل ووضع مصباحه على الطاولة.

وقال: «أما من شمعةٍ هنا؟»

قالت الأم في نبرة أقلَّ ابتهاجًا؛ على خلاف عادتها: «لا أعرف مكانَ أي شيء.»

أشعل الرجل عود ثقاب. كانت ثمة شمعةٌ على المنضدة، فأشعلها. على ضوئها الواهن المرتجف رأى الأطفال مطبخًا كبيرًا فارغًا ذا أرضيةٍ حجرية. لم يكن ثمة ستائرُ، ولا بساطٌ أمام الموقد. كانت منضدة المطبخ التي جلبوها من المنزل شاخصةً في منتصف الغرفة. كانت المقاعدُ في أحد الأركان، وكانت الأوعية، والقُدور، والمكانس، والأواني الفَخَّارية في ركنٍ آخر. لم يكن ثمة نار، وكان حاملُ وقودِ المدفأة الأسودُ يحمل بقايا رمادٍ باردٍ ميِّت.

عندما أدار سائق العربة ظهره ليخرج من المنزل بعدما أدخل الصناديق، سمعوا صوت خشخشة يتنقل بخفَّةٍ وقد بدا أنه قادمٌ من داخل حوائط المنزل.

صرخت الفتاتان: «أوه، ما هذا؟»

قال سائق العربة: «إنما هي الجرذان.» ثم غادر وأغلق الباب، لكنَّ تيار الهواء المفاجئ الذي أحدثه إغلاق الباب أطفأ الشمعة.

قالت فيليس: «يا إلهي، ليتنا لمْ نأتِ!» ثم ارتطمتْ بأحد المقاعد وأسقطتْه على الأرض.

قال بيتر في الظُّلْمة: «إنما هي الجرذان!»

الفصل الثاني

مَنجم بيتر

قالت الأم، في الظلام، وهي تتحسس مكان أعواد الثقاب على المنضدة: «هذا مثير! ما أشدَّ ما أصاب الفئران المسكينة من رعب؛ لا أصدق على الإطلاق أنها كانت جرذانًا.»

أشعلتْ عود ثقابٍ وأضاءت الشمعة من جديد وأخذ الجميع ينظر بعضهم إلى بعض على ضوئها المتذبذب المرتعش.

وقالت: «حسنٌ، لطالما أردتم حدوث شيءٍ ما، وها هو ذا قد حدث. إنها مغامرةٌ مثيرةٌ بحق، أليس كذلك؟ لقد طلبتُ من السيدة فايني أن تأتينا ببعض الخبز والزبد، واللحم وهذه الأشياء، وأن تُجهِّزَ لنا العَشاء. أظن أنها أعدَّتْه في غرفة المائدة. فلنلقِ نظرةً هناك إذن.»

كان لغرفةِ المائدة مدخلٌ من المطبخ. بدَت الغرفةُ أكثرَ ظلمةً بكثيرٍ من المطبخ عندما دخلوها بالشمعة الوحيدة التي معهم؛ لأن المطبخ كان مطليًّا باللون الأبيض، أما غرفة المائدة فكانت مكسوةً بالخشب القاتم اللون من الأرضية حتى السقف، كما كانت تقطع السقفَ عوارضُ خشبيةٌ سوداء. كان ثمة متاهةٌ مربكةٌ من الأثاث المغبَرِّ؛ أثاث غرفة الإفطار الذي أتوا به من المنزل القديم الذي قضَوا به سنوات حياتهم كلها. بدا لهم أنه قد مر على ذلك وقتٌ طويلٌ جدًّا، وأنه قد صار بعيدًا جدًّا.

كانت المنضدةُ هناك من دون شك، وكان ثَمة مقاعد، لكنْ لم يكن ثمة عَشاء.

قالت الأم: «لننظر في الغرف الأخرى.» وأخذوا ينظرون فيها. في كل غرفة كان الأثاث مرتبًا بالطريقة العشوائية المنقوصة نفسها، وكانت أدوات الموقد والآنية الفخارية، وجميع أنواع النثريات ملقاةً على الأرضية، لكنْ لم يكن ثمة ما يأكلونه؛ حتى في غرفة تخزين الطعام ولوازم البيت لم يكن هناك سوى قِدرٍ صدئٍ من قدور خَبز الكعك وطبقٍ مكسورٍ استُخدِم لمزج طِلاء جيري أبيض.

قالت الأم: «يا لها من عجوزٍ شنعاء! لقد سرقتِ المال وحسب، ولمْ تُعِدَّ لنا أيَّ شيءٍ نأكله على الإطلاق.»

سألت فيليس، في خيبة أملٍ، وهي تخطو إلى الخلف وتطأ بقدمها حاملَ صابونٍ تشقَّقَ في الحال: «إذن ألن نتناول أيَّ عشاءٍ على الإطلاق؟»

قالت أمها: «أوه، بلى. لكنَّ هذا سيتطلبُ فقط أن نفتح واحدًا من تلك الصناديق الكبيرة التي وضعناها في القبو. فِل، انتبهي لموضع قدمكِ، لو تكرمتِ. بيتر، أمسِك الشمعة.»

كان للقبو بابٌ في المطبخ. كان ثمة خمس درجاتٍ خشبيةٍ تؤدي إلى الأسفل. لم يكن قبوًا جيدًا على الإطلاق، هكذا رأى الأطفال؛ لأن ارتفاع سقفه كان مساويًا لارتفاع سقف المطبخ. كان يتدلى تحت سقفه رفٌّ لتجفيف اللحم. كان به خشبٌ، وفحم. كما كانت الصناديقُ الكبيرةُ هناك.

أمسك بيتر الشمعة، ووقف الجميع في جانبٍ واحد، بينما حاولت الأم فتح صندوق التعبئة الكبير؛ لكنه كان محكَم الإغلاق بالمسامير.

سأل بيتر: «أين المطرقة؟»

قالت الأم: «هذه تحديدًا هي المشكلة. أخشى أنها داخل الصندوق. لكن ها هنا جاروفَ فحم؛ ويوجد كذلك قضيبُ تحريك النار المستخدم في المطبخ.»

وراحتْ تحاول باستخدام هذَين أن تفتح الصندوق.

«دعيني أفتحه أنا.» هكذا قال بيتر، معتقدًا أن بإمكانه أن يفعلها هو بطريقةٍ أفضل. كل واحدٍ يظنُّ ذلك عندما يرى شخصًا آخر يوقد نارًا، أو يفتح صندوقًا، أو يحل عقدةً في حبل.

قالت روبيرتا: «ستجرحين يدَيكِ يا أمي. دعيني أنا أفتحه.»

قالت فيليس: «ليتَ أبي كان هنا. كان سيفتحه بهزَّتَين. لماذا تركلينني يا بوبي؟»

قالت روبيرتا: «لم أفعل.»

في هذه اللحظة تحديدًا بدأ أول المسامير الطويلة المثبَّتة في صندوق التعبئة يخرج منه مُحدِثًا صوت قرقعة. ثم بعد ذلك رُفِعتْ إحدى شرائحه الخشبية تلتها شريحةٌ أخرى، إلى أن انتصبت الشرائح الخشبية الأربع كلها والمسامير الطويلة المثبتة فيها تلمع بشدةٍ كأسنان حديدية في ضوء الشمعة.

قالت الأم: «مرحى! ها هي ذي بعض الشموع؛ أول شيءٍ على الإطلاق! اذهبا أيتها البنتان وأشعلاها. ستجدان بعض أطباق الفناجين وما شابهها. فقط اسكبا قليلًا من زيت الشمعة على الطبق وثبِّتا الشمعة فوقه.»

«كم شمعةً نُشعِل؟»

قالت الأم في ابتهاجٍ: «بقدر ما تُحبان. المهم هو الشعور بالبهجة. ما من مخلوق يمكن أن يشعر بالبهجة في الظلام سوى البوم والزُّغْبات.»

وهكذا أشعلَت الفتاتان الشموع. طار رأس عود الثقاب الأول والْتصق بإصبع فيليس؛ لكنه، كما قالت روبيرتا، لم يُسبِّب إلا حرقًا يسيرًا، وقالت لها أيضًا إنها ربما كانت ستُصبح شهيدةً رومانية ويُحرَق جسمُها كله لو تصادف وعاشت في الأيام التي كانت تلك الأشياءُ شائعةً فيها.

بعد ذلك، وعندما أُضيئتْ غرفةُ المائدة بأربع عشرة شمعةً، أحضرتْ روبيرتا فحمًا وخشبًا وأشعلتْ نارًا.

قالت، وهي تشعر بمدى نُضج كلامها: «إن الجو أبردُ مما ينبغي أن يكون في شهر مايو.»

جعل كلٌّ من ضوء النار وضوء الشموع غرفةَ المائدة تبدو مختلفةً تمامًا؛ إذ أصبح في إمكان الناظر حينها إدراكُ أن الحوائط المعتمةَ كانت مكسوةً بالخشب، وأن أجزاء متفرقة منها منقوشة بأطواقٍ وأكاليل زهور صغيرة.

أسرعت الفتاتان بترتيب الغرفة، وكان هذا بالنسبة إليهما يعني وضع المقاعد في مقابل الحائط، وتكديس جميع النثريات في أحد أركان الغرفة وتوريتها جزئيًّا بالمقعد الجلدي الكبير ذي الذراعَين الذي اعتاد والِدهم أن يجلس عليه بعد الغداء.

صاحت الأم، وهي داخلةٌ إلى الحجرة ومعها صينيةٌ مليئةٌ ببعض الأشياء: «أحسنتما! هذا قريبٌ من المراد! سأُحْضر فقط مِفرشًا للمائدة ثم ...»

كان مفرش المائدة داخل صندوقٍ ذي قُفلٍ جيدٍ يُفتَح بمِفتاحٍ وليس بجاروف، وعندما بُسِط المفرش على المائدة، وُضِعتْ فوقه وليمةٌ حقيقية.

كانوا جميعًا مُنهَكين لأقصى حد، لكنَّهم ابتهجوا جميعًا لرؤية العَشاء الممتع المُبهِج. كان يوجد بسكويت عادي، من نوع ماري، وسمك سردين، وزنجبيلٌ معلَّب، وزبيب الطهو، وقشر البرتقال المسكر، ومربى المرملاد.

قالت أمهم: «إنه لأمرٌ جيدٌ للغاية أَنْ وضعَت لنا الخالةُ إيما داخلَ الصناديق كلَّ النثريات التي كانت في خِزانة المؤن. انتبهي يا فِل، لا تضَعي ملعقة مربى المرملاد داخل علبة السردين.»

قالت فيليس: «لا، لن أفعل يا أمي.» ثم وضعَتْها بين قطع البسكويت.

قالت روبيرتا فجأةً: «فلنشرب نخب الخالة إيما. ماذا كنا سنفعل لو لمْ تُعبِّئ لنا هذه الأشياء في الصناديق؟ في صحة الخالة إيما!»

كان نخب الخالة إيما عبارة عن شراب الزنجبيل والماء، وقد وُضِع في فناجين شايٍ منقوشة بأشجار الصفصاف؛ لأنهم لم يستطيعوا العثور على الكئوس.

أحسُّوا جميعًا أنهم كانوا قُساةً بعض الشيء مع الخالة إيما. لمْ تكن شخصًا لطيفًا وَدودًا تشعر فيها بحنان الأم، لكنها برغم كل شيء هي التي فكرتْ في أن تُعبئ لهم تلك الأطعمة المتنوعة ليتناولوها.

كانت الخالة إيما أيضًا هي التي هوَّتْ جميع ملاءات الأَسِرَّة وجهَّزَتْها للاستخدام؛ وكان الرجال الذين نقلوا الأثاثَ قد وضعوا هياكل الأَسِرَّة في مكانٍ واحد؛ لذا أصبحت الفُرُش جاهزةً للنوم خلال وقتٍ قصير.

قالت الأم: «طابتْ ليلتكم يا أحبتي. أنا واثقةٌ أنه لا توجد أي جرذان. لكنني سأتركُ باب حجرتي مفتوحًا، فإذا ما جاء فأرٌ، فليس عليكم سوى أن تَصرخوا، وسآتي لأُلقِّنه درسًا قاسيًا لن ينساه.»

بعد ذلك ذهبَتْ إلى غرفتها. استيقظَتْ روبيرتا فسمعت الساعة الصغيرة التي تُستخدَم عند الأسفار وهي تدق معلنةً الثانية. كان صوتُها أشبهَ بصوت ساعة كنيسة قادمٍ من بعيدٍ جدًّا، هكذا كانت تتخيله دائمًا. وسمعتْ كذلك أمها، وكانت لا تزال تتجول في غرفتها.

في صباح اليوم التالي شدَّتْ روبيرتا شعر فيليس برفقٍ لتوقظها، لكنها شدتْه جيدًا بما يكفي لأداء غرضها.

سألت فيليس، وهي لا تزال في غمرة النوم تقريبًا: «ما الأمر؟»

قالت روبيرتا: «استيقظي! استيقظي! نحن في المنزل الجديد؛ ألا تذكرين؟ لا يوجد خدمٌ أو أي شيء. هيا لننهض ولتكن لنا فائدة. سوف نزحف إلى الأسفل في هدوء الفئران، ونجعل كل شيءٍ يبدو جميلًا قبل أن تستيقظ أمُّنا. لقد أيقظتُ بيتر. سوف يرتدي ملابسه حالما نفعل نحن.»

وهكذا ارتدَتا ملابسهما بسرعةٍ وهدوء. بالطبع لم يكن يوجد ماء في حجرتهما؛ لذلك عندما نزلتا إلى الأسفل راحتا تتنظفان تحت فُوَّهة مِضخة الماء اليدوية الموجودة في الفناء بالقدر الذي رأَتا أنه ضروري. كانت واحدة تضخ الماء والأخرى تتنظف. كان رذاذ الماء يغمرهما لكنهما كانتا مستمتعتَين.

قالت روبيرتا: «هذا أكثر متعةً بكثيرٍ من الاغتسال على الحوض. كم هي زاهية الأعشاب التي بين الأحجار، والطحالب التي على السطح؛ أوه، والأزهار!»

كان سطح المطبخ الخلفيِّ منحدرًا بشدة إلى الأسفل. كان مصنوعًا من القصب وكانت الطحالب تكسوه، وكان يوجد في الركن البعيد نباتاتُ حرشف السطح وحي العالم والمنثور الأصفر، حتى إنه كان فيه لفيفٌ من أزهار السوسن البنفسَجية.

قالت فيليس: «إن هذا أجمل بكثير جدًّا جدًّا جدًّا من دارةِ إيدجكومب. تُرى كيف ستكون نباتات الحديقة!»

قالت روبيرتا بحماس جاد: «يجب ألا نفكر في الحديقة الآن. هيا لندخل إلى المنزل ولنبدأ العمل.»

أوقدت البنتان النار ووضعَتا غلاية الشاي عليها، وأعدَّتا الآنية الخزَفية من أجل الإفطار؛ لم تَعثرا على الأشياء المناسبة كلها، لكنَّ مرمدةً زجاجيةً قامت بوظيفة مملحة المائدة بطريقةٍ ممتازة، وبدا قالب خَبزٍ جديد نسبيًّا صالحًا لوضع الخُبز عليه، إذا كان هناك أيُّ خُبز.

عندما بدا لهما أنه ليس ثَمَّ مزيدٌ ما يمكنهما عمله، خرجتا من جديدٍ إلى الصباح النقي المشرق.

قال بيتر: «سندخل الحديقة الآن.» لكنهم بطريقةٍ ما لم يستطيعوا العثور على الحديقة. راحوا يدورون حول البيت مرةً بعد مرة. كان الفناء يحتل الجهة الخلفية من المنزل، وكان فيه إصطبلاتٌ ومبانٍ إضافية. أما على الجهات الثلاث الأخرى، فقد كان المنزل يقع ببساطة داخل حقل، دون حديقةٍ تفصله عن العُشب القصير الناعم. ولكن ما من شك أنهم قد رأوا سور الحديقة في الليلة السابقة.

لقد كانت ضاحيةً ريفيةً كثيرة التلال. كان بإمكانهم رؤية خط السكة الحديدية تحتهم، وكذا المدخل المُظلم الواسع لأحد الأنفاق. كانت المحطةُ بعيدةً عن مجال الرؤية. كان هناك جسرٌ عظيمٌ ذو قناطر شاهقة الارتفاع يمتد على طول أحد طرَفَي الوادي.

قال بيتر: «لا تكترثوا للحديقة؛ لننزلْ ونرَ السكة الحديدية. ربما تمر بعض القطارات.»

قالت روبيرتا ببطء: «يمكننا رؤيتها من هنا؛ لنقعد قليلًا.»

وهكذا جلسوا جميعًا فوق صخرة كبيرة مسطحة رمادية اللون ارتفعتْ بعيدًا عن الحشائش؛ كانت واحدةً من صخور عديدة تناثرتْ على جانب التل، وعندما خرجتْ أمهم للبحث عنهم في الساعة الثامنة، وجدتْهم مستغرقين في النوم وكأنهم باقة زهور سعيدةٌ تنعم بدفء الشمس.

كانوا قد أوقدوا نارًا ممتازةً، ووضعوا غلاية الشاي فوقها في حوالي الخامسة والنصف. لذا بحلول الساعة الثامنة كانت النار قد انطفأت منذ فترة، كما تبخر الماء كله، واحترق قاع الغلاية. علاوة على ذلك، لم يخطر ببالهم أن يغسلوا الآنية الخزفية قبل أن يجهزوا المائدة.

قالت أمهم: «لكن لا يهم؛ أقصد الفناجين وصحونها. فقد وجدتُ غرفةً أخرى؛ لقد نسيتُ أمرها تمامًا. إنها غرفةٌ ساحرة! وقد غليتُ الماء من أجل الشاي في قِدرٍ صغيرة.»

كان للغرفة المنسية باب في المطبخ. لكنهم ظنوه خطأً بابَ إحدى الخِزانات بسبب الارتباك وشِبه الظُّلمةِ في الليلة السابقة. كانت غرفةً صغيرةً مربعة، وكان على مائدتها، قطعة كبيرة باردة من لحم البقر المشوي، وخبز، وزبد، وجبن، وفطيرة، وكان كل شيء موضوعًا بطريقة جميلة.

صاح بيتر قائلًا: «فطيرةٌ للإفطار! يا للروعة الغامرة!»

قالت الأم: «إنها ليست فطيرةَ حمام، إنما هي فطيرة تفاح فحسب. حسنٌ، هذا هو العشاء الذي كان ينبغي أن نتناوله ليلة أمس. وكانت هناك رسالة من السيدة فايني. لقد انكسرت ذراع زوج ابنتها، وكان عليها أن تعود لبيتها مبكرًا. ستأتي في العاشرة من صباح اليوم.»

كان هذا إفطارًا رائعًا. ليس من المألوف أن يُبدَأ اليوم بتناول فطيرة تفاحٍ باردة، لكنَّ الأطفال جميعًا قالوا إنهم يُفضِّلون تناولها على تناول اللحم.

قال بيتر وهو يُمرِّر طبقه ليحصل على المزيد: «أتعرفون، إن هذا أشبهُ بغَداءٍ منه بإفطارٍ بالنسبة إلينا؛ لأننا استيقظنا مبكرًا جدًّا.»

انقضى اليوم في مساعدة الأم في إفراغ محتويات الصناديق وترتيبها. ستُّ أرجلٍ صغيرةٍ كانت تتألم بشدةٍ من الجري في أرجاء المنزل بينما أصحابها يحملون الملابس

والآنية الخزفية وجميع أنواع الأشياء إلى أماكنها المناسبة. لم يكن قد انقضى وقتٌ طويلٌ بعد الظهيرة عندما قالت الأم:

«هذا جيد! يكفي هذا اليوم. سأرتاح ساعةً في فراشي، لأكون نشيطةً كالطيرِ عند حلول وقت العَشاء.»

عندئذٍ نظروا جميعًا بعضهم إلى بعض. كانت الفكرةُ نفسها مرسومةً على كل وجهٍ من الوجوه المُعبِّرة الثلاثة. كانت تلك الفكرةُ من جزأَين، وكانت، كالمعلومات المبثوثة في كتاب «دليل الطفل إلى المعرفة»، تتكون من سؤالٍ وجواب.

س: أين سنذهب؟

ج: إلى السكة الحديدية.

وهكذا ذهبوا إلى السكة الحديدية، وما إن بدَءوا رحلتهم إلى السكة الحديدية حتى رأوا أين كانت الحديقةُ تختبئ؛ لقد كانت خلف الإصطبلات مباشرةً، وكان لها سورٌ عالٍ يحيط بها من كل جانب.

صاح بيتر قائلًا: «أوه، لا تنشغلوا بالحديقة الآن! لقد أخبرتني أمي في هذا الصباح عن مكانها. وستظل هناك إلى الغد. هيا بنا إلى السكة الحديدية.»

كان الطريق إلى السكة الحديدية يمتد كله أسفل التل، وكان مغطًّى بعشب قصير ناعم، تتناثر في أماكن متفرقة منه شجيراتُ الجولق وصخورٌ رماديةٌ وصفراء بارزةٌ، مثلما تبرز قشور البرتقال المسكَّرة من فوق كعكة.

انتهى الطريق عند منحدرٍ شديد وسورٍ خشبي؛ وهناك كانت تقع السكة الحديدية بقضبانها المعدنية اللامعة وأسلاك التلغراف وأعمدته وإشاراته.

تسلقوا جميعًا إلى قمة السور، ثم فجأةً انطلق صوتٌ راعدٌ جعلهم ينظرون على امتداد خط السكة الحديدية ناحية اليمين، حيث كان المدخلُ المظلمُ لأحد الأنفاق مفتوحًا في مواجهة جُرْفٍ صخري؛ وبعد لحظةٍ اندفع من النفق قطارٌ له صوتُ صراخٍ ونخير، وانسل محدِثًا ضجيجًا من أمامهم. أحس الأطفال بقوة اندفاعه وهو يمر، وراح الحصى الذي على الخط يتقافز ويُقعقِع تحته أثناء مروره.

قالت روبيرتا وهي تأخذ نفَسًا طويلًا: «يا للعجب! لقد كان أشبه بتنينٍ عظيمٍ يندفع بسرعةٍ هائلة بجوارنا. هل شعرتما به وهو ينفخ الهواء علينا بأجنحته الملتهبة؟»

قالت فيليس: «أظن أن وِجار التنين من الخارج ربما يشبه هذا النفق إلى حد كبير.»

لكنَّ بيتر قال:

«لم أتخيل قطُّ أنْ نتمكن من الاقتراب من قطارٍ كهذا. هذه أروع تسليةٍ على الإطلاق!»

قالت روبيرتا: «أفضل من القطارات اللعبة، أليس كذلك؟»

(لقد مللتُ من تسمية روبيرتا باسمها. لا أدري لمَ عليَّ فعلُ هذا. لم يفعل شخصٌ آخرُ ذلك. لقد كان الآخرون جميعًا ينادونها بوبي، ولا أدري لمَ لا أفعل.)

قال بيتر: «لا أدري؛ إن الأمر مختلف. يبدو غريبًا جدًّا أن أرى قطارًا بأكمله. إنه طويلٌ جدًّا، أليس كذلك؟»

قالت فيليس: «لقد كنا دائمًا نرى القطارات وهي مقسومةٌ إلى نصفَين بسبب أرصفة المحطات.»

قالت بوبي: «أتساءل إن كان هذا القطار ذاهبًا إلى لندن. إن والدنا في لندن.»

قال بيتر: «فلننزلْ إلى المحطة ونستكشف هذا.»

وهكذا ذهبوا إلى المحطة.

ساروا بمحاذاة طرَف خط السكة الحديدية، وكانوا يسمعون أسلاك التلغراف وهي تطن فوق رءوسهم. عندما تكون داخل القطار تبدو المسافةُ قصيرةً جدًّا بين كل عمودٍ والآخر، وتبدو لك الأعمدةُ المتعاقبة واحدًا تلو الآخر، وكأنها تقبض على الأسلاك بأسرعَ من أن تتمكن من عدِّها. لكنْ عندما تُضطرَ إلى السير على قدمَيك، تبدو الأعمدةُ قليلةً، والمسافةُ بينها بعيدة.

لكنَّ الأطفال وصلوا إلى المحطة في نهاية المطاف.

لم يسبق قطُّ لأيٍّ منهم أنْ زار أيَّ محطةٍ إلَّا بهدف اللحاق بالقطارات، أو ربما من أجل انتظارها، ودائمًا ما كان هذا في حضور الكبار، الذين لم يكونوا هم أنفسهم يكترثون إلى محطات القطار إلا باعتبارها أماكنَ يرغبون في مغادرتها.

لم يسبق لهم قطُّ أنْ مروا قريبًا من أحد أكشاك الإشارات بحيث يتمكنون من رؤية الأسلاك، وسماع الأصوات الغامضة التي تتردَّد «بينج، بينج»، يعقبها تلك الطقطقة القوية المستمرة المنبعثة من الماكينات.

كانت المسارات التي تمتد فوقها القضبانُ طريقًا ممتعًا للسير عليه؛ إذ كانت متباعدة بعضها عن بعض بما يكفي تمامًا لتكون بمنزلة أحجار خطوٍ يَخْطون فوقها في لعبةٍ تتضمن الهروب من سيولٍ مُزْبدةٍ مُتخيَّلةٍ اخترعَتْها بوبي على عجل.

بعد ذلك كان الوصول إلى المحطة، ليس من خلال مكتب الحجز، ولكنْ عن طريق نوعٍ من القرصنة عبْر الطرف المنحدر للرصيف. كان ذلك نفسه مصدرًا للبهجة.

وكان من المبهج كذلك اختلاسُ النظر داخل حجرة الحمَّالين، حيث كانت توجد المصابيح، وروزنامة السكة الحديدية معلقةً على الحائط، وحمَّالٌ شبهُ نائمٍ خلف إحدى الجرائد.

كان في المحطة عدد كبيرٌ من الخطوط المتقاطعة؛ كان بعضها لا يَزيد على أنْ يمتد إلى مسافة ياردة ويتوقف فجأةً، وكأنها أُرهِقتْ من العمل واعتزمت التقاعد إلى الأبد. كانت العربات تقف على القضبان في هذا المكان، وكانت كومة كبيرة من الفحم قد وُضعتْ جانبًا؛ لم تكن كومةً مُبعثرةً، كالتي تراها في قبو الفحم لديك، وإنما كانتْ نوعًا من بناءٍ مصمَت من قطع الفحم له قوالبُ كبيرة مربعةٌ من الفحم من جهة الخارج تُستخدَم وكأنها قراميد بناء، تراصت فوق بعضها حتى أصبحَت الكومة شبيهةً بصورة «مدن الدائرة» في كتاب «قصص الكتاب المقدس للأطفال». كان هناك خطٌّ مرسومٌ بالجير قرب قمة الحائط الفحمي.

بعد قليلٍ، عندما خرج الحمَّال من حجرته متكاسلًا على إثر رنينٍ مزعجٍ تكرر مرتَين من جرسٍ مسطح معلقٍ فوق باب المحطة، قال بيتر بأحسنِ أسلوبٍ لديه: «تشرفتُ بلقائك»، وأسرع إلى سؤاله عن الغرض من العلامة البيضاء التي رأوها على الفحم.

قال الحمال: «لتعيين مقدار الفحم الموجود، بحيث نعرف إن سرَق أيُّ شخصٍ منه؛ لذا لا تضع أيَّ قدرٍ منه في جيوبك عند رحيلك، أيها السيد الصغير!»

لم يبدُ هذا في تلك اللحظة أكثرَ من مداعبة مرحة، وشعَر بيتر في الحال أن الحمَّال كان من الرجال الودودين وأن كلامه لم يكن به أي هذر أو هراء. لكنَّ الكلمات عاودت بيتر فيما بعد بمعنًى جديد.

هل سبق لكم قبل ذلك أنْ دخلتم مطبخَ أحد بيوت المَزارع في يوم الخَبز، ورأيتم قِدر العجين العظيمة وهي موضوعة إلى جوار النار كي تختمر؟ إن كان قد سبق لكم هذا، ولو كنتم في ذلك الوقت لا تزالون صغارًا بما يكفي لكي تهتموا بكل شيءٍ ترونه، فستذكرون أنكم كنتم تجدون أنفسكم غيرَ قادرين تمامًا على مقاومة الرغبة في غرز أصابعكم داخل كرة العجين الطرية التي كانت تتقوس داخل الوعاء وتصبح شبيهةً بفُطرٍ عملاق. وستذكرون أن أصابعكم كانت تصنع نقرةً في العجين، وأن تلك النقرة كانت تأخذ في التلاشي رويدًا رويدًا، لكنها كانت تتلاشى تمامًا، وكان العجين يعود مرةً

أخرى إلى ما كان عليه قبل أن تمسوه. وذلك بالطبع إذا لم تكن أيديكم شديدةَ الاتساخ؛ لأنه من الطبيعي في تلك الحال أن يتبقى على العجين علامة سوداء صغيرة.

حسنٌ، لقد كانت الحال شبيهةً بهذا تمامًا بالنسبة إلى الحزن الذي شعر به الأطفال بسبب رحيل والدهم، وبسبب التعاسة الشديدة التي أُصيبت بها أمُّهم. لقد ترك هذا الحزن أثرًا عميقًا، لكنَّ الأثر لمْ يدُم طويلًا.

لقد تعودوا خلال وقت قصيرٍ على أن يكونوا بلا أب، وإن كانوا لمْ ينسَوه؛ وتعودوا على عدم الذهاب إلى المدرسة، وعلى القليل جدًّا من رؤية والدتهم، التي أصبحت تحبس نفسها طوال اليوم تقريبًا في غرفتها الواقعة بالدور العلوي وتظل تكتب وتكتب، وتكتب. كانت تنزل إليهم وقت تناول الشاي وتقرأ القصص التي كتبتها بصوتٍ عالٍ. وكانت قصصًا جميلة.

كانت الصخور والتلال والوديان والأشجار، وقناة الماء، وفوق كل شيءٍ السكة الحديدية، أشياء جدية تمامًا وممتعة للغاية؛ لدرجة أن ذكرى الحياة السابقة في الدارة راحت تبدو أقرب إلى حُلمٍ.

قالت لهم الأم أكثر من مرةٍ إنهم أصبحوا «فقراء جدًّا الآن»، لكنْ لم يبدُ أن هذا كان يعدو كونَه مجرد تعبيرٍ مجازي. إن الكبار، وحتى الأمهات، كثيرًا ما يقولون أشياء لا يبدو أنها تعني أيَّ شيءٍ بعينه، وإنما يقولونها، فيما يبدو، بغرض قوْلِ شيءٍ ما. فقد كان يوجد دائمًا ما يكفي من الطعام، وكانوا يلبسون النوع نفسه من الثياب الجميلة التي اعتادوا ارتداءها دائمًا.

لكنْ أتت في شهر يونيو ثلاثة أيامٍ مطيرة؛ كانت الأمطار تتساقط عموديةً وكأنها رماح، وكان الجو قارسَ البرودة. لم يستطع أحدٌ الخروج من بيته، وكان الجميع يرتعشون. صعد الأطفال كلهم إلى باب حجرة أمهم وراحوا يطرقونه.

سألت الأم من الداخل: «نعم، ما الأمر؟»

قالت بوبي: «أمي، هل لي أن أشعل نارًا؟ إنني لا أعرف كيف أشعلها.»

قالت الأم: «لا يا حبيبتي. ينبغي ألا نشعل نيرانًا في يونيو؛ إن الفحم غالٍ جدًّا. إذا كنتم تشعرون بالبرد، فاذهبوا وامرحوا في العُلِّية؛ هذا سيُدفِئكم.»

«لكن، يا أمي، إن إشعال النار لا يتطلب سوى القليل جدًّا من الفحم.»

قالت أمها بنبرة مرحة: «إنها نفقة فوق طاقتنا يا حبيبتي. والآن اذهبوا، من فضلكم؛ إنني مشغولةٌ للغاية!»

همست فيليس في أذن بيتر قائلةً: «إن أمي مشغولةٌ دائمًا هذه الأيام.» لكن بيتر لم يرد. وإنما هزَّ كتفَيه في عدم اكتراث. كان مستغرقًا في التفكير.

لكن تفكيره لم يستطع أن يَكْبح نفسه طويلًا عن أن يُمِدَّه — الإمدادَ المناسب — بمَخبأٍ لقاطع طريقٍ في العلية. لعب بيتر دور قاطع الطريق بالطبع. أما بوبي فكانت مساعدتَه، وعُصبةَ سراقه الجديرين بثقته، وفي اللحظة المناسبة والدةَ فيليس؛ التي لعبتْ دور الفتاة المخطوفة التي دُفع لأجلها فِديةٌ عظيمةٌ من فول الخيل دونما تردد.

نزلوا جميعهم لشرب الشاي فرِحين متوهجي الوجنات كأيِّ قاطعي طريقٍ في الجبال.

لكن عندما أوشكت فيليس على وضع المربى على خبزها وزبدتها قالت أمها:

«المربى أو الزبد يا عزيزتي؛ وليس المربى والزبد. إننا لا نقوى على تحمل نفقة هذا النوع من الترف المتهور هذه الأيام.»

أنهتْ فيليس شريحة الخبز والزبد في صمت، ثم تناولت بعدها الخبز والمربى. أما بيتر فكان يمزج التفكير بالشاي المُخفف.

بعد شرب الشاي عادوا إلى العلية وقال لأختَيه:

«عندي فكرة.»

سألتا في أدب: «ما هي؟»

«لن أخبركما.» كانت هذه إجابة بيتر السريعة غير المتوقعة.

قالت بوبي: «أوه، حسنٌ إذن.» وقالت فِل: «لا تقلها إذن.»

قال بيتر: «البنات سريعات الغضب دائمًا.»

قالت بوبي بأنَفةٍ محببة: «وماذا عن الصبيان إذن؟ لا أريد معرفة شيءٍ عن أفكارك السخيفة.»

قال بيتر محتفظًا بهدوئهٍ بما بدا أشبهَ بمعجزة: «ستعرفين يومًا ما أنكِ لو لمْ تكوني مولعةً هكذا بالشِّجار، لربما أخبرتك أنه لمْ يمنعني من إخبارك بفكرتي إلَّا نُبلُ أخلاقي. لكنني الآن لن أقول لكِ عنها أيَّ شيءٍ على الإطلاق؛ وليكن ما يكون!»

ومرَّ بعضُ الوقت بالفعل قبل أن يقتنع بقول أيِّ شيء، وعندما تكلم لم يقُل الكثير؛ لقد قال:

«إن السبب الوحيد الذي يمنعني من إخباركما بفكرتي التي سأنفذها هو أنها ربما تكون خطأً، وأنا لا أريد أن أجرَّكما إليه.»

قالت بوبي: «لا تفعلها إذا كانت خطأً، يا بيتر. دعني أنا أفعلها.» لكنَّ فيليس قالت: «أنا من تود أن تفعل الخطأ إن كنتما ستفعلانه!»

قال بيتر، وقد تأثر بعض الشيء بهذا الحب الشديد: «لا، إنها مهمةٌ شديدة الصعوبة، وأنا من سيتصدى لها بنفسي. كل ما أطلبه هو ألا تُفشيا سري إذا سألتْ أمي عن مكاني.»

قالت بوبي في غضب: «ليس لدينا أي شيء لنُفشِيَه.»

قال بيتر، وهو يُسقِط فول الخيل من بين أصابعه: «أوه، بل لديكما! إنني أثق بكما ثقةً عمياء. إنكما تعرفان أنني سأخوض مغامرةً وحدي — وقد يظن بعض الناس أنها خطأ — لكنني لا أظنها كذلك. ولو سألت أمي عن مكاني، فأخبِراها أنني ألعب في المناجم.»

«أي مناجم؟»

«قولا لها إنني في المناجم وحسب.»

«يمكنك أن تخبرنا يا بِيت.»

«حسنٌ إذن، مناجم الفحم الحجري. لكنْ إياكما أن تنطقا بالسر ولو تعرضتما للتهديد.»

قالت بوبي: «لستَ بحاجة لتحذيرنا. وأظن أنك ربما تسمح لنا بمساعدتك.»

تعطَّف بيتر عليهما ووعدهما قائلًا: «لو عثرتُ على منجم فحمٍ حجري، فسيكون بإمكانكما أن تساعداني في نقل الفحم بالعربة.»

قالت فيليس: «احتفظ بسرك لو أردت.»

قالت بوبي: «احتفظ به لو استطعت.»

قال بيتر: «سأحتفظ به بالتأكيد.»

ثمة فترة فاصلة بين شرب الشاي وتناول العشاء حتى في أكثر العائلات حرصًا على الانضباط. كانت الأم تجلس للكتابة في هذا الوقت عادةً، وتكون السيدة فايني قد عادت إلى بيتها.

بعد مرور ليلتَين على بزوغ فكرة بيتر استدعى البنتَين بطريقة غامضة عند حلول الشفق.

وقال: «تعالَيا هنا معي، وأحضرا المَركبة الحربية الرومانية.»

كانت المركبة الحربية الرومانية عربةَ أطفال عتيقة ظلتْ معطلةً على مدى سنواتٍ، وكانت في مخزن التبن الواقع فوق مخزن العربات. قام الأطفال بتشحيم أجزائها

المتحركة حتى أصبحت تتحرك بسلاسةٍ ودون أن تُحدِث ضجيجًا وكأنها دراجةٌ هوائية، وربما عادت استجابتها لذراع الدفة كما كانت في أفضل أيامها.

قال بيتر: «اتبعا قائدكما الجَسور.» وتقدم أمامهما نزولًا على التل باتجاه المحطة.

كان كثير من الصخْرات قد دفعتْ برءوسها من بين العشب فوق المحطة مباشرةً وكأنها كانت، كالأطفال، مولَعةً بالمحطة.

في فجوةٍ صغيرةٍ بين ثلاث صخراتٍ كانت هناك كومةٌ من العُلَّيق والخلَنْج الجافَّين.

أوقف بيتر عربته، وبحذاءٍ عالي الساق به قطعٌ كبيرٌ راح يُقلِّب كومة الأغصان المقطوعة، وقال:

«ها هي ذي أول قطعة فحمٍ في منجم فحم القديس بيتر. سنأخذها إلى البيت في المركبة الحربية. فلتلتزما الدقة والسرعة. لتُنفَّذ كل الأوامر بعناية. ولتُسوَّى أي كتلة غير منتظمة حتى تُناسب المستهلكين العاديين.»

مُلِئَت العربة الحربية عن آخرها بالفحم. وبعدما مُلِئت اضطُروا إلى إفراغها مرةً أخرى؛ لأنها كانت ثقيلةً جدًّا لدرجة أن الأطفال الثلاثة لم يستطيعوا أن يسحبوها لأعلى التل، ولا حتى بعدما ربط بيتر نفسه من حمالة بنطاله في مقبض العربة، وراح يسحبها وهو مُحكِمٌ قبضةَ إحدى يدَيه على حزامِ خصره بينما البنتان تدفعانها من الخلف.

تعين عليهم قطع تلك المسافة ثلاث مراتٍ كي يتمكنوا من إضافة الفحم الذي حصلوا عليه من منجم بيتر إلى كومة فحم أمهم في القبو.

فيما بعد خرج بيتر بمفرده، وعاد يغشاه سوادٌ كثيرٌ وغموض.

وقال: «لقد كنتُ في منجمي. غدًا عند المساء سنحضر الماسات السود إلى البيت في العربة الحربية.»

بعد مرور أسبوع أخبرت السيدةُ فايني الأم عن صمود هذه الكمية الأخيرة من الفحم.

أخذ الأطفال يعانق الواحد منهم نفسه ويعانق بعضهم بعضًا وهم يكتمون ضحكاتهم بتمعجات مرتبكة بينما كانوا يسترقون السمع لكلام السيدة فايني على الدرج. لقد نسوا جميعًا في تلك اللحظة أنه كان هناك أيُّ شكٍ على الإطلاق يخامر بيتر بشأن إذا ما كان التنقيب عن الفحم خطأً.

لكن أتت ليلةٌ مروعةٌ ارتدى فيها ناظر المحطة حذاءً خفيفًا قديمًا كان يلبسه على الشاطئ أثناء إجازته الصيفية، وخرج متسللًا بهدوءٍ شديدٍ إلى الفناء الذي به كومة

فحم سدوم وعمورية «مدن الدائرة»، والتي يحيط بها ذلك الخط المرسوم بالجير. خرج متسللًا إلى هناك، وراح ينتظر مثل قط رابض عند جحر أحد الفئران. كان فوق الكومة شيءٌ صغيرٌ قاتمٌ يزحفُ ويخشخشُ خِلسةً وسط الفحم.

اختبأ ناظر المحطة في ظل عربة سبنسة لها مدخنة صغيرةٌ مصنوعة من القصدير ومكتوب عليها:

«ج. ن.» و«س. ر.»
٣٤٥٧٦
عُد في الحال إلى
تحويلات وايت هيذار.

وظل كامنًا في هذا المخبأ إلى أن توقف الشيءُ الصغير الذي فوق الكومة عن الزحف والخشخشة، ووصل إلى حافة الكومة، ثم بحذرٍ تركَ نفسه لينزل على الأرض، ثم رفع شيئًا ما. في ذلك الحين رفع ناظر المحطة ذراعه، ثم وقعت يده على ياقةٍ، فأصبح بيتر معتقلًا بإحكامٍ من سترته، وكان في قبضته المرتعشة حقيبةُ نجارٍ قديمةٌ مملوءة بالفحم.

قال ناظر المحطة: «ها قد أمسكتُك أخيرًا، أليس كذلك أيها اللص الصغير؟»

قال بيتر بنبرةٍ بحزم قدر وسعه: «أنا لستُ لصًّا، أنا أعمل في منجم فحم.»

قال ناظر المحطة: «هذا الكلام لا ينطلي عليَّ؛ فلتُخبِر به الحمقى.»

قال بيتر: «لكنه صحيحٌ، أيًّا كان من سأخبره به.»

قال الرجل الذي أَمسك به: «أنتَ مُحق. فلتغلق فمك أيها المتهتك الصغير، ولتمضِ معي إلى المحطة.»

صاح في الظلمة صوتٌ مكروب لم يكن صوتَ بيتر: «أوه، لا.»

وجاء من الظلمة صوتٌ آخر: «لا تأخذه إلى مركز الشرطة!»

قال ناظر المحطة: «ليس بعد، بل إلى محطة القطار أولًا. يا إلهي، إنها عصابة كاملة. هل هناك المزيد منكم؟»

قالت بوبي وفيلبس: «نحن فقط»، بينما كانتا تغادران ظلَّ عربة أخرى مكتوبٍ عليها ستيفلي كوليري، ومنقوش عليها بالطباشير الأبيض: «مطلوبة في الطريق رقم ١.»

قال بيتر في غضب: «ماذا تقصدان بالتجسس عليَّ بهذه الطريقة؟»

قال ناظر المحطة: «كان يجب أن يتجسس عليك شخصٌ ما منذ زمنٍ على ما أظن. هيا إلى المحطة.»

قالت بوبي: «أوه، لا تفعل! ألا يمكنك أن تقرر الآن ما ستفعله معنا؟ إنها غلطتنا بقدر ما هي غلطة بيتر تمامًا. لقد ساعدناه في نقل الفحم؛ وكنا نعلم من أين كان يأتي به.»

قال بيتر: «لا، لم تعلما.»

قالت بوبي: «بل كنا نعلم. كنا نعلم كل شيء من البداية. لكننا تظاهرنا بأننا لا نعلم مسايرةً لك لا أكثر.»

ضاق بيتر ذرعًا بالأمر. لقد نقَّبَ عن الفحم، ووجدَ الفحم، ثم قُبِض عليه، وها هو الآن يكتشف أن أختَيه كانتا «تُجارِيانه».

قال بيتر: «لا تمسكني! لن أهرب.»

أطلق ناظر المحطة ياقةَ بيتر، ثم أشعل عود ثقابٍ وراح ينظر إليهم على ضوئه المرتعش.

وقال: «يا إلهي، أنتم الأطفال الذين تسكنون ذلك البيت ذا المداخن الثلاث هناك. إن ملابسكم جميلةٌ للغاية أيضًا. أخبروني الآن، ما الذي جعلكم تفعلون شيئًا كهذا؟ ألم تذهبوا إلى الكنيسة قبل ذلك قطُّ أو تدرسوا كتاب المبادئ الدينية أو أي شيءٍ، ألا تعرفون أن السرقة عملٌ آثم؟» بدأ ناظر المحطة يتكلم بمزيد من الرفق الآن، وقال بيتر:

«لم أظن أنها سرقة. لقد كنتُ شبه متأكد أنها ليست كذلك. ظننت أنها ربما ستكون سرقةً لو أنني أخذتُ الفحم من خارج الكومة. لكنني ظننتُ أني لو أخذته من وسطها فسيمكنني وأنا مطمئنٌّ أن أعتبر ذلك تنقيبًا عن الفحم. إنكم ستستغرقون آلاف السنين كي تحرقوا كل هذا الفحم وتصلوا إلى الأجزاء الوسطى.»

«ليس تمامًا. لكن هل فعلتم هذا من أجل التسلية أم ماذا؟»

قال بيتر باستياء: «ليس ثَمَّ كثيرُ تسليةٍ في حمل هذه الأشياء الفظيعة الثقل لأعلى التل.»

«لِمَ فعلتم ذلك إذن؟» كان صوت ناظر المحطة أكثر لطفًا وهو يسألهم هذا السؤال مما حدا ببيتر إلى أن يرد قائلًا:

«أتذكُر ذلك اليوم الماطر؟ في الواقع، لقد قالت أمي إننا أفقر كثيرًا من أن نوقد نارًا. لقد كنا قبل ذلك نشعل النار دائمًا عندما يكون الجو باردًا في بيتنا، و…»

قاطعته بوبي هامسةً: «إياك!»

قال ناظر المحطة وهو يفرك ذقنه متأمِّلًا: «حسنٌ، سأخبركم بما سأفعله. سأتغاضى عن فعلتكم هذه المرة. لكن تذكر أيها الفتى الصغير، السرقة سرقة، وما أملكه أنا ليس ملكًا لك، سواءٌ أسمَّيتَه تنقيبًا أم لا. عودوا إلى البيت حالًا.»

قال بيتر بحماسة: «أتعني أنك لن تفعل لنا أي شيء؟ في الحقيقة، أنت شخصٌ طيب القلب.»

قالت بوبي: «أنت رجلٌ طيب.»

قالت فيليس: «أنت ودودٌ للغاية.»

قال ناظر المحطة: «لا عليكم.»

وهكذا انصرف الأطفال الثلاثة.

قال بيتر وهم يصعدون التل: «لا تتكلما معي. إنكما جاسوستان وخائنتان؛ هذه حقيقتكما.»

لكنَّ البنتَين كانتا مسرورتَين للغاية لأن بيتر بينهما آمنٌ وطليق، ولأنه في طريقه إلى البيت ذي المداخن الثلاث وليس إلى مركز الشرطة، فلم تكترثا كثيرًا بما قاله.

قالت بوبي في رفق: «لقد قلنا إننا أخطأنا بقدر ما أخطأت أنت.»

«حسنٌ؛ وليست هذه الحقيقة.»

قالت فيليس: «كان القضاة في المحكمة سيصلون إلى النتيجة نفسها. لا تكن متغضبًا يا بيتر. ليس ذنبنا أن اكتشاف أسرارك في غاية السهولة.» وأمسكت ذراعه، لكنه أبعدها عنها.

وواصل كلامه قائلًا: «هناك كمية هائلة من الفحم في القبو على أي حال.»

قالت بوبي: «أوه، إياك! لا أظن أنه يجدر بنا أن نكون مسرورين بذلك.»

قال بيتر مستجمعًا شجاعته: «لا أعرف. لستُ متأكدًا على الإطلاق، ولا حتى الآن، أن التنقيب جريمة.»

لكنَّ البنتَين كانتا متأكدتَين تمامًا. وكانتا أيضًا متأكدتَين تمامًا أنه كان متأكدًا تمامًا، بغض النظر عن قلة اهتمامه بأن يعترف بذلك.

الفصل الثالث

السيد العجوز

بعد مغامرة بيتر مع منجم الفحم، بدا من الأفضل للأطفال أن يبتعدوا عن المحطة؛ لكنهم لم يفعلوا؛ فلم يستطيعوا الابتعاد عن السكة الحديدية. لقد عاشوا من قبل حياتهم كلها في شارعٍ تُقعقِع فيه عربات الأجرة وعربات الركاب الكبيرة طوال الوقت، وكانت عربات الجزارين والخبَّازين وصانعي الشمعدانات (أنا لم أرَ في حياتي قطُّ عربة صانع شمعدانات؛ هل رأيتموها أنتم؟) تمر في أي لحظة. لكن هنا في صمت القرية النائمة العميق لم يكن يمر بهم سوى القطارات. بدا أن تلك القطارات هي كل ما تبقى للأطفال ليربطهم بالحياة القديمة التي كانت يومًا ما حياتهم. بدأ المرور اليومي لأرجلهم الست نزولًا على التل من أمام المنزل ذي المداخن الثلاث يحفر طريقًا وسط العشب القصير النضر. بدءوا يعرفون أوقات مرور قطاراتٍ بعينها، وأطلقوا عليها أسماءً؛ فأسمَوْا قطار التاسعة والربع المتجهَ إلى الأمام بالتنين الأخضر، وقطار العاشرة وسبع دقائق المتجه إلى الخلف دودة وانتلي، أما قطار المدينة السريع الذي كان يمر في منتصف الليل، والذي كانوا يستيقظون من أحلامهم أحيانًا على صوت اندفاعه الصارخ، فأسموه الفرار الليلي المرعب. ذات مرةٍ استيقظ بيتر من نومه، وكان ضوء النجوم باهتًا، وعندما اختلس النظر إليه عبر ستائر غرفته، أطلق عليه هذا الاسم في الحال.

كان السيد العجوز يسافر بالتنين الأخضر. كان رجلًا عجوزًا حسنَ المظهر للغاية، وبدا وكأنه حسنُ الأخلاق أيضًا، وهما أمران مختلفان تمامًا. كان وجهه نضرًا حليق الذقن وكان شعره أبيض اللون، وكان منظر ياقات ملابسه غريبًا بعض الشيء كما لم يكن نوعُ قبعة رأسه مشابهًا تمامًا لما يرتديه الآخرون. بالطبع لمْ يرَ الأطفال هذا كله في البداية. في الحقيقة كان أول ما لاحظوه في السيد العجوز هو يده.

كان ذلك في صباح أحد الأيام وهم جالسون على السور في انتظار التنين الأخضر، الذي تأخر ثلاث دقائق وربعًا بحسب ساعة بيتر ماركة ووتربيري التي أُهدِيتْ له في عيد ميلاده الماضي.

قالت فيليس: «إن التنين الأخضر ذاهبٌ إلى حيث يوجد أبي. لو كان تنينًا حقيقيًّا بالفعل، لأمكننا أن نوقفه ونطلب منه أن ينقل تحايانا الودودة لأبي.»

قال بيتر: «إن التنانين لا تنقل تحايا الناس؛ إنها أعظم من أن تفعل ذلك.»

قالت فيليس: «بل تفعل، لو روَّضتَها ترويضًا كاملًا أولًا. إنها تؤدي الخِدمات كما يحمل كلب الصيد الإسباني الطرائدَ ويُحضِرها لصاحبه، وتأكل من يدِك كذلك. أتساءل لِمَ لا يراسلنا أبي مطلقًا.»

قالت بوبي: «تقول أمي إنه مشغولٌ جدًّا، لكنه سيراسلنا قريبًا، هكذا تقول.»

أبدت فيليس اقتراحًا: «ما رأيكما، لنلوح جميعًا للتنين الأخضر عندما يمر من أمامنا. لو كان تنينًا مسحورًا، فسيفهم ما نعنيه ويحمل تحايانا لأبي. ولو لم يكن كذلك، فإن ثلاث تلويحات ليست بالشيء الكثير. لن نخسر شيئًا.»

وهكذا عندما اندفع التنين الأخضر بسرعةٍ من مدخل وِجاره المعتم وهو يصيح، وكان وجاره هو النفق، وقفَ الأطفال الثلاثة على السور وراحوا يلوحون بمناديل جيوبهم دون أن يتوقفوا ليروا إن كانت مناديل نظيفة أم العكس. كانت المناديل، في الحقيقة، عكس ذلك تمامًا.

ومن إحدى عربات الدرجة الأولى راحتْ يدٌ تلوح لهم كما فعلوا. كانت يدًا نظيفة جدًّا، وتحمل جريدةً. كانت يدَ السيد العجوز.

بعد ذلك تعوَّد الأطفال على تبادل التلويحات مع قطار الساعة التاسعة والربع.

لقد أحب الأطفال، وخاصةً البنتين، فكرةَ أنه ربما يكون السيد العجوز يعرف والدهم، وأنه سيقابله «في العمل»، أينما كان موضعُ ذلك الملجأ الخفي، وسيخبره كيف يقف أطفاله الثلاثة على أحد قضبان السكة الحديدية البعيدة جدًّا في الريف الأخضر وكيف يلوحون بأيديهم باعثين له تحاياهم كل صباح، سواءٌ في أيام المطر أو الصحو.

لقد أصبحوا الآن قادرين على الخروج في جميع أنواع الطقس التي لم يكن يُسمَح لهم بالخروج في مثلها مطلقًا عندما كانوا يعيشون في دارتهم القديمة. كان الفضل في هذا يرجع للخالة إيما، وبدأ الأطفال يشعرون على نحوٍ متزايدٍ أنهم لم يكونوا مُنصِفين

بالقدر الكافي مع هذه الخالة المنفِّرة، وذلك عندما اكتشفوا مدى نفع الأحذية الواقية الطويلة التي تُلبَس فوق الأحذية العادية والسترات المضادة للماء التي سخروا منها عندما اشترتْها لهم.

كانت أمهم طوال ذلك الوقت مشغولةً للغاية بكتاباتها. كانت ترسل الكثير من الأظرف الزرقاء الطويلة المحتوية على القصص؛ وكان يأتي إليها أظرفٌ كبيرةٌ ذات أحجام وألوان مختلفة. كانت أحيانًا تتنهد عندما تفتحها وتقول:

«قصةٌ أخرى تعود إلى عُشها. يا للأسى، يا للأسى!» وكان الأطفال عندئذٍ يشعرون بكثير من الحزن.

لكنها كانت أحيانًا تلوح بالمظروف في الهواء وتقول: «مرحى، مرحى! ها هو ذا محررٌ حكيم. لقد قبل قصتي وهذا هو الدليل.»

كان الأطفال يظنون في بداية الأمر أنَّ «الدليل» هو الخطاب الذي كتبه المحرر الحكيم، لكنهم أدركوا بعد قليلٍ أن الدليل إنما هو قصاصات طويلة من الورق طُبِعَت القصة عليها.

وكان كلما وُصِف أحد المحررين بالحكمة، يكون هناك كعكٌ صغيرٌ مُحلًّى من أجل الشاي.

ذات يومٍ كان بيتر في طريقه إلى القرية لإحضار بعض الكعك من أجل الاحتفال بحكمة محرر مجلة «دنيا الأطفال»، فقابل ناظر المحطة.

شعر بيتر بقلقٍ شديد؛ لأنه كان عندئذٍ قد قضى وقتًا كافيًا في التفكير في أمر منجم الفحم. لم يرغب في إلقاء تحية الصباح على ناظر المحطة، كما تفعلون عادةً مع أي أحدٍ تقابلونه في طريقٍ خالٍ؛ لأنَّ شعورًا مُحرِجًا غمره، حتى احمرَّت منه أذناه، وجعله يظنُّ أن ناظر المحطة ربما لا يكترث للحديث مع شخصٍ كان يسرق قطع الفحم. «يسرق» كلمة بغيضة، لكنَّ بيتر أحس أنها الكلمة المناسبة؛ لهذا نظر في الأرض ولم يقل شيئًا.

كان ناظر المحطة هو مَن بادر بإلقاء تحية الصباح أثناء مروره، فأجابه بيتر: «صباح الخير.» ثم راح يحدث نفسه قائلًا:

«ربما لا يعرف من أنا ونحن في ضوء النهار، وإلا لما كان أظهر هذا الأدب الجم.»

لم يرتَح بيتر للشعور الذي بثته هذه الفكرةُ في نفسه. وقبل أن يعرف ما الذي سيفعله، جرى وراء ناظر المحطة، فتوقف الرجل عندما سمع حذاء بيتر الطويل وهو

يتحرك مسرعًا على الطريق محدثًا صوتًا كأنه الجرش، ووجده قد لحق به لاهثًا للغاية وأذناه مصطبِغتان باللون الأرجواني، وهو يقول:

«لا أريدك أن تكون مهذبًا معي إذا كنتَ لمْ تعرفني عندما رأيتني.»

قال ناظر المحطة: «ماذا؟»

تابع بيتر حديثه قائلًا: «ظننتُ أنك ربما لمْ تعرف أنني أنا الذي أخذتُ الفحم، عندما قلتَ «صباح الخير.» لكنني أنا مَن أخذه، وأنا آسف. هذا كل شيء.»

قال ناظر المحطة: «يا إلهي. لم أكن أفكر تمامًا في أمر قِطَع الفحم الزهيدة على الإطلاق. فلندع ما مضى الآن. وإلى أين كنتَ ذاهبًا بهذه السرعة؟»

قال بيتر: «سوف أشتري بعض الكعك من أجل الشاي.»

قال ناظر المحطة: «كنتُ أحسبكم فقراء للغاية.»

أسرَّ بيتر كلامه إلى ناظر المحطة قائلًا: «إننا كذلك بالفعل. لكننا دائمًا ما نحصل على ثلاث قطع من فئة نصف البنس من أجل الشاي كلما باعتْ أمي قصةً أو قصيدةً أو أي شيء.»

قال ناظر المحطة: «يا إلهي، إن والدتك تكتب القصص إذن، أليس كذلك؟»

قال بيتر: «أجمل قصص قد تقرؤها يومًا.»

«يجدر بك أن تفتخر للغاية لأن لك أمًّا بهذه البراعة.»

قال بيتر: «نعم. لكنها كانت تلعب معنا أكثر من هذا قبل أن يتوجب عليها أن تكون بهذه البراعة.»

قال ناظر المحطة: «حسنٌ. لا بد أن أنصرف. ولتزُرنا في المحطة كلما رغبت في الزيارة. أما عن قطع الفحم، فإنني أعدك ... حسنٌ ... أوه، لا، لن نتكلم في هذا الأمر أبدًا، أليس كذلك؟»

قال بيتر: «شكرًا لك. إنني سعيدٌ جدًّا لأننا حلَلْنا الأمر كله فيما بيننا.» ومضى حتى عَبَرَ الجسرَ الممتد فوق قناة الماء وتوجَّه إلى القرية كي يُحضر الكعك، وهو يشعر براحةِ بالٍ أكبر مما ظل يشعر به مُذ شُدَّت يدُ ناظر المحطة على ياقته في تلك الليلة وسط قطع الفحم.

في اليوم التالي بعدما أرسلوا موجة تحياتهم ذات القمم الثلاث إلى أبيهم مع التنين الأخضر، ورد عليهم السيد العجوز ملوحًا بيده كالمعتاد، قادهم بيتر بفخرٍ إلى المحطة.

قالت بوبي: «لكن، أيجدر بنا أن نذهب إلى هناك؟»

قالت فيليس موضحةً: «تقصد بعد واقعة الفحم.»

قال بيتر في غير اكتراث، وتظاهر بأنه لم يسمع ما قالته فيليس: «لقد قابلتُ ناظر المحطة أمس، لقد وجه لنا دعوةً خاصةً لزيارة المحطة وقتما نحب.»

ردَّدَت فيليس ما قالته من قبل: «بعد واقعة الفحم؟» ثم قالت: «توقفا لحظةً؛ لقد انفك رباط حذائي من جديد.»

قال بيتر: «إنه دائمًا ينفك من جديد، وقد كان ناظر المحطة سيدًا أنبل مما ستكونين في أي يومٍ يا فِل؛ وأنتِ ترجمين رأس فتًى بالفحم هكذا.»

ربطتْ فيليس رباط حذائها ومضت في صمت، لكنَّ كتفَيها انتفضَتا، وعلى الفور انحدرتْ دمعةٌ كبيرةٌ على أنفها وتناثرت على حديد خط السكة الحديدية. رأت بوبي دمعتها.

فتوقفتْ فجأةً، وطوَّقَت الكتفَين المختلجتَين بذراعها، وقالت: «يا إلهي، ما الأمر يا حبيبتي؟»

قالت فيليس وهي تنشج بالبكاء: «لقد قال إنني لستُ ... لستُ من النبيلات. إنني لمْ أنعَتْه قطُّ بأنه ليس من النبلاء، ولا حتى عندما ربط دُمْيتي كلوريندا في حُزمة الحطب وأحرقها على الخازوق ليجعلها شهيدةً في لعبته.»

كان بيتر بالفعل قد ارتكب هذه الفعلة الشنعاء قبل سنة أو سنتَين.

قالت بوبي بأمانة: «في الحقيقة، أنتِ التي بدأتِ بالكلام عن الفحم وكل هذا. ألا تظنان أنه من الأفضل أن تتراجعا عن كل ما قلتماه منذ أن لوحنا للسيد العجوز، وأن نعتبر أنَّ كِلَيكما قد دافع عن كرامته بما يكفي لكي تتصالحا الآن.»

قالت فيليس شاهقةً: «سأفعل لو فعل بيتر.»

قال بيتر: «حسنٌ، لقد رُدَّت إليَّ كرامتي. تفضلي، استعملي منديلي يا فِل، أرجوكِ، إذا كنتِ قد أضعتِ منديلك كالعادة. أتساءل ماذا تفعلين بهذه المناديل.»

قالت فيليس في غضب: «لقد أخذتَ آخر منديلٍ كان معي لتربط به باب حظيرة الأرانب. لكنكَ لا تحفظ المعروف أبدًا. صحيحٌ ما يقوله كُتَّاب الشعر إنَّ فم الولد الأدرد أحدُّ من فم الأفعى؛ لكنَّه يقصد بالأدرد ناكر الجميل. هكذا أخبرَتني الآنسة لُو.»

قال بيتر بضجر: «حسنٌ، أنا آسف. انتهينا! والآن هلا أسرعتِ؟»

وصل الأطفال إلى المحطة وقضَوا مع الحمَّال ساعتَين مليئتَين بالبهجة. كان رجلًا فاضلًا ولمْ يَبدُ عليه أي انزعاجٍ من الإجابة على الأسئلة الاستفسارية التي عادةً ما يتبرم منها كثيرٌ من الناس ممن هم في طبقة اجتماعية أعلى منه.

أخبرهم بكثير من الأشياء لم يكونوا يعلمونها من قبل؛ ومما أخبرهم به، على سبيل المثال، أنَّ تلك الأشياء التي تربط عربات القطار كالخطاف بعضها ببعض تُسمى الوصلات، وأنَّ وظيفة الأنابيب الشبيهة بالأفاعي الضخمة والتي تتدلى فوق الوُصلات هي إيقاف القطار.

قال الحمال: «لو أن أحدكم تمكن من الإمساك بواحدةٍ منها أثناء سير القطار وفصلها، فسيتوقف مُحدِثًا رجةً في الحال.»

قالت فيليس: «من الذي سيتوقف؟»

قال الحمَّال: «القطار بالتأكيد.» ومنذ ذلك الحين لم يعد الأطفال يتحدثون عن القطار على أنه جمادٌ أبدًا.

«وتعرفون ذلك الشيء الموجود في العربات والمكتوب عليه «تُحصَّل غرامة بقيمة خمسة جنيهات في حالة الاستخدام الخاطئ.» لو أنكم أخطأتم في استخدامه، فسيتوقف القطار.»

قالت روبيرتا: «ولو استخدمتَه بطريقة صحيحة؟»

قال الحمَّال: «سوف يتوقف أيضًا، في ظني. لكنَّ استخدامه لا يكون صحيحًا إلا عندما تكونون عرضة للقتل. كان هناك امرأةٌ مسنة ذات مرة؛ خدعها أحدهم مازحًا وأخبرها أنه جرس مقصف القطار، واستخدمتْه بطريقةٍ خاطئة؛ إذ لم تكن حياتُها معرضةً لخطر، وإنما كانت جائعةً، وعندما توقف القطار وجاء الحارس وهو يتوقع أن يجد شخصًا ما غارقًا في دمائه يلفظ أنفاسه الأخيرة، قالت: «أوه، من فضلك يا سيدي، أريد كأسًا من الجعة وكعكةً محلاة.» هكذا قالت. وكانت النتيجة أن تأخر القطار عن موعده سبع دقائق.»

«ماذا قال الحارس للسيدة العجوز؟»

أجاب الحمَّال: «لا أعرف. لكنني أراهن أنها لمْ تنسَ ما قاله لها سريعًا، أيًّا كان ما قاله.»

ومع هذا الحديث الممتع مرَّ الوقتُ سريعًا جدًّا.

خرج ناظر المحطة مرةً أو مرتَين من ذلك المعبد الداخلي المقدس القابع خلف المكان الذي به تلك الفتحةُ التي يبيعون لك التذاكر منها، وكان مرِحًا للغاية معهم جميعًا.

همست فيليس لأختها قائلةً: «وكأنه لم يُكتشَف أمر الفحم قطُّ.»

أعطى ناظر المحطة كلًّا منهم برتقالة، ووعدهم أن يصحبهم إلى كشك الإشارات يومًا ما، عندما لا يكون شديد الانشغال.

مرَّ عديدٌ من القطارات من المحطة، ولاحظ بيتر للمرة الأولى أن القاطرات عليها أرقامٌ، مثل عربات الأجرة.

قال الحمَّال: «نعم، أعرف فتًى مهذبًا كان يُدوِّن أرقام كل قاطرةٍ يراها؛ كان يُدونها في مفكرةٍ خضراء ذات أركان فضية، لأن والده كان من أغنى تجار الأدوات المكتبية بالجملة.»

أحس بيتر أنه يستطيع أن يدون أرقام القاطرات هو الآخر، حتى ولو لمْ يكن ابنَ تاجر أدواتٍ مكتبية. ولأنه لم يكن لديه مفكرةٌ ذات جلدٍ أخضر وأركان فضية، أعطاه الحمَّال مظروفًا أصفر فدوَّن عليه:

٣٧٩

٦٦٣

وأحس أن هذه ستكون بدايةً لِما سيكون مجموعة ممتعة للغاية.

في تلك الليلة أثناء احتساء الشاي سأل بيتر والدته إنْ كان لديها مفكرة ذات جلد أخضر وأركان فضية. لم يكن عندها شيءٌ كهذا؛ لكن عندما علمتْ لماذا يريدها أعطتْه واحدةً سوداء صغيرة.

وقالت: «لقد نُزِع منها بعض صفحاتها، لكنها ستستوعب الكثير جدًّا من الأرقام، وعندما تمتلئ سأعطيك واحدةً أخرى. أنا سعيدةٌ جدًّا لأنك تحب السكة الحديدية. أرجوك فقط ألا تسير أبدًا على خط السكة الحديدية.»

سأل بيتر بعد فترة صمتٍ قصيرةٍ كئيبة، تبادل هو وأمه فيها نظراتٍ خاطفة يائسة: «حتى وإن لم نَسِر في مواجهة القطار وهو قادم؟»

قالت الأم: «لا، أرجوك لا تفعل.»

عندئذٍ قالت فيليس: «أمي، أما سرتِ على خطوط السكة الحديدية وأنتِ صغيرةٌ أبدًا؟»

كانت أمهم أمًّا أمينةً وصادقةً، لذا لم تجد بدًّا من قولها: «بلى، سرتُ عليها.»

قالت فيليس: «حسنٌ، إذن.»

«لكن، يا أحبتي، أنتم لا تعلمون كم أحبكم. ماذا سأفعل لو تعرضتم للأذى؟»

سألت فيليس: «هل تحبيننا أكثر مما كانت جدتي تُحبكِ وأنتِ صغيرة؟» أشارت لها بوبي كي تكف عن الكلام، لكنَّ فيليس لمْ تعِ الإشارات قط، مهما بلغ وضوحها.

امتنعت أمها عن الإجابة للحظة. وقامت تصب مزيدًا من الماء في إبريق الشاي.

ثم قالت أخيرًا: «لم يحب أحدٌ أحدًا قط مثلما أحبَّتني أمي.»

ثم سكتت من جديد، وركلت بوبي فيليس بشدةٍ من تحت المنضدة؛ لأن بوبي نوعًا ما أدركت الخواطر التي جعلت أمها صامتة للغاية هكذا؛ لقد كانت أمها تتذكر أيامَ كانت طفلةً صغيرةً وكانتْ هي كل شيءٍ بالنسبة إلى والدتها. يبدو أن مبادرة المرء إلى اللجوء لأمه عند وقوعه في ورطة أمرٌ يسيرٌ وطبيعيٌّ للغاية. وكانت بوبي متفهمة بعض الشيء أن الناس لا يكفون عن اللجوء إلى أمهاتهم في مشاكلهم حتى عندما يكبرون، وكانت تعتقد كذلك أنها نوعًا ما تعرف معنى أن يكون المرء حزينًا، ولا يعود لديه أمٌّ يلجأ إليها.

لهذا ركلتْ فيليس، التي قالت:

«لماذا تركلينني هكذا يا بوب؟»

ضحكتْ أمها قليلًا ثم تنهدتْ وقالت:

«حسنٌ إذن. فقط طمئنوني أنكم تعرفون الاتجاه الذي تأتي القطارات منه؛ ولا تمشوا على خط السكة الحديدية القريب من النفق ولا قُرب المنعطفات.»

قال بيتر: «إن القطارات تلتزم بالسير ناحية اليسار مثل العربات. لذا لو التزمنا نحن بالسير جهةَ اليمين، فلا بد أننا سنراها وهي قادمة.»

قالت الأم: «حسنٌ إذن.» وأزعم أنكم تظنون أنه ما كان ينبغي لها أن تقول هذا. لكنها تذكرتْ عندما كانت هي نفسها طفلةً صغيرة، وقالت ذلك؛ لكن لا أطفالها ولا أنتم ولا أي أطفال آخرين على الإطلاق يمكنهم أن يفهموا على وجه التحديد ماذا كلَّفها فِعلُ هذا. فقط قلةٌ قليلةٌ منكم، مثل بوبي، ربما يفهمون عن الأمر شيئًا قليلًا جدًّا.

في اليوم التالي مباشرةً لازمت الأم الفراش لأن رأسها كان يؤلمها بشدة. كانت يداها ساخنتَين للغاية، ولم ترغب في تناول أي طعام، وكان حلقها ملتهبًا بشدة.

قالت السيدة فايني: «لو كنتُ مكانكِ يا سيدتي لأرسلتُ في طلب الطبيب. إن كثيرًا من الأمراض المُعدية منتشر هذه الأيام. لقد أصاب البردُ كبرى بنات أختي، وقد نفذَ إلى عظامها، وبحلول عيد الميلاد تكون قد أتمت عامَين منذ إصابتها، لكنها لم تعد مثلما كانت منذ ذلك الحين.»

لم ترغب الأم في البداية في طلب الطبيب، لكنها شعرتْ عند حلول المساء أن حالتها قد ساءت للغاية لذا أرسلت بيتر إلى القرية، إلى ذلك المنزل الذي تنتصب أمام بوابته

ثلاث شجيرات من شجر القوطيسوس، وعلى البوابة لوحة نحاسية مستطيلة مكتوب عليها دبليو. دبليو. فوريست، طبيب.

جاء الطبيب دبليو. دبليو. فوريست في الحال. تحدث مع بيتر في طريقه إلى البيت. وقد بدا رجلًا لطيفًا وحكيمًا للغاية، وكان شغوفًا بالسكك الحديدية، والأرانب، وأشياء مهمة جدًّا.

عندما انتهى من فحص الأم قال إنها مصابة بالنزلة الوافدة.

قال الطبيب لبوبي في الردهة: «والآن يا آنسة جريف إيرز، أعتقد أنكِ ترغبين في أن تكوني رئيسة الممرضات.»

قالت: «بالتأكيد.»

«حسنٌ إذن، سوف أرسل لكم بعض الأدوية. أشعلي نارًا جيدةً وأبقيها مشتعلةً. جهزي كمية من حساء لحم البقر الدسِم لكي تَسقيها إياه حالما تنخفض حرارتها. يمكنها أن تأكل العنب الآن، وحساء لحم البقر المركز؛ وماء الصودا، واللبن، ويُفضَّل أن تشتري زجاجة من شراب البراندي. أفضل نوعٍ من البراندي. إن البراندي الرخيص أسوأ من السم.»

طلبت منه بوبي أن يدون كل هذا في ورقة، ففعل.

عندما عرضت بوبي القائمة التي كتبها على أمها أخذت تضحك. لقد كانتْ ضحكةً، كما ارتأتها بوبي، لكنها كانت ضحكةً غريبةً وواهنة.

قالت أمها وهي راقدة في الفراش وعيناها تلمعان مثل خرزات العقد: «هذا هراء. لا أستطيع شراء كل هذا الكلام الفارغ. اطلبي من السيدة فايني أن تسلق رطلَين من عظام رقبة الشاة من أجل غدائكم غدًا، ويمكنني تناول بعض المرق. أريد مزيدًا من الماء الآن يا حبيبتي. ولتحضري طستًا من فضلك واغسلي يدَيَّ بالإسفنجة.»

امتثلت روبيرتا للأمر. وعندما فعلت كل ما بوسعها لتخفيف معاناة أمها، نزلت إلى الآخرين. كانت وجنتاها شديدتَي الحمرة، وظلت شفتاها مزمومتَين، وكانت عيناها لامعتَين كعينَي أمها تقريبًا.

ثم حدثَتْهما بما قاله الطبيب، وما قالته أمها.

وبعدما قصتْ عليهما كل شيءٍ قالت: «والآن، ليس هناك أحد غيرنا ليفعل أي شيء، وعلينا أن نفعل. أنا معي شلنٌ لشراء اللحم.»

قال بيتر: «يمكننا أن نتدبر أمرنا من دون اللحم البغيض، سوف يسد الخبز والزبد رمَقنا. لقد عاش الناس على أقلَّ من هذا في الجزر المهجورة مراتٍ عديدة.»

قالت أخته: «بالطبع.» وأرسلوا السيدة فايني إلى القرية لتشتري أقصى ما يمكنها شراؤه بالشلن من شراب البراندي وماء الصودا وحساء لحم البقر الدسم.

قالت فيليس: «لكننا حتى ولو لم نحصل على أي شيءٍ لنأكله على الإطلاق، فلا يمكنكما شراءُ كل هذه الأشياء الأخرى بمال غدائنا.»

قالت بوبي في عبوس: «لا. يجب أن نجد حلًّا آخر. والآن ليعتصر الجميع ذهنه لأقصى ما يستطيع.»

فكر الأطفال بالفعل. وبعد قليلٍ تكلموا. ثم بعد ذلك، عندما صعدت بوبي للجلوس إلى جوار أمها في حال احتاجت لأي شيء، انشغل الاثنان الآخران للغاية بمقصٍّ وملاءة بيضاء، وفرشاة طلاء، وعلبة الورنيش الأسود الذي كانت السيدة فايني تستخدمه لتلميع حوامل نيران المدفأة وحواجزها. لم ينجحا في فعل ما أرادا فعله على وجه التحديد بواسطة الملاءة الأولى، لذا أخرجا واحدةً أخرى من خزانة المُلاءات. لم يخطر ببالهما أنهما كانا يُتلِفان ملاءات جيدة ذات سعر لا يُستهان به. لم يعرفا سوى أنهما كانا يفعلان خيرًا؛ لكنَّ ما كانا يفعلانه سيظهر لاحقًا.

نقلت بوبي سريرها إلى غرفة أمها، واستيقظت عدةَ مراتٍ أثناء الليل لتُذْكِي النار، وتَسقي أمها اللبن وماء الصودا. كانت أمها تُحدِّث نفسها كثيرًا، لكن لم يبدُ أن لكلامها أيَّ معنًى. وفي مرةٍ من المرات استيقظت فجأةً وأخذت تنادي: «أمي، أمي!» وعلمتْ بوبي أنها كانت تنادي جدتها، وأنها نسيَتْ أنه لم يكن لندائها أي فائدة؛ لأن جدتها قد تُوفِّيت.

في الصباح الباكر سمعتْ بوبي اسمها فقفزت من الفراش وأسرعت إلى جوار سرير أمها.

قالت الأم: «يا إلهي، آه، نعم؛ أظن أنني كنتُ نائمة. حبيبتي الصغيرة المسكينة، كم سيصيبك من الإرهاق؛ إني لأكره أن أُسبِّب لكِ كل هذا العناء.»

قالت بوبي: «عناء!»

قالت أمها: «آه، لا تبكي يا حبيبتي، سأكون على ما يُرام خلال يومٍ أو يومَين.»

وأجابتها بوبي قائلةً: «نعم.» وحاولت أن تبتسم.

عندما تكون معتادًا على قضاء عشر ساعات من النوم المتواصل، فإن الاستيقاظ ثلاث أو أربع مراتٍ أثناء نومك يجعلك تشعر وكأنك كنتَ مستيقظًا طوال الليل. أحستْ بوبي ببلادةٍ شديدة وكانت عيناها متقرِّحتَين وجافتَين، لكنها رتبت الغرفة، وأعدت كل شيءٍ بعناية قبل مجيء الطبيب.

كان هذا في الساعة الثامنة والنصف.

قال الطبيب وهو عند الباب الأمامي: «أيسير كل شيءٍ على ما يُرام، أيتها الممرضة الصغيرة؟ هل أحضرتِ شراب البراندي؟»

قالت بوبي: «لقد أحضرتُ البراندي، في زجاجةٍ مسطحة صغيرة.»

قال: «لكنني برغم هذا لمْ أرَ العنب ولا حساء لحم البقر الدسِم.»

قالت بوبي بلهجةٍ حاسمة: «لا. لكنك ستراهما غدًا. وثمة بعضٌ من لحم البقر يُطهى على نارٍ هادئةٍ في الفرن من أجل الحساء الدسم.»

سألها: «مَن علَّمكِ صنع هذا؟»

«لاحظتُ ما فعلتْه أمي عندما أُصيبتْ فِل بمرض النكاف.»

قال الطبيب: «حسنٌ، والآن أحضري خادمتكم العجوز لتجلس مع أمك، ثم تناولي إفطارًا جيدًا، واذهبي إلى فراشك مباشرةً ونامي إلى وقت الغداء. فلا نُطيق أنْ تَمرض رئيسة الممرضات.»

كان طبيبًا لطيفًا للغاية بحق.

عندما خرج قطار التاسعة والربع من النفق في صباح ذلك اليوم أنزل السيد العجوز الذي يركب في عربة الدرجة الأولى صحيفتَه، واستعدَّ كي يلوح بيده للأطفال الثلاثة الجالسين على السور. لكن في هذا الصباح لم يكن ثمة ثلاثة أطفال. لم يكن هناك سوى واحد؛ هو بيتر.

لم يكن بيتر واقفًا على القضبان أيضًا، كالمعتاد. وإنما كان واقفًا أمامها وكانت هيئته تشبه هيئةَ رجل الاستعراضات وهو يستعرض الحيوانات في معرض للحيوانات، أو هيئةَ الكاهن الطيب عندما يشير بعصًا سحريةٍ إلى «مشاهد من أرض فلسطين»، عندما يكون لديه فانوسٌ سحريٌّ (جهاز بصريٌّ استخدمه القدماءُ لتكبير الصور وعرضها) وهو يشرح للناس ما فيه من صور.

كان بيتر يشير هو الآخر. وكان ما يشير إليه ملاءة بيضاء كبيرة مثبتة على السور. كان على الملاءة حروف سوداء سميكة يجاوز طولها القدم.

كان بعضها قد سال حبره قليلًا؛ لأن فيليس كانت متحمسةً على نحو مبالغ فيه وهي تضع الورنيش الأسود، لكن الكلمات كانت تُقرَأ بسهولةٍ كبيرة.

وهذا ما رآه السيد العجوز وآخرون غيرُه من ركاب القطار مكتوبًا بالأحرف السوداء الكبيرة على الملاءة البيضاء:

انظُر إلى المحطة.

نظر كثيرٌ من الناس إلى المحطة فأصابهم الإحباط؛ لأنهم لم يروا شيئًا غير مألوف. وكذلك نظر السيد العجوز، وفي البداية لمْ يرَ هو الآخر أكثر مما ألِفه من رصيف المحطة الذي يكسوه الحصى وأشعة الشمس ونباتات المنثور الأصفر وزهور أذن الفأر على أطراف المحطة. لكنْ ما إن بدأ القطار ينفث الدخان ويستعد للانطلاق من جديدٍ حتى رأى السيد العجوزُ فيليس. كانت تلهث بشدة من الجري.

قالت: «أوه، ظننتُ أني لن أدركك. لم تكف أربطة حذائي عن السقوط وقد تعثرتُ فيها مرتَين. تفضل، خذ هذه.»

ودسَّتْ في يده رسالةً دافئةً رطبةً والقطار يتحرك.

أسند الرجل ظهره إلى الركن الذي كان جالسًا فيه وفتح الرسالة. وها هو ذا ما قرأه:

سيدي العزيز، نحن لا نعرف اسمك

أمنا مريضة والطبيب أمرنا أن نُعطيَها الأشياء المكتوبة في آخر الرسالة، لكنها تقول إنها لا تملك ثمنها، وتأمرنا أن نشتري اللحم لأنفسنا وتقول إنها ستشرب من مرقه. نحن لا نعرف أحدًا هنا غيرك، لأن والدنا مسافرٌ ولا نعرف عنوانه. والدنا سيدفع لك ثمن هذه الأشياء، أو إذا فقد ماله كله، أو أي شيء، فسيدفع لك بيتر ثمنها عندما يكبر. هذا وعد شرف. أنا مدينٌ لك بثمن كل الأشياء التي تحتاجها أمُّنا.

توقيع بيتر

هل تسمح بإعطاء الطرد لناظر المحطة، لأننا لا نعرف في أي قطارٍ ستأتي؟ قل له إن هذا من أجل بيتر الذي اعتذر من أجل الفحم. وسيفهم.

روبيرتا

فيليس

بيتر

ثم جاءت في نهاية الرسالة قائمةُ الأشياء التي أمر بها الطبيب.

قرأ السيد العجوز القائمة كاملة مرةً، فانتصب حاجباه. ثم قرأها ثانيةً وابتسم قليلًا. وعندما قرأها للمرة الثالثة، وضعها في جيبه وواصل قراءة جريدة التايمز.

في حوالي السادسة من مساء ذلك اليوم سمع الأطفال طرقًا على الباب الخلفي. أسرع الثلاثة لفتحه، فوجدوا الحمَّال الودود، الذي كان قد أخبرهم بالكثير جدًّا من الأشياء المثيرة عن السكك الحديدية، واقفًا أمامه. أنزل الحمَّال زَنْبيلًا كبيرًا على بلاط المطبخ.

وقال: «سيدٌ عجوز طلب مني أن أحضره إلى هنا في الحال.»

قال بيتر: «شكرًا جزيلًا.» ثم، لما تلكَّأ الحمَّالُ، أضاف بيتر:

«أنا في غاية الأسف لأنه ليس معي بنسان أعطيهما لك كما يفعل أبي، لكن ...»

قال الحمَّال باستياء: «دعك من هذا الحديث لو سمحت. ما كنتُ أفكر في أي بِنسَين. إنما أردتُ أن أواسيكم لأن صحةَ والدتكم ليستْ على ما يُرام، وأن أسأل كيف حالُها الليلة؛ وقد أحضرتُ لها بعض زهور النسرين؛ إن رائحتها جميلة للغاية. بنسان حقًّا!» وأخرج باقةً من زهور النسرين من تحت قبعته، وهو ما علقت عليه فيليس بعد ذلك بقولها: «تمامًا مثلما يفعل الساحر.»

قال بيتر: «أشكرك شكرًا جزيلًا، وأعتذر بشأن البنسَين.»

قال الحمَّال، ولم يُخرِج الكلام من قلبه، ولكنه قاله بأدب: «لا عليك.» ثم انصرَف.

بعد ذلك أخذ الأطفال يفكون الزنبيل. كان يكسوه القش أولًا، ثم كان هناك ألواحٌ خشبيةٌ رقيقةٌ جدًّا، ثم ظهرتْ كل الأشياء التي طلبوها، وكان يوجد الكثير منها، ثم أشياءٌ كثيرةٌ جدًّا لم يطلبوها؛ كان من هذه الأشياء الأخرى الدُّرَّاق ونبيذ بورت واين البرتغالي ودجاجتان، وصندوق من الورق المُقوَّى به ورودٌ حمراءُ كبيرةٌ طويلةُ السيقان، وزجاجةٌ خضراء طويلةٌ ورفيعة من عطر الخُزامى، وثلاث زجاجاتٍ أصغر وأبدن منها من ماء الكولونيا. وكانت هناك رسالة كذلك.

كانت الرسالة تقول: «أعزائي روبيرتا وفيليس وبيتر، ها هي ذي الأشياء التي تريدونها. ستسألكم أمكم من أين أتيتم بها. أخبروها أنَّ مَن أرسلها صديقٌ علم بأمر مرضها. عليكم أن تُخبروها كل شيءٍ عن الأمر بالتأكيد عندما تتعافى. وإذا قالت إنه ما كان يجدر بكم أن تطلبوا هذه الأشياء، فأخبروها أنني أرى أنكم كنتم مُحِقين تمامًا، وإنني أرجو منها أن تسامحني لأنني سمحتُ لنفسي بهذا العمل الذي أسعدني كثيرًا.»

كانت الرسالةُ موقعةً باسم جي. بي. ثم لقب لم يستطع الأطفال قراءته.

قالت فيليس: «أظن أننا أحسنًّا التصرف.»

قالت بوبي: «أحسنًّا؟ بالتأكيد أحسنًّا.»

قال بيتر ويداه في جيوبه: «مع ذلك، فأنا لا أتطلع تمامًا لإخبار أمي بحقيقة الأمر كاملةً.»

قالت بوبي: «يجب ألا نفعل قبل أن تتعافى، وعندما تتعافى سنكون سعداء جدًّا ولن نُباليَ بمسألةٍ تافهةٍ كهذه. أوه، انظروا فقط إلى الورود! لا بد أن أصعد بها إليها.»

قالت فيليس وهي تشم الزهور بصوت عالٍ: «وزهور النسرين، لا تنسَي زهور النسرين.»

قالت روبيرتا: «بالطبع لن أنسى! لقد أخبرتني أمي قبل أيام قليلةٍ أنه كان في منزل أمها وشيعٌ كثيفٌ من هذه الزهور عندما كانت طفلةً صغيرة.»

الفصل الرابع

لصة القطار

كان ما تبقى من الملاءة الثانية وورنيش برونزويك الأسود كافيًا تمامًا لصنع لافتة مكتوبٍ عليها:

لقد أوشكت على التعافي شكرًا لك.

بُسِطتْ هذه اللافتة أمام التنين الأخضر بعد حوالي أسبوعَين من وصول الزنبيل الرائع. وعندما رآها السيد العجوز ردَّ عليهم ملوحًا بيده في ابتهاج من القطار. وعندما انتهى الأطفال من هذا رأوا أن الوقت قد حان لإخبار والدتهم بما فعلوه أثناء مرضها. لمْ يبدُ الأمرُ على الإطلاق بتلك السهولة التي كانوا يتصورونها. لكنْ لم يكن من فِعله بُد. وقد فعلوه. غضبتْ أمهم غضبًا شديدًا. نادرًا ما كانت تغضب من قبل، لكنها في تلك اللحظة غضبتْ غضبًا لم يرَوه منها قبل ذلك قطُّ. كان ذلك مروعًا. لكنه ازداد سوءًا عندما بدأتْ فجأةً في البكاء. إن البكاء مُعدٍ، على ما أعتقد، مثل الحصبة والسعال الديكي. فقد وجد الجميع أنفسهم وقد انخرطوا في بكاءٍ جماعي.

توقفتْ أمهم عن البكاء أولًا. وجففتْ عينَيها ثم قالت:

«أعتذر لأنني غضبتُ هكذا يا أحبتي، لأنني أعرف أنكم لمْ تفهموا.»

قالت بوبي وهي تنشج بالبكاء: «لم نقصد أن نسيء التصرف يا أمي.» وأخذ بيتر وفيليس يشهقان طويلًا.

قالت أمهم: «والآن، أنصتوا إليَّ، صحيحٌ أننا فقراء، لكنَّ عندنا من المال ما يكفي لسد احتياجاتنا الضرورية. يجب ألَّا تُخبروا الجميع بشئوننا الخاصة؛ هذا خطأ. وإياكم أبدًا، أبدًا، أبدًا أن تطلبوا ممن لا تعرفونهم أن يعطوكم شيئًا. تذكَّروا هذا دائمًا؛ سمعتم؟»

عانقوها جميعًا وراحوا يدعكون وجناتهم المبللة في وجنتَيها ووعدوها بطاعتها فيما أمرت به.

«وسوف أكتب رسالةً لصاحبكم العجوز، وسأخبره أنني لم أرضَ؛ أوه، بالطبع سأشكره أيضًا على معروفه. أنا غير راضيةٍ عمَّا فعلتموه أنتم يا أحبتي، وليس عمَّا فعله السيد العجوز. لقد كان طيبًا للغاية. ويمكنكم إعطاء الرسالة لناظر المحطة ليعطيها له؛ ولن نتكلم في هذا الأمر بعد ذلك إطلاقًا.»

بعد ذلك، عندما أصبح الأطفال بمفردهم، قالت بوبي:

«أليست أمنا عظيمة؟ هل رأيتم أيَّ أحدٍ من الكبار غيرها يعتذر لأنه كان غاضبًا.»

قال بيتر: «نعم، إنها عظيمةٌ حقًّا؛ لكنَّ الأمر يصبح مخيفًا بعض الشيء عندما تكون غاضبة.»

قالت فيليس: «إنها تشبه ذلك المُنتقِم المُشرق الذي تتحدث عنه أغنيةُ «أفينجينج آند برايت». لو لم يكن الأمر مخيفًا جدًّا لأحببتُ أن أنظر إليها. إنها تبدو جميلةً للغاية عندما تستشيط غضبًا.»

أخذ الأطفال الرسالةَ إلى ناظر المحطة.

فقال: «أعتقد أنكم قلتم إنه ليس لديكم أي أصدقاء إلا في لندن.»

قال بيتر: «لقد تعرفنا عليه بعدما أخبرناك بهذا.»

«لكنه لا يعيش بالقرب من هنا، أليس كذلك؟»

«لا؛ إنما عرَفناه من السكة الحديدية.»

بعد ذلك عاد ناظر المحطة إلى ذلك المعبد الداخلي المقدس وراء النافذة الصغيرة التي تُباع منها التذاكر، وذهب الأطفال إلى غرفة الحمَّالين وراحوا يتكلمون مع الحمَّال. لقد عرَفوا منه العديد من الأشياء المشوقة؛ كان من بينها أن اسمه بيركس، وأنه متزوجٌ ولديه ثلاثة أطفال، وأن الأضواء التي في مقدمة القاطرة تُسمَّى أضواء الرأس والتي في الخلف تُسمَّى أضواء الذيل.

همست فيليس قائلةً: «وهذا إنما يدل على أن القطارات تنانينُ متنكرة بالفعل، ولها رءوس وذيول تليق بها.»

في ذلك اليوم لاحظ الأطفال للمرة الأولى أن القاطرات ليست كلها متشابهة.

قال الحمَّال الذي يُدْعى بيركس: «متشابهة؟ يا إلهي، أَحبَّكِ الرب، لا يا آنسة. ليستْ متشابهةً إلا بقدر ما تُشبهينني وأُشْبهك. تلك القاطرة الصغيرة، التي مرتْ من أمامنا

منذ قليل بمفردها تمامًا، إنها تحتوي على خزانات الوقود والماء داخلها؛ لقد غادرتْ لتحويل مسار قطارٍ ما في الجانب الآخر من مدينة ميدبريدج. ربما تُشبِهك هذه القاطرة أيتها الآنسة. بعد ذلك توجد قاطرات البضائع، إنها ضخمة وكبيرة ولها ثلاث عجلات على كل جانب من جانبَيها، وهذه العجلات متصلة ببعضها بقضبان حديدية لتقويتها، وهذه ربما تُشبهني أنا. ثم هناك قاطرات الخطوط الرئيسية والتي ربما تُشبِه هذا الفتى المهذب عندما يكبُر ويفوز في كل السباقات في مدرسته؛ كما أتوقع له أن يفعل. لقد صُمِّمَت قاطرات الخطوط الرئيسية لتكون سريعةً وقويةً أيضًا. هذه القاطرة تجر قطار التاسعة والربع المتجهَ إلى العاصمة.»

قالت فيليس: «التنين الأخضر.»

قال الحمَّال: «نحن هنا نسميه الحلزون يا آنستي. إنه يتأخر دائمًا أكثر من أي قطارٍ آخر على الخط.»

قالت فيليس: «لكنَّ القاطرةَ خضراء.»

قال بيركس: «نعم يا آنستي، وهكذا الحلزونات في بعض فصول السنة.»

اتفق الأطفال وهم في طريقهم إلى المنزل لتناول الغداء أنَّ الجلوس مع الحمَّال كان مبهجًا للغاية.

كان اليوم التالي يوافق عيد ميلاد روبيرتا. بعد الظهر طلبوا منها بأدبٍ وحسمٍ أيضًا أن تترك لهم المكان وأن تبقى بعيدًا حتى وقت احتساء الشاي.

قالت فيليس: «لن ترَي ما سنفعله قبل أن ننتهي من فعله؛ إنها مفاجأةٌ رائعة.»

وهكذا خرجت روبيرتا إلى الحديقة بمفردها تمامًا. حاولَت أنْ تُبدي امتنانها لهم، لكنها أحست أنه كان من الأفضل لها كثيرًا أن تُساعدهم فيما كانوا سيفعلونه أيًّا كان، ولا تقضي نهار عيد ميلادها بمفردها، بغضِّ النظر عن مدى روعة المفاجأة.

لكن أما وأنها أصبحت الآن بمفردها، فقد أصبح لديها وقتٌ للتفكير، وكان أكثر ما فكرتْ فيه ما قالته أمها في إحدى تلك الليالي المحمومة عندما كانت يداها ساخِنتَين للغاية وعيناها شديدتَي اللمعان.

كانت أمها تقول: «يا إلهي، كم سيكون أجر الطبيب مكلفًا!»

أخذت روبيرتا تسير حول الحديقة مرارًا بين شجيرات الورد التي لم يكن بها أي ورودٍ بعد، بل براعم فقط، وبين شجيرات أزهار الليلك والكشمش الأسود الأمريكي، وكانت كلما تذكرت أجر الطبيب، ازدادت كرهًا للتفكير بشأنه.

وبعد قليلٍ اتخذتْ قرارًا. خرجتْ من باب الحديقة الجانبي وتسلقتِ المرجةَ الشديدةَ الانحدار حتى وصلتْ إلى المكان الذي يمتد فيه الطريق بمحاذاة قناة الماء. ظلت روبيرتا تمشي حتى وصلتْ إلى الجسر الممتد فوق القناة والمؤدي إلى القرية، وتوقفتْ هناك. كان ممتعًا جدًّا أن تُسنِد مرفقَيها على حجارة الجسر الدافئة تحت أشعة الشمس وتنظر إلى مياه القناة الزرقاء تحتَها. لم يسبق لبوبي أن رأتْ أية قناة مائية أخرى، باستثناء قناة ريجينت، ولون مياه تلك القناة ليس جميلًا على الإطلاق. لم يسبق لها كذلك أن رأتْ أي نهرٍ على الإطلاق غير نهر التيمز، والذي ربما يصبح أفضل مما هو عليه لو نُظِّفَت صفحتُه.

كان من الممكن أن يُحِبَّ الأطفال قناة الماء بقدر ما أحبوا السكة الحديدية، لكن لم يحدث هذا لسببين؛ السبب الأول أنهم اكتشفوا السكة الحديدية أولًا؛ في ذلك الصباح الأول الرائع عندما كان المنزل والريف والمستنقعات والصخور والتلال الكبيرة جديدةً تمامًا بالنسبة إليهم. ولم يكتشفوا قناة الماء إلا بعد ذلك ببضعة أيام. السبب الثاني أن كل من في السكة الحديدية كانوا ودودين معهم؛ ناظر المحطة، والحمَّال، والسيد العجوز الذي يُلوِّح لهم بيده. لكنَّ أولئك الموجودين عند قناة الماء كانوا يتصفون بكل الصفات ما عدا الطِّيبة.

كان الموجودون عند قناة الماء هم الملاحين، بالطبع، أولئك الذين يقودون القوارب البطيئة جيئة وذُهوبًا بين طرَفَي القناة، أو يسيرون إلى جوار الخيول المسنة التي تخوض في طين ذلك الممر الضيق المجاور للقناة وتجر القوارب بحبال الجر الطويلة.

ذات مرةٍ سأل بيتر أحدَ الملاحين عن الساعة، فقال له الرجل: «ابتعد من هنا» بنبرةٍ عنيفةٍ للغاية لدرجة أن بيتر لم يقف ليقول أيَّ شيءٍ حول أنَّ له الحقَّ نفسه الذي للرجل في استخدام الممر. في الواقع، لم يخطر حتى ببال بيتر أن يقول ذلك إلا بعد مدة.

ثم في يومٍ آخر عندما أَحبَّ الأطفال أن يصطادوا من قناة الماء، رماهم صبيٌّ كان على متن أحد القوارب بقِطَع الفحم، فأصابت إحدى هذه القطع قفا فيليس. كانت قد انحنَت لتوِّها لتعقد رِباط حذائها؛ ورغم أن قطعة الفحم لمْ تكد تؤلمها على الإطلاق فقد زهَّدتْها في الخروج للصيد.

رغم هذا، أحستْ روبيرتا وهي على الجسر بأمانٍ كبير؛ لأنها كانت تستطيع النظر إلى قناة الماء من أعلى، ولو بدا على أي صبيٍّ أنه ينوي رميها بالفحم، لأمكنها حينئذٍ أن تخفض رأسها خلف حاجز الجسر.

بعد قليلٍ سمعتْ صوتَ عجلات إحدى العربات، وكانتْ كما توقعَتْها تمامًا.
كانت تلك هي عجلات عربة الطبيب، وكان الطبيب، بالطبع، يَركب العربة.
أوقف الطبيب العربة، ونادى قائلًا:
«مرحبًا، رئيسة الممرضات! أتريدين أن أوصلك؟»
قالت بوبي: «كنتُ أرغب في رؤيتك.»
قال الطبيب: «آمُل ألا تكون حالةُ والدتكِ قد ازدادتْ سوءًا، هل حدث هذا؟»
«لا ... لكن ...»
«حسنٌ، اقفزي إلى العربة إذن، وسننطلق في نزهة.»
صعدت روبيرتا إلى العربة وحوَّل الطبيب اتجاه الحصان البني؛ وهو ما لمْ يُحبَّه الحصانُ مطلقًا؛ لأنه كان يتطلع لنصيبه من الشاي — أقصد نصيبه من حبوب الشوفان.
قالت بوبي، والعربة تنطلق بسرعةٍ كبيرةٍ على الطريق إلى جوار قناة الماء: «هذا ممتع.»
قال الطبيب عندما مرا أمام المنزل: «يمكننا أن نَرمي حجرًا داخل أي واحدةٍ من مداخنكم الثلاثة.»
قالت بوبي: «نعم، لكن عليك أن تكون راميًا ممتازًا لتفعل هذا.»
قال الطبيب: «كيف عرَفتِ أنني لستُ كذلك؟ والآن، ما المشكلة؟»
أخذت بوبي تعبث بمشبك مريلة القيادة.
قال الطبيب: «هيا، أفصحي عما في نفسك.»
قالت بوبي: «الأمر صعبٌ نوعًا ما، أتعرف، أقصد أن أَقول ما في نفسي؛ بسبب ما قالتْه أمي.»
«وما الذي قالتْه أُمك؟»
«قالتْ إنه عليَّ ألا أُخبر كل أحد أننا فقراء. لكنك لستَ كل أحد، أليس كذلك؟»
قال الطبيب بابتهاج: «على الإطلاق. ما الأمر إذن؟»
«حسنٌ، أعلم أن الأطباء مغالون جدًّا؛ أقصد مُكلِّفين، وقد أخبرتني السيدة فايني أن علاجها لا يُكلِّفها سوى بنسَين في الأسبوع لأنها تابعة لجمعية تأمين.»
«حسنٌ؟»
«لقد أخبرتْني كم أنكَ طبيبٌ جيد، وسألتُها كيف تستطيع دفع أجرك؛ لأنها أفقر منَّا بكثير. لقد زرتُ بيتها وأعلم هذا. وحينئذٍ أخبرتْني عن جمعية التأمين، وظننتُ أنني

ربما أطلب منك ... و... يا إلهي، لا أريد أن تَقلق أمي! ألا يمكننا الانضمام للجمعية نحن أيضًا، مثل السيدة فايني؟»

لم يتكلم الطبيب. لقد كان فقيرًا نوعًا ما هو الآخر، وكان مسرورًا بحصوله على عائلةٍ جديدةٍ يعالجها؛ لذا أظن أن مشاعره في هذه اللحظة كانت متضاربةً بعض الشيء.

قالت بوبي، بصوتٍ شديد الخفوت: «لستَ غاضبًا مني، أليس كذلك؟»

نهض الطبيب من مكانه.

«غاضب؟ كيف لي أن أغضب؟ إنكِ فتاةٌ حساسة للغاية. والآن أنصتي إليَّ، لا تقلقي. سأُسوي الأمر مع والدتك، حتى لو اضطُرِرتُ لعمل جمعية تأمينٍ خاصةٍ وجديدةٍ تمامًا من أجلها. انظُري، هذه هي بداية قنطرة الماء.»

سألتْ بوبي: «ما هي الـ... ما اسمُها؟»

قال الطبيب: «إنها جسر لنقل الماء، انظري!»

امتد الطريق على جسرٍ فوق القناة. كان إلى جهة اليسار منحدر صخريٌّ شديد الانحدار تنمو الأشجار والشجيرات بين شقوق صخوره. وفي هذا المكان توقف امتداد القناة فوق قمة التلة وبدأتْ تمتد فوق جسرٍ قائمٍ بذاته؛ جسرٍ عظيمٍ ذي أقواس شاهقة الارتفاع يمتد بين ضفَّتَي الوادي.

أخذت بوبي نفسًا عميقًا.

وقالت: «إنه مهيب، أليس كذلك؟ إنه يشبه الصور التي في كتاب «تاريخ روما».»

قال الطبيب: «نعم! إنه يشبه ما تقولين تمامًا. لقد كان الرومان في غاية الدقة في بناء القناطر. إنه تحفة هندسية رائعة.»

«كنتُ أظن أن الهندسة هي صناعة المحركات.»

«ثمة أنواع مختلفة من الهندسة؛ فبناء الطرق والجسور والأنفاق نوع. وبناء التحصينات نوعٌ آخر. حسنٌ، يجب أن نعود. وتذكري، عليكِ ألا تقلقي بشأن فواتير أجور الأطباء وإلا فستمرضين أنتِ نفسك، وساعتَها سأرسل لكِ فاتورةً بطول القناطر.»

عندما تركت بوبي الطبيبَ عند قمة المرجة الممتدة من الطريق نزولًا إلى المنزل ذي الثلاث المداخن، لم تشعرْ أنها ارتكبتْ خطأً. كانت تعلم أن أمها ربما سترى الأمر بطريقةٍ مختلفة. لكنَّ بوبي أحسَّت هذه المرةَ أنها هي المُحقة، وأخذتْ تنزل على المنحدر الصخري وهي تشعر بسعادة حقيقية.

قابلها بيتر وفيليس عند الباب الخلفي. كانا نظيفَين ومهندمَين على نحو غير معتاد، وكانت فيليس تُزيِّن شعرها بعقدة حمراء. بالكاد اتسع الوقتُ لبوبي كي تصلح هندامها وتربط شعرها بعقدة زرقاء قبل أن يدق جرسٌ صغير.

قالت فيليس: «تمهلي! كان هذا لكي نعرف أن المفاجأة أصبحت جاهزة. والآن انتظري حتى يدق الجرس مرةً أخرى وعندها يمكنكِ الدخول إلى غرفة المائدة.»

وهكذا انتظرتْ بوبي.

دق الجرس الصغير، فذهبَت بوبي إلى غرفة المائدة وهي تشعر بشيءٍ من الخجل. وما إن فتحت الباب حتى رأت نفسها، كما بدا الأمر، في عالمٍ جديدٍ من النور والزهور والغناء. كانت أمها وبيتر وفيليس يقفون في صفٍّ عند طرف المائدة. كانت النوافذ مغلقةً وكان على المائدة اثنتا عشرة شمعة، بعدد سنوات عمر روبيرتا. كانت المائدة مغطاة بمفرش عليه نقشٌ من الزهور، وكان عند مقعد روبيرتا إكليلٌ كثيفٌ من زهور أذن الفأر والعديد من العُلب الجذابة للغاية. كانت أمها وفيليس وبيتر يغنون على الجزء الأول من لحن إحدى أغاني الاحتفالات. كانت روبيرتا تعلم أن أمها كتبَت الكلمات من أجل عيد ميلادها. كانت هذه عادة أمها في أعياد الميلاد. وقد بدأتْ في عيد ميلاد بوبي الرابع عندما كانت فيليس لا تزال رضيعة. تذكرَتْ بوبي كيف حفظت الكلمات كي «تفاجئ» والدها بغنائها. وراحتْ تتساءل في نفسها إن كانت أمها قد تذكرتْ هي الأخرى. كانت القصيدة التي كُتِبَت وهي ابنة أربع سنوات:

أبي! عُمري يُتمُّ اليومَ أربعةً
من الأعوامِ، لا أدنى ولا أكثرْ.
أبي، عمري! وعمري لا أُريدُ لهُ
تَخطِّيَها، فأربعةٌ هي الأنضرْ.

* * *

وأربعةٌ هي الأحلى من العُمرِ؛
ثلاثٌ ثم واحدةٌ، على الوَتْرِ!
وإمَّا أنْ تشاءَ الشَّفعَ فانْظِمْهُ
من السنتَين والسنتَين كالدُّرِ!

* * *

أُحبُّ اثنَينِ ثم اثنَيـ
ـنِ كالنبضاتِ من قلبي:
هُمُ أُمي وَفِلْ أُختي،
وبيترُ ثُم خيرُ أبِ.

* * *

وتهوى أنتَ واحدةً، ويتلوها
ثلاثٌ، هم بَنوكَ الغُرُّ وبنوها.
فذي أُمي، وبيترُ ثم فِلْ وأنا؛
كجوهرةٍ فصوصُ التاجِ تعلوها!

* * *

تعالَ الآن قبِّلْ بِنتكَ الحُلوةْ
فقد حفظتْ، وغنَّتْ يا أبي غنوةْ!

أما الأغنية التي كانوا يغنونها لها فكانت:

حبيبتنا روبيرتا،
لا حزن سيؤذيها
ما دمنا نستطيع منعه
طوال عمرها.
عيد ميلادها هو عيدنا،
سنجعله يومنا العظيم،
ونعطيها هدايانا
ونغني لها أغانينا.
نرجو أن ترافقها الأفراح،
وأن يختار لها القدَر
أسعد رحلةٍ
في مسيرة حياتها.
لتشرق السماواتُ فوقها،
وليبادلها أحبابها الحب!

حبيبتَنا بوب! عسى يعود يوم ميلادك
مراتٍ عديدةً سعيدة!

عندما انتهوا من الغناء صاحوا قائلين: «ثلاث تَحايا لحبيبتنا بوبي!» ورفعوا أصواتهم بالهتاف عاليًا جدًّا. أحستْ بوبي تمامًا وكأنها توشك على البكاء؛ أتعلمون ذلك الإحساس الغريب الذي يسري في قصبات أنوفكم، وذلك الوخز الذي يعتري أجفانكم؟ لكن قبل أن يتسنى لها الانخراطُ في البكاء راحوا جميعًا يُقبِّلونها ويُعانقونها.

قالت أمها: «والآن، ألقي نظرةً على هداياكِ.»

كانت هدايا جميلةً جدًّا. كان هناك حافظة قماشية من اللونَين الأخضر والأحمر لحفظ أدوات الخياطة، كانت فيليس قد صنعَتْها بنفسها سرًّا. وكان هناك كذلك بروش فِضي صغير أنيق على شكل زهرة الحَوْذان وهو بروش أمهم، كانت بوبي قد رأته وأعجبها منذ سنوات، لكنها لمْ تتخيل قط أنه سيصبح لها. كان هناك أيضًا مزهريتان من زجاجٍ أزرقٍ أحضرتهما السيدة فايني. كانت بوبي قد رأتهما في محل القرية وأُعجِبَتْ بهما. وكان هناك ثلاثُ بطاقاتِ تهنئةٍ بعيد الميلاد بها صورٌ وتمنيات رائعة.

وضعت الأم إكليل زهور أذن الفأر حول جبهة بوبي البِنْية.

وقالت: «والآن انظري إلى المنضدة.»

كان على المنضدة كعكةٌ كبيرةٌ مغطاةٌ بالسكر الأبيض، وكان مكتوبًا عليها بقطع الحلوى الوردية «حبيبتنا بوبي»، كما كان هناك المزيد من الكعك الصغير المُحلى والمربى؛ لكن كان أجمل ما في الأمر أن المنضدة الكبيرة كانت مغطاةً كلها تقريبًا بالورود — كانت زهور المنثور الأصفر تحيط صينية الشاي من كل جانب — وكانت تحيط بكل طبقٍ حلقةٌ من زهور أذن الفأر. أما الكعكة الكبيرةُ فكان حولها إكليلٌ من زهور اللَّيْلك الأبيض، وكان في المنتصف شيءٌ أشبه بنقش مصنوع كله من زهورٍ مفردةٍ من الليلك أو المنثور أو القوطيسوس.

صاح بيتر قائلًا: «إنها خريطة؛ خريطةٌ للسكة الحديدية! انظري؛ هذان الخطان من زهور الليلك هما قضبان السكة الحديدية؛ وها هي المحطة مصنوعة من زهور المنثور البُنية. زهور القوطيسوس هي القطار، وها هي أكشاك الإشارات، وهذا هو الطريق حتى هنا؛ وهذه الأقاحيُّ الحُمْر الكبيرة الثلاث هي نحن نلوح للسيد العجوز؛ ها هو ذا، زهرة البنفسج التي في قطار القوطيسوس.»

قالت فيليس: «وها هو «منزلنا ذو الثلاث المداخن» من زهور الربيع البنفسجية. وتلك الوردة ذات البرعم هي أمي تنتظرنا حين نتأخر عن موعد تناول الشاي. كان كل ذلك من ابتكار بيتر، وقد حصلنا على الورد كله من المحطة. ارتأينا أنه قد يعجبك أكثر.»

قال بيتر: «هذه هي هديتي.» وفجأةً ألقى بقطاره البخاري الأثير لديه على المنضدة أمامها. كانت مقطورة الوقود والماء في محركه البخاري مبطنةً بورق أبيض جديد، ومملوءة بقطع الحلوى.

صاحتْ بوبي، وقد غمرها هذا السخاء: «يا إلهي، بيتر! أستُعطيني قطارك الصغير الذي تعشقه؟»

بادرها بيتر في الحال: «أوه، لا، ليس القطار. الحلوى فقط.»

لم تستطع بوبي منع وجهها من التغير قليلًا؛ وما كان هذا لخيبة أملها لعدم حصولها على القطار اللعبة بقدر ما كان لظنها الكرمَ البالغ في بيتر، وقد أحسَّتْ في تلك اللحظة أنها كانت حمقاء عندما جال ذلك بخاطرها. أحستْ كذلك أنه لا بد أنها بدَتْ جشعةً عندما توقعَت الحصول على القطار والحلوى معًا؛ لهذا تغير وجهها. لاحظ بيتر ذلك، فأخذه الترددُ قليلًا؛ ثم تغير وجهه هو الآخر، وقال: «لا أقصد القطار كله. سأسمح لكِ بأن تُقاسميني إياه إن أحببتِ.»

صاحت بوبي: «كم أنت طيب. إنها هديةٌ رائعة.» ولم تجهر بشيءٍ أكثر من هذا، لكنها قالت بينها وبين نفسها:

«كان هذا لُطفًا كبيرًا جدًّا من بيتر؛ فأنا أعرف أنه لم يكن يقصد ذلك. حسنٌ، سآخذُ أنا النصف المكسور من القطار، وسأصلحه وأُعيده إليه في عيد ميلاده.» ثم قالت: «نعم يا أمي الحبيبة، سأقطع الكعكة.» وبدأ حفل الشاي.

كان عيد ميلادٍ مبهجًا. بعد حفل الشاي راحت أمهم تلعب معهم — أي لعبةٍ أرادوا — وبالطبع كان اختيارهم الأول لعبة الغميضة، التي مال خلالها إكليلُ بوبي باعوجاجٍ فوق إحدى أذنَيها وبقي كذلك. بعد ذلك، عندما اقترب وقتُ النوم والهدوء، راحتْ أُمهم تقص عليهم قصةً جديدةً جميلة.

سألت بوبي بعدما تمنى كلٌّ منهم للآخر ليلةً سعيدةً: «لن تُطيلي السهر في العمل، أليس كذلك يا أمي؟»

وأجابتها أمها بأنها لن تفعل؛ وأنها فقط ستكتب رسالةً لأبيها ثم ستذهب إلى النوم.

لكن عندما تسللت بوبي فيما بعد إلى الأسفل لتُحضر هداياها — لأنها أحستْ أنها لا تقوى بالفعل على الابتعاد عنها طوال الليل — لم تكن أمها تكتب، وإنما كانت تُسنِد رأسها على ذراعَيها وذراعاها على المنضدة. أظن أن بوبي أحسنتْ صنعًا عندما انسلَّتْ بعيدًا في هدوء، وهي تُردد مرةً بعد مرة: «إنها لا تُريدني أن أعلم بحزنها، لذا فلن أعلم؛ لن أعلم.» لكنَّ هذا جعل عيد الميلاد ينتهي نهايةً حزينة.

في صباح اليوم التالي مباشرةً بدأت بوبي تتحين الفرصة لإصلاح قطار بيتر سِرًّا. وقد أُتيحت لها الفرصة بعد ظهر ذلك اليوم نفسه.

توجهت أمها بالقطار إلى المدينة الأقرب إليهم لتتسوق. وقد كانت دائمًا ما تمر بمكتب البريد عند ذهابها إلى هناك؛ ربما لتُرسل خطاباتها التي تكتبها لأبيهم؛ لأنها لم تُعطِها قط للأطفال ولا للسيدة فايني لإرسالها، كما أنها لم تذهب قط إلى القرية بنفسها. ذهب بيتر وفيليس معها. كانت بوبي تريد عذرًا لكيلا تذهب معهم، لكن برغم محاولاتها لمْ تهتدِ إلى عُذرٍ مناسب. وفي اللحظة التي أحستْ فيها أنه لا جدوى من المحاولة، عَلِق معطفها في مسمارٍ كبيرٍ بجوار باب المطبخ وانقطعت تنورتها قطعًا كبيرًا متصالبًا بطول جهتها الأمامية. أؤكد لكم أن هذا حدث مصادفةً فعلًا. وهكذا رثى الآخرون لما أصابها وذهبوا بدونها؛ إذ لم يكن أمامها متسعٌ من الوقت لتُغيِّر ملابسها، لأنهم كانوا متأخرين نسبيًّا بالفعل وكان عليهم أن يُسرعوا إلى المحطة ليلحقوا بالقطار.

عندما غادروا، ارتدتْ بوبي معطفها المعتاد، وتوجهت إلى المحطة. لكنها لم تدخل المحطة، وإنما سارت بمحاذاة خط السكة الحديدية حتى وصلت إلى طرف الرصيف الذي تقف عنده القاطرةُ عندما يكون القطار القادم من المدينة الأقرب إليهم محاذيًا للرصيف؛ ذلك المكان الذي يوجد فيه خزانٌ للمياه وخرطومٌ جلديٌّ طويلٌ رخوٌ شبيهٌ بخرطوم الفيل. اختبأتْ بوبي خلف شُجيرةٍ على الجانب الآخر من السكة الحديدية. كان القطار اللعبة معها ملفوفًا في ورق بني، ومكثتْ تنتظر في صبرٍ وهو تحت ذراعها.

بعد ذلك عندما دخل القطار التالي إلى المحطة وتوقف، سارت بوبي عبر قضبان خط القطار المتجه إلى المدينة ووقفتْ إلى جوار القاطرة. لم يَسبق لها قبل ذلك قطُّ أن كانت قريبةً جدًّا من أي قاطرة هكذا. لقد بدت القاطرة أضخم وأصلب بكثيرٍ مما توقعَتْ، وجعلَتها تشعر أنها ضئيلةٌ جدًّا في الحقيقة، كما جعلتها بطريقة ما تشعر أنها شديدة الضعف؛ وكأنما من اليسير جدًّا أن يُصيبها ضررٌ بالغ.

قالت بوبي بينها وبين نفسها: «لقد عرَفتُ الآن ما تشعر به دودة الحرير.»

لم يرَها سائق القطار ولا الوقَّاد. كانا مُنحنِيَين خارج القاطرة من الجهة الأخرى يحكيان للحمَّال قصةً حول أحد الكلاب وقطعةٍ من لحم الضأن.

قالت روبيرتا: «لو سمحت.» لكنَّ القاطرةَ كانت تنفث البخار فلمْ يسمعها أحد.

رفعتْ روبيرتا صوتها بعض الشيء: «لو سمحت، يا سيدي سائق القطار.» لكنْ تصادف أن تحدَّثت القاطرةُ في اللحظة نفسها، وبالطبع لم يكن صوتُ روبيرتا الخفيض الرقيق ليُسمِع السائق.

بدا لها أن الطريقة الفعالة الوحيدة هي أن تصعد إلى القاطرة وتجذبهما من معطفَيهما. كانت المِرقاة عاليةً عليها، لكنها وضعتْ ركبتها عليها، وصعدت بصعوبةٍ إلى غرفة السائق؛ وهنا تعثرتْ روبيرتا وسقطتْ على يدَيها وركبتَيها عند أسفل كومة الفحم الكبيرة المؤدية إلى الفتحة المربعة الموجودة في مقطورة الوقود. لم تكن هذه القاطرة أحسنَ حالًا من مثيلاتها؛ فقد كانت تُحدِث ضجيجًا أكبر بكثيرٍ مما قد تدعو إليه الحاجة. وما إنْ سقطت روبيرتا على الفحم حتى شغَّل سائقُ القطار — الذي التفتَ دون أن يراها — القاطرةَ، وعندما نهضتْ بوبي من جديد، كان القطار يتحرك؛ ليس سريعًا، ولكن أسرع بكثيرٍ من أن تتمكن هي من مغادرته.

هاجمتها جميعُ أنواع الأفكار المخيفة معًا في لمحة بصرٍ مرعبةٍ. كان من بين هذه الأفكار تلك القطارات السريعة التي تنطلق، كما تخيَّلتْ، لمئات الأميال دون توقُّف. هل تخيلتم احتمالية أن يكون هذا أحدَ تلك القطارات؟ كيف ستتمكن من العودة إلى البيت مرةً أخرى؟ إنها لا تملك ثمن رحلة العودة.

راحت بوبي تُحدِّث نفسها: «كما أنه لا مبرر لوجودي هنا. إنني لصة قطارات؛ هذه هي حقيقتي. ينبغي ألا أندهش إذا سجنوني لأجل هذا.» وكانت سرعة القطار تزداد أكثر وأكثر.

كان في حلقها شيءٌ ما منعها من الكلام. حاولت الكلام مرتين. كان الرجلان يقفان وظهراهما إليها. كانا يفعلان شيئًا ما في أشياء بدتْ كصنابير المياه.

فجأةً مدَّتْ بوبي يدها وأمسكتْ بكُمِّ الرجل الأقرب إليها. الْتفَت الرجل منتفضًا، ووقف هو وروبيرتا مدةَ دقيقةٍ ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر في صمت. ثم قطعا ذلك الصمتَ كلاهما في وقت واحد.

قال الرجل: «يا إلهي، ما العملُ معكِ؟» وانفجرتْ روبيرتا في البكاء.

قال الرجل الآخر إنه متفاجئٌ للغاية، أو شيئًا من هذا القبيل، لكنْ على الرغم من دهشتهما المتوقَّعة في موقفٍ كهذا لمْ يكونا قاسيَين في الحقيقة.

قال الوقَّاد: «إنكِ فتاةٌ مشاغبةٌ، لا بد أنكِ هكذا»، أما سائق القطار فقال:

«أما أنا فسأُسمِّيها الناحلة الجريئة.» لكنهما أجلساها على مقعدٍ حديديٍّ داخل غرفة السائق وطلبا منها أن تتوقف عن البكاء وتخبرهما ماذا أرادت من وراء فِعلتها.

توقفت روبيرتا عن البكاء حالما استطاعت. ومما ساعدها على ذلك أنها تذكرتْ أن الأمر ربما يصل ببيتر إلى أن يُضحي بأذنَيه مثلًا من أجل أن يكون في مكانها؛ في قاطرةٍ حقيقيةٍ مسافرةٍ فعلًا. فقد كان الأطفال كثيرًا ما يتساءلون إنْ كان ثمة أيُّ سائقِ قطارٍ يتحلى بما يكفي من الشهامة ليصطحبهم على متن قاطرة؛ وها هي الآن على متن قاطرة. جففت روبيرتا عينَيها وشهقتْ بقوة.

قال الوقَّاد: «والآن، تكلمي. ماذا أردتِ من وراء فعلتك؟»

شهقت بوبي وقالت: «أوه، أرجوك.»

قال سائق القطار بلهجةٍ مُشجعة: «حاولي من جديد.»

حاولت بوبي مرةً أخرى.

وقالت: «أرجوك يا سيدي السائق، لقد ناديتُكَ بالفعل وأنا واقفةٌ على خط السكة الحديدية، لكنك لم تسمعني، ولم أصعد إلى القاطرة إلا لأجذب ذراعك، وكنتُ سأفعل ذلك برفقٍ شديد، لكنني بعد ذلك سقطتُ على الفحم، وأنا آسفةٌ لو كنتُ أفزعتكما. يا إلهي، لا تغضب، آه، أرجوك لا تغضب!» وشهقتْ من جديد.

قال الوقَّاد: «لسنا غاضبَين بقدر ما نحن متحمسَين لمعرفة أمرك. فلا يحدث كل يومٍ أن تسقط علينا طفلةٌ من السماء وتتعثر في مخزن الفحم، أليس كذلك يا بيل؟ لماذا فعلتِ ما فعلتِه؟ تكلمي.»

قال سائق القطار مؤيدًا كلامَ زميله: «هذا هو المهم، لمَ فعلتِ ذلك؟»

اكتشفَت بوبي أنها لم تتوقف عن البكاء تمامًا. وهنا ربَّت سائق القطار على ظهرها وقال: «كفى، هوِّني عليكِ يا صديقتي. لن يكون الأمر أسوأ من كل ما مضى، أعدكِ بهذا.»

قالت بوبي، وقد أحستْ بارتياحٍ أكثر عندما وجدَتْ نفسها تُنادى بكلمة «صديقتي»: «كنتُ أريد، كنتُ أريد فقط أن أطلب منك أن تتكرم وتُصلِح لي هذا.»

الْتقطَت بوبي العلبة المغلفة بالورق البنِّي من بين قطع الفحم وفكَّت الخيط بأصابع حمراء ملتهبة مرتعشة.

كانت بوبي تشعر بلفح نار القاطرة في قدمَيها ورِجلَيها، لكنَّها كانت تشعر في كتفَيها ببرودة تيار الهواء المندفع في عنف. كانت القاطرة تترنح وترتجُّ وتُقرقع، وعندما انطلقوا تحتَ أحد الجسور بدا صوتها وكأنه صرخةٌ في أذنَي بوبي.

راح الوقَّاد يجرف الفحم.

فتحَت بوبي الورق البنيَّ وأظهرت القطار اللعبة.

وقالت في حزن: «كنتُ أظن أنك ربما تُصلح لي هذا القطار؛ لأنكَ سائق قطار.»

قال سائق القطار إنه كان سيندهشُ لو لم يُفاجَأ بما قالت.

قال الوقَّاد: «وأنا كنتُ سأتفاجأ إذا لم يُدهِشني قولُها.»

لكنَّ سائق القطار أمسك القطار الصغير وراح ينظر إليه؛ وتوقف الوقَّاد لحظةً عن جرف الفحم، وراح ينظر هو الآخر.

قال سائق القطار مصطنِعًا الجدية: «يا لوقاحتكِ اللعينة! ما الذي جعلكِ تظنين أننا قد نكترث لإصلاح مثل هذه اللعب الرخيصة؟»

قالت بوبي: «لم تدفعني لما فعلتُ وقاحةٌ لعينة.» ثم لما رأتْ كلًّا منهما يغمز بعينه للآخر غمزةً لا تنم عن قسوةٍ، أضافت: «لكن فقط كلُّ مَن له علاقةٌ بالسكة الحديدية شديد الطيبة والكرم، لم أظن أنك قد تمانع. إنك لا تمانع في الحقيقة، أليس كذلك؟»

قال بيل: «إنني أقود القاطرات، لا أُصلِحها، خاصةً مثل هذه القاطرات الصغيرة. والآن هل سنُعيدكِ إلى أصدقائكِ وأقاربكِ الذين يتملكهم الأسى عليكِ، ويُغتفَرُ كل شيءٍ ويُنسى؟»

قالت بوبي بثباتٍ، رغم أن قلبها كان يدق بعنفٍ بجوار ذراعها وهي تشبك أصابع يديها: «لو أنزلتني عندما توقف القطار في المرة القادمة، وأقرضتني ثمن تذكرةٍ من تذاكر الدرجة الثالثة، فسأعيد لك المال، أقسم بشرفي. أنا لا أتحايل لسرقة المال كهؤلاء الذين تتحدث عنهم الصحف؛ صدقًا، لستُ كذلك.»

قال بيل، وقد لانَ تمامًا وبطريقةٍ مفاجئة: «إنكِ فتاةٌ مهذبةٌ جدًّا. سنوصلكِ إلى بيتكِ آمنةً. أما بخصوص هذا القطار؛ جيم، أليس لديك أيُّ صديقٍ على الإطلاق يستطيع استخدام كاوية اللحام؟ يبدو لي أن هذا هو كل ما يحتاج إليه هذا الوغد الصغير.»

قالت بوبي موضحة بحماس: «هذا ما قاله أبي. ماذا تفعلون بهذا الشيء؟»

وأشارتْ إلى عجلةٍ نُحاسيةٍ صغيرة كان قد أدارها وهو يتكلم.

«هذه هي المحقنة.»

«محـ... ماذا؟»

«محقنةٌ لملء مرجل توليد البخار.»

قالت بوبي وهي تسجل المعلومةَ في ذاكرتها لتُخبِر بها الآخرين: «أوه، هذا مثيرٌ حقًّا.»

واصل بيل كلامه، وقد أشعره حماسُها بالزهو: «هذه هي المكابح الآلية. ليس عليكِ سوى تحريكِ هذا المقبض الصغير — بإصبع واحدةٍ يمكنكِ فعل هذا — ليتوقف القطار في الحال. هذا هو ما تسميه الجرائد «قوة العلم».»

بعد ذلك أراها قرصَين مُدرَّجَين صغيرَين، يُشبهان وجوه الساعات، وأخبرها كيف أن أحدهما يبين كمية البخار المولد، والآخر يبين مدى كفاءة المكابح.

عندما رأته بوبي يُغلق مرجل البخار بواسطة مقبضٍ صلب لامع كبير، أصبح لديها من المعلومات عن آلية عمل القاطرات من الداخل أكثر مما تخيلَتْ أن تعرفه يومًا، ووعدها جيم أنْ يلحم شقيق زوجة ابن ابن عم والده القطارَ اللعبة، وإلا فسيُحاسبه. أحسَّتْ بوبي — بالإضافة إلى كل ما تعلمتْه — أنها هي وبيل وجيم قد أصبحوا أصدقاء إلى الأبد، وأنهما قد سامحاها تمامًا وإلى الأبد على تعثُّرها من دون إذنٍ وسط فحم مقطورتهما المبجل.

عند محطة ستاكلبول جانكشن الفرعية تركتهما بوبي بعد أن تبادلَت معهما عبارات الاحترام الودودة. سلَّماها إلى حارس أحد القطارات العائدة — وكان صديقًا لهما — وحظيَتْ بمعرفة ما يفعله الحراس في معاقلهم السرية، وأدركتْ كيف تدور عجلةٌ معينةٌ أمام الحارس مباشرةً وكيف يُدوِّي أحد الأجراس عاليًا في أذنَيه عندما تجذبون سلسلة الطوارئ وأنتم في عربات القطارات. سألت بوبي الحارسَ عن السبب وراء رائحة السمك التي تنبعث بقوةٍ من عربة البضائع خاصته، وعلمتْ أنه يُضطَر إلى حمل الكثير من الأسماك فيها كل يوم، وأن البلل الموجود في تجاويف الأرضية المموجة كان قد تسرب كله من صناديق مليئةٍ بأسماك الابْلايْس والقُدِّ والإِسْقمريِّ وسمك موسى وأسماك الهِفِّ.

وصلَت بوبي إلى المنزل في الوقت المناسب تزامنًا مع وقت تناول الشاي، كانت تشعر وكأنَّ عقلها سينفجر من كثرةِ ما وُضِع فيه منذ تركَت أمها وإخوتها. ولكَم دعت بالبركة لذلك المسمار الذي مزق معطفها!

سألوها قائلين: «أين كنتِ؟»

قالت روبيرتا: «كنتُ في المحطة من دون شك.» لكنها لم تُرِد أن تَنبِس ببِنت شَفةٍ عن مغامراتها قبل اليوم الموعود، يومَ قادتهما بطريقةٍ غامضةٍ إلى المحطة وقتَ مرور

قطار ركاب الساعة الثالثة وتسع عشرة دقيقة، وعرفتهما بفخرٍ على صديقَيها؛ بيل وجيم. كان أخو زوجة ابن ابن عم والد جيم جديرًا بالثقة الغالية التي وُضِعت فيه. فقد أصبح القطار اللعبة، حرفيًّا ودون مبالغةٍ، في مثل جودة الجديد.

قالت بوبي، قبل لحظاتٍ من إطلاق القطار صيحةَ الوداع: «مع السلامة؛ أوه، مع السلامة. سأظل دائمًا، دائمًا أحبكما؛ أنتما وأخو زوجة ابن ابن عم والد جيم!»

وبينما كان الأطفال الثلاثة يصعدون التل عائدين إلى المنزل، وبيتر يحتضن القطار اللعبة، الذي عاد الآن إلى حالته الأولى تمامًا، راحت بوبي، وقلبها يتواثب فرحًا، تقص على أخوَيها كيف تحولت إلى لصة قطار.

الفصل الخامس

سجناء وأسرى

في أحد الأيام ذهبت الأم إلى مدينة ميدبريدج. كانت قد ذهبت بمفردها، لكن كان من المقرر أن يذهب الأطفال إلى المحطة لاستقبالها. ونظرًا لحبهم للمحطة، لم يكن وجودهم هناك قبل ظهور أي بادرةٍ لوصول قطار أمهم بوقتٍ كافٍ إلا أمرًا طبيعيًّا، حتى ولو وصل القطار في موعده تمامًا، وهو ما لم يكن متوقعًا بالمرة. لا شك أنهم كانوا سيبكرون بالذهاب إلى هناك على أي حال، حتى ولو كان الجو معتدلًا والشمس مشرقة، وجميع مباهج الخمائل والحقول والصخور والأنهار متاحة أمامهم. لكن تَصادف أن كان يومًا مطيرًا للغاية، كما كان يومًا باردًا جدًّا رغم كونه أحد أيام شهر يوليو. كان ثمة رياحٌ عاتيةٌ تَسوق قطعًا من السحاب الأرجواني الداكن في السماء، «كقطعانٍ من فِيَلة الأحلام» على حد قول فيليس. وبدأت الأمطار تَلدغهم بحدة؛ لذا قطَعوا ما تبقى من الطريق إلى المحطة ركضًا. بعد ذلك أخذ المطر ينهمر أسرع وأعنف من ذي قبل، وراح ينصبُّ بانحرافٍ ويضرب نوافذ مكتب الحجز ونوافذ المكان المعتدل البرودة المكتوبِ على بابه «حجرة الانتظار العامة».

قالت فيليس: «وكأننا في قلعةٍ مُحاصَرة. انظُرا إلى سهام الأعداء وهي تهاجم الأبراج المحصَّنة!»

قال بيتر: «بل الأمر أشبه كثيرًا برشَّاش حديقةٍ كبير.»

قرر الأطفال أن ينتظروا على الرصيف الذي يمر بجواره القطارُ المتجه صوب العاصمة؛ لأن الرصيف الموازيَ بدا مُبتلًّا جدًّا في الحقيقة، كما أن المطر كان ينصبُّ مباشرةً باتجاه المأوى الصغير القارس البرودة الذي يجب أن ينتظر فيه الركاب المسافرون القادمون من العاصمة قطاراتهم.

كانوا يتوقعون أن يكون الوقت حافلًا بالأحداث والتشويق، نظرًا لوجود قطارَين متجهَين صوب العاصمة وآخر قادمًا منها قبل مجيء القطار الذي ستعود فيه أمهم إليهم.

قالت بوبي: «ربما سيكون المطر قد توقف حينئذٍ. على أي حال، أنا سعيدةٌ لأنني أحضرتُ مظلة أمي ومعطفها الواقي من المطر.»

دخل الأطفال المكان المهجور المكتوب عليه «غرفة الانتظار العامة»، وقضوا وقتًا ممتعًا جدًّا في لعبةٍ عن الإعلانات. تعرفون اللعبة بالتأكيد، أليس كذلك؟ إنها شبيهةٌ بلعبة دام كرامبو القائمة على التخمين. في لعبة الإعلانات يتناوب كل واحد من اللاعبِين الخروج من الغرفة، ثم العودةَ إليها وهو يحاول قدر استطاعته أن يبدوَ شبيهًا بهيئةِ أحد الإعلانات، ويكون على الآخرين أن يُخمِّنوا الإعلان الذي يقصده. دخلت بوبي وجلست تحت مظلة أمها وجعلت وجهها يبدو مُدبَّبًا حادَّ الزوايا، فعرَف الجميعُ أنها كانت تقلد الثعلب الجالس تحت المظلة في الإعلان. حاولت فيليس جعل معطف أمها يبدو كبساطٍ سحري، لكنَّ المعطفَ لم يقف متصلبًا ولمْ يُشبه الطَّوْفَ كما ينبغي لبساطٍ سحريٍّ أن يكون، ولم يستطع أحدٌ تخمين قصدها. رأى الجميع أن بيتر كان يبالغ بعض الشيء عندما سوَّد وجهه كله بتراب الفحم واتخذ جسمه هيئة العنكبوت وقال إنه يحاكي بقعة الحبر في إعلان أحد منتجات حبر الكتابة.

جاء الدور على فيليس مرةً أخرى، وكانت تحاول أن تتشبه بأبي الهول الذي يُعلِن عن رحلاتٍ إلى نهر النيل يُنفِّذها أحد المرشدين السياحيين بنفسه، لكنَّ رنين الإشارة الحادَّ أعلن عن قدوم القطار المتوجه إلى العاصمة. خرج الأطفال مسرعين ليروه وهو يمر. كان على متن قاطرته السائق والوقَّاد نفسهما اللذان أصبحا الآن من أعز أصدقاء الأطفال الثلاثة. تبادلوا جميعًا المجاملات؛ ثم سألهم جيم عن القطار اللعبة، وهنا ألَحَّتْ بوبي عليه كي يقبل منها علبةً مبتلةً زلقةً بها حلوى كانت قد صنعتها بنفسها.

أُعجِب سائق القطار بمجاملتها هذه، ووافق على النظر في طلبها بأن يصطحب بيتر يومًا ما في رحلة على متن القاطرة.

صاح سائق القطار فجأةً: «تراجعوا يا رفاق؛ لقد حان وقت الرحيل.»

وكما قال تمامًا، انطلق القطار. ظل الأطفال يشاهدون الأضواء الخلفية للقطار إلى أن توارى في مُنعطف خط السكة الحديدية، ثم استداروا ليعودوا مرةً أخرى وينعموا بتلك الحرية التي نعموا بها في «غرفة الانتظار العامة» المغبرَّة، ويستمتعوا ببهجة لعبة الإعلانات.

لم يتوقعوا أن يروا سوى شخصٍ أو اثنَين، آخر من تبقى من موكب الركاب الذين سلموا تذاكرهم وانصرفوا. لكنهم وجدوا بدلًا من ذلك بقعةٌ قاتمةٌ تُطوِّق الرصيفَ المحيطَ بباب المحطة، ليتضح لهم بعد ذلك أن تلك البقعة القاتمة كانت حشدًا من الناس.

صاح بيتر وهو يهتز فرحًا من الإثارة: «يا إلهي! لقد حدث شيءٌ ما! تعاليا!»

جرى الأطفال على الرصيف. لكنهم عندما وصلوا إلى الحشد لم يستطيعوا بالطبع أن يروا سوى الظهور والمرافق المبتلة بالماء لأولئك الواقفين خارجه. كان الجميع يتكلمون في الوقت نفسه. كان من الواضح أن شيئًا ما قد حدث.

قال شخصٌ يُوحي مظهره أنه من المزارعين: «أرى أنه ليس أكثر سوءًا من أي إنسانٍ طبيعي.» كان بيتر ينظر إلى وجهه الأحمر الحليق وهو يتكلم.

قال شابٌّ يحمل حقيبةً سوداء: «أما أنا فأرى أن هذه إحدى قضايا محكمة الجُنح.»

«ليس هذا؛ بل المستوصف أقرب إلى ...»

في ذلك الوقت سُمِع صوتُ ناظر المحطة، وكانت نبرته حازمة ورسمية:

«والآن إذن، أفسِحوا الطريق. سوف أتولى هذا الأمر، لو سمحتم.»

لكنَّ الحشد لم يتحرك. ثم ارتفع صوتُ إنسانٍ فأثار الأطفال للغاية؛ وذلك لأنه كان يتحدث بلغةٍ أجنبية. والأكثر من ذلك أنها كانت لغةً لم يسمعوها قبل ذلك قطُّ. لقد سمعوا اللغة الفرنسية والألمانية قبل ذلك. فقد كانت الخالة إيما تتحدث الألمانية، وكانت تُغني أغنيةً تتضمن بعض الكلمات الألمانية. ولم تكن اللاتينية كذلك؛ فلقد درس بيتر اللاتينية على مدى أربعة فصول دراسية.

أحس الأطفال ببعض الارتياح، على أي حال، عندما وجدوا أن أيًّا من الحشد لم يفهم شيئًا من تلك اللغة الأجنبية أفضل مما فهموا.

قال المزارع ببطء وتثاقل: «ما هذا الذي يقوله؟»

قال ناظر المحطة الذي قضى يومًا كاملًا ذات مرة في مدينة بولون الفرنسية: «تبدو لي شبيهةً بالفرنسية.»

صاح بيتر قائلًا: «ليست الفرنسية!»

سأله أكثرُ من شخص: «فما هي إذن؟» تراجع الحشد إلى الوراء قليلًا ليَروا من الذي تكلم، وتقدم بيتر إلى الأمام، بحيث صار في الصف الأمامي عندما أُغلِق الحشد مرةً أخرى.

قال بيتر: «لا أدري ما هي، لكنها ليست الفرنسية. أنا متأكدٌ من هذا.» ثم رأى ما الذي كان في وسط الحشد. لقد كان مَن تحدث هذه اللغة الغريبة رجلًا، لم يشك بيتر في ذلك. كان رجلًا طويل الشعر مضطرب العينَين، يرتدي ثيابًا رثةً لمْ يرَ بيتر ثيابًا على طرازها من قبل؛ رجلٌ راجف اليدَين والشفتَين، وقد تكلم ثانيةً عندما وقعت عيناه على بيتر.

قال بيتر: «كلا، ليست الفرنسية.»

قال المزارع: «جرِّب أن تكلمه بالفرنسية ما دمتَ تعرف الكثير عنها هكذا.»

بادر بيتر في جُرأةٍ إلى سؤاله: «باغليه فو فغانسيه؟ (هل تتحدث الفرنسية).» وهنا تقهقر الحشد مرةً أخرى؛ لأن الرجل ذا العينَين المضطربتَين ترك الاستناد إلى الحائط، واندفع إلى الأمام وأمسك يدَي بيتر، وراح يقذف من فمه سيلًا من الكلمات التي عرَف بيتر وقعها، رغم أنه لم يفهم كلمةً واحدةً منها.

قال بيتر: «مرحى!» واستدار لينظر إلى الحشد بعينَي المنتصر، ويدا الرجل الغريب ذي الهيئة الرثة لا تزالان تقبضان بشدةٍ على يدَيه، وأضاف: «هذا الكلام بالفرنسية.»

«ماذا يقول؟»

اضطُر بيتر إلى الاعتراف فقال: «لا أعرف.»

قال ناظر المحطة مرةً أخرى: «بعد إذنك، تحرك لو سمحتَ. سوف أتعامل مع هذه القضية.»

ابتعد بعضٌ من الركاب الأكثر حياءً أو الأقل فضولًا بتثاقل وعلى مضض. واقتربت فيليس وبوبي من بيتر. لقد درس الأطفالُ الثلاثة جميعًا اللغة الفرنسية في المدرسة. كم تمنَّوا من قلوبهم في تلك اللحظة أن لو كانوا أتقنوها! هز بيتر رأسه للرجل الغريب، لكنه أيضًا صافحه أحرَّ مصافحةٍ ونظر إليه أرق نظرةٍ استطاعهما. تردد أحد المحتشدين قليلًا، ثم قال فجأةً، بفرنسيةٍ ركيكةٍ: «نو كومبرينيه (لا أحد يفهمك)!» ثم سحب نفسه من الزحام وقد احمرَّ وجهه بشدةٍ من فرط الخجل، وانصرف.

همست بوبي في أذن ناظر المحطة: «خذه إلى حجرتك، إن أمي تتحدث الفرنسية. وستصل في القطار القادم من مدينة ميدبريدج.»

أمسك ناظر المحطة ذراع الرجل الغريب، فجأةً لكن من دون عنف. لكن الرجل انتزع ذراعه من قبضة ناظر المحطة بقوةٍ، وتقهقر إلى الوراء وهو يسعل ويرتجف ويحاول دفع ناظر المحطة بعيدًا.

قالت بوبي: «يا إلهي، لا تفعل! ألا ترى كم هو خائف؟ إنه يظن أنك ستسجنه. أنا متأكدة أنه يظن ذلك؛ انظُر إلى عينَيه!»

قال المزارع: «إنهما كعينَي الثعلب عندما يقع في الشَّرَك.»

استأنفتْ بوبي كلامها قائلةً: «أوه، دعوني أحاول! إنني بالفعل أعرف كلمةً أو اثنتَين بالفرنسية فقط لو استطعتُ أن أتذكرهما.»

أحيانًا في لحظات الاحتياج الشديد، يمكننا أن نفعل أشياء رائعة؛ أشياء لا نستطيع حتى أن نحلم بأن نفعلها في لحظات حياتنا العادية. إن بوبي لم تقترب يومًا من اعتلاء المركز الأول في حصة اللغة الفرنسية، لكن لا بد أنها قد تعلمتْ شيئًا ما دون أن تفطن لذلك؛ لأنها في تلك اللحظة، وهي تنظر إلى تلكما العينَين المضطربتَين المذعورتَين، تذكرتْ بالفعل، وعلاوةً على ذلك، فقد تكلمتْ ببعض الكلمات بالفرنسية. قالت:

«فوز اتندغ (انتظر من فضلك). ما ميغ باغليه فغانسيه (إن أمي تتحدث الفرنسية). نُو (نحن) ... كيف نقول طيبين بالفرنسية؟»

لم يعرف أحد.

قالت فيليس: ««بُو» تعني «رفقاء».»

«نوز اتغ بُو بوغ فو (إننا رفقاء بك).»

لا أدري إن كان الرجل قد فهم كلماتها، لكنه فهم لمسة اليد التي دفعَت بها في يده، وطيبة اليد الأخرى التي راحت تُمررها برفقٍ على كُمه الرث.

جذبته بوبي برفقٍ إلى المأوى الأكثر سرية لناظر المحطة. وتبعهم الطفلان الآخران، ثم أغلق ناظر المحطة الباب في وجه المحتشدين، الذين ظلوا واقفين قليلًا في مكتب الحجز يتكلمون وينظرون إلى الباب الأصفر الذي أُغلِق سريعًا، ثم انصرفوا فُرادى وأزواجًا وهم يتذمرون.

ظلت بوبي وهم في غرفة ناظر المحطة ممسكةً بيد الرجل الغريب وظلت تُمرر يدها الأخرى برفق على كمه.

قال ناظر المحطة: «ها قد بدأت المشاكل، ليس معه تذكرة؛ ولا يعرف حتى إلى أين يريد أن يذهب. لا أعرف الآن سوى أنه ينبغي لي أن أطلب الشرطة.»

أخذ الأطفال كلهم يتوسلون إليه في وقتٍ واحد: «أوه، لا تفعل!» وفجأةً وقفتْ بوبي بين الرجل الغريب وبين الآخرين؛ إذ رأته يبكي.

بقدر غير مألوفٍ تمامًا من حُسن الحظ وجدتْ بوبي منديلًا في جيبها. وبفضلِ صدفةٍ أكثر غرابةً كان المنديل نظيفًا إلى حدٍّ ما. أخرجت بوبي المنديل وهي واقفة أمام الرجل الغريب، وناولته إياه خُفيةً فلم يرَها أحد.

كانت فيليس تقول: «انتظر حتى تأتي أمي، إنها تجيد الحديث بالفرنسية. سوف تحب الاستماع إليها.»

قال بيتر: «أنا واثقٌ أنه لم يفعل أي شيءٍ يستدعي أن ترسله إلى السجن.»

قال ناظر المحطة: «يبدو لي من المتشردين. حسنٌ، لا أمانع في التسليم ببراءته إلى أن تصل والدتك. أريد أن أعرف إلى أي بلدٍ ينتمي. يجب أن أعرف هذا.»

بعد ذلك خطر لبيتر فكرة. أخرج مظروفًا من جيبه، وأوضح أنه كان ممتلئًا إلى نصفه بطوابع بريدٍ لبلدان أجنبية.

قال بيتر: «انظروا، لنعرض عليه هذه ...»

نظرت بوبي إلى الغريب فوجدته قد جفف عينَيه بمنديلها. لذا قالت: «حسنٌ.»

أراه الأطفال طابع بريدٍ إيطاليًّا، وأشاروا إليه ثم إلى طابع البريد ثم إليه مرةً أخرى، وراحوا يُسائلونه بإشارات بحواجبهم؛ لكنه هز رأسه. ثم أروه طابع بريدٍ نرويجيًّا — كان من ذلك النوع الأزرق المعروف — لكنه من جديدٍ أشار إليهم أن لا. بعد ذلك أرَوه طابعًا إسبانيًّا، وهنا أخذ المظروف من يد بيتر وراح يبحث في الطوابع بيدٍ مرتعشة. كانت اليد التي مدها في النهاية، وهو يشير بها إشارةَ من يجيب سؤالًا وُجِّه إليه، تحمل طابع بريدٍ روسيًّا.

صاح بيتر قائلًا: «إنه روسي، أو إنه يشبه «الرجل الذي كان» في قصة كيبلينج، أتعرفون!»

دُقَّ جرسُ الإشارة معلنًا وصول قطار مدينة ميدبريدج.

قالت بوبي: «سأبقى معه ريثما تحضرون أمي.»

«ألستِ خائفةً يا آنستي؟»

قالت بوبي وهي تنظر إلى الرجل الغريب، وكأنما تنظر إلى كلبٍ غريبٍ غيرِ مأمون الطباع: «أوه، لا. إنك لن تؤذيني، أليس كذلك؟»

ابتسمت بوبي في وجهه، وابتسم لها بدوره، لكن ابتسامته كانت ملتويةً غريبة. ثم أخذ يسعل مرةً أخرى. واندفع القطار القادم بجوارهم بحفيفٍ ثقيلٍ مقرقع، وخرج ناظر المحطة وبيتر وفيليس لاستقباله. كانت بوبي لا تزال مُمسِكةً بيد الرجل الغريب عندما عادوا برفقة أمها.

نهض الرجل الروسي من مكانه وانحنى لها بطريقة رسمية للغاية.

بعد ذلك حدثته الأم بالفرنسية، وأجابها، بكلامٍ متقطعٍ في البداية، لكنه ما لبث أن استفاض في الكلام أكثر فأكثر.

علم الأطفال من مراقبة وجهه ووجه أمهم أنه كان يقول لها أشياء أثارت في نفسها غضبًا وشفقة وحزنًا وسخطًا، كلٌّ في آنٍ واحد.

قال ناظر المحطة وقد عجز عن كبح فضوله أكثر من ذلك: «حسنٌ يا سيدتي، ما الأمر؟»

قالت الأم: «أوه، لا بأس. إنه روسي، وقد ضيع تذكرته. وأخشى أنه مريضٌ للغاية. إذا لم يكن لديك مانعٌ، فسآخذه معي إلى البيت الآن. إنه حقًّا مُنهَكٌ للغاية. سوف أستقصي أمره وأخبرك كل شيء عنه في الغد.»

قال ناظر المحطة بارتياب: «أرجو ألا تكتشفي أنكِ قد أخذتِ معكِ أفعى متجمدة.»

ابتسمت الأم وقالت مبتهجة: «أوه، لا. أنا متأكدةٌ تمامًا أن هذا لن يكون. يا إلهي، إنه رجل عظيمٌ في بلده، إنه يؤلف الكتب — وكتبه جميلة — لقد قرأتُ بعضها؛ لكنني سأخبرك بكل شيءٍ غدًا.»

عاودت الحديث مع الروسي من جديدٍ بالفرنسية، واستطاع الجميع أن يروا الدهشة والسرور والامتنان في عينَيه. قام الرجل من مكانه وانحنى بأدبٍ لناظر المحطة، ثم مدَّ ذراعه بأدبٍ بالغٍ للأم. أمسكت الأم بها، لكنْ كان باستطاعة أيِ أحد أن يلاحظ أنه هو الذي كان يستند عليها، وليست هي.

قالت الأم: «فلتُسرعا إلى البيت يا بنات، وتوقِدا نارًا في غرفة الجلوس، ويجدر ببيتر أن يذهب لإحضار الطبيب.»

لكن بوبي هي التي ذهبت إلى الطبيب.

قالت بوبي لاهثةً عندما وصلت إليه وهو مرتدٍ قميصه من دون معطفٍ فوقه، وكان يُزيل الحشائش الضارة من حوض أزهار البنفسج خاصته: «أكره أن أخبرك هذا، لكن ثمةَ رجلًا روسيًّا زريَّ الهيئة للغاية مع أمي، وأنا واثقةٌ أنه سيحتاج إلى الانضمام إلى جمعية التأمين هو الآخر. أنا متأكدةٌ أنه ليس لديه أي مال. لقد وجدناه في المحطة.»

سألها الطبيب وهو يُحضِر معطفه: «وجدتموه! هل كان تائهًا إذن؟»

فاجأته بوبي بقولها: «نعم. هذا ما كان عليه تمامًا. لقد تركته وهو يقص على أمي قصةَ حياته الحزينة بلغة فرنسيةٍ عذبةٍ؛ وطلبت مني إذا وجدتُك في البيت أن أستأذنك في أن تتكرم بالحضور في الحال. إنه يُعاني سعالًا مريعًا، وكان يبكي.»

ابتسم الطبيب.

قالت بوبي: «أوه، لا تفعل. أرجوك لا تفعل. ما كنتَ لتبتسم لو رأيتَه. إنني لمْ أرَ رجلًا يبكي في حياتي من قبل. أنت لا تدري كيف يبدو حاله.»

حينئذٍ تمنَّى الدكتور فوريست لو أنه لم يبتسم.

عندما وصلت بوبي برفقة الطبيب إلى المنزل ذي الثلاث المداخن، كان الروسي جالسًا في المقعد ذي الذراعَين الذي كان يجلس فيه والدها، ممددًا قدمَيه أمام وهج نارِ الحطب المستعرة، يحتسي الشاي الذي صنعته له أمها.

«يبدو الرجل منهكًا، نفسيًّا وبدنيًّا.» كانت هذه كلمات الطبيب. ثم أضاف: «إن سعاله مريع، لكن لا يوجد شيءٌ لا يمكن علاجُه. لكن يجب أن يذهب إلى الفراش في الحال، وأوقدوا نارًا إلى جواره أثناء الليل.»

قالت الأم: «سأوقد نارًا في غرفتي؛ إنها الغرفة الوحيدة التي بها مدفأة.» وأوقدتِ النار، وبعد قليلٍ أسند الطبيبُ الرجل الغريب حتى أوصله إلى الفراش.

كان في غرفة الأم صندوق كبيرٌ أسود لحفظ الملابس لمْ يره أيٌّ من الأطفال مفتوحًا قط. لكنها الآن، وبعدما أوقدتِ النار، فتحته وأخرجت منه بعض الملابس — ملابس رجالية — ووضعتها لتتهوى بجوار النار التي أُشعِلَتْ لتوها. دخلت بوبي إلى الغرفة ومعها المزيد من الحطب من أجل النار، فرأت الاسم المنقوش على المنامة الرجالية، ونظرت في الصندوق المفتوح. كان كل ما استطاعت رؤيته ملابس رجالية. كان الاسم المنقوش على المنامة هو اسم والدها. إذن لم يأخذ والدها ملابسه معه. وكانت تلك المنامة واحدة من منامات والدها الجديدة. تذكرت بوبي أنها صُنِعت قبل عيد ميلاد بيتر مباشرة. لماذا لمْ يأخذ والدها ملابسه؟ انسلَّتْ بوبي من الغرفة. وبينما هي ذاهبةٌ سمعت المفتاح وهو يدور في قفل الصندوق. كان قلبها يدق دقاتٍ مرعبة. لماذا لمْ يأخذ والدها ملابسه؟ عندما خرجت الأم من الغرفة اندفعتْ بوبي إليها وطوقت خاصرتها بذراعَيها بقوةٍ، وهمست في أذنَيها قائلةً:

«أمي ... إن أبي لمْ ... لمْ يمُتْ، أليس كذلك؟»

«لا يا عزيزتي! ما الذي جعلكِ تفكرين في شيءٍ مخيفٍ كهذا؟»

«أنا ... لا أعرف.» هكذا قالت بوبي وقد غضبتْ من نفسها، لكنها كانت لا تزال متمسكةً بقرارها بألَّا ترى أيَّ شيءٍ لمْ تُرِد أمها أن تجعلها تراه.

عانقتها أمها في الحال وقالت: «لقد كان أبوكِ في أحسن حالٍ عندما قرأتُ رسالته الأخيرة. وسيعود إلينا يومًا ما. لا تُفكري في مثل هذه الأشياء المريعة يا حبيبتي!»

بعد ذلك، عندما توافر للغريب الروسي ما جعله مستريحًا في تلك الليلة، جاءت الأم إلى غرفة البنتَين. كانت قد جهزت لتنام في سرير فيليس، وكانت فيليس ستنام على مرتبةٍ على الأرض، وكانت هذه مغامرةً ممتعةً جدًّا لفيليس. وما إن دخلت الأم إلى الغرفة حتى نهض شخصان يكسوهما البياضُ فجأةً، وناداها صوتان متحمسان:

«والآن يا أمي، أخبرينا بكل شيءٍ عن السيد الروسي.»

جاء شيءٌ يكسوه البياض يقفز حتى دخل الغرفة. كان ذلك هو بيتر، وكان يجر لحافه خلفه وكأنه ذيل طاوس أبيض.

قال: «لقد طال صبرنا، وقد اضطُرِرتُ إلى بلع لساني كي لا أقول لكِ إنني لن أنام، وكنتُ قد أوشكتُ على النوم وقد طال سكوتي جدًّا، وهذا مؤلمٌ جدًّا. فلتخبرينا بالأمر في قصةٍ طويلة جميلة.»

قالت الأم: «لا أستطيع الإطالة في الكلام الليلة. إنني متعبةٌ للغاية.»

عرفتْ بوبي من نبرة صوت أمها أنها كانت تبكي، لكنَّ الآخرَين لم يلاحظا.

قالت فيليس: «حسنٌ، فلتطيلها بقدر ما تستطيعين.» ووضعتْ بوبي ذراعَيها على خصر أمها والتصقت بها.

«حسنٌ، إنها قصةٌ طويلةٌ بما يكفي لكي تملأ كتابًا كاملًا. إنه يعمل كاتبًا؛ لقد ألَّف كتبًا جميلة. في روسيا في عهد القيصر لم يكن يجرؤ أحدٌ على قول أي شيءٍ في حق الأغنياء عندما يُخطئون، ولا أيَّ شيءٍ عمَّا ينبغي فِعلُه لإسعاد الفقراء وتحسين أوضاعهم. ولو تكلم أحدٌ كان يُزَج به في السجن.»

قال بيتر: «لكن لا يحق لهم فِعل هذا. إن الناس لا يُسجَنون إلا عندما يرتكبون الأخطاء.»

قالت الأم: «أو عندما يظن القُضاةُ أنهم ارتكبوا خطأً. نعم، هكذا هو الحال في إنجلترا. لكن في روسيا كان الأمر مختلفًا. وقد كتب كتابًا جميلًا عن الفقراء وعن كيفية مساعدتهم. لقد قرأتُ هذا الكتاب. لا شيءَ فيه سوى الخير والطيبة. لكنهم وضعوه في السجن بسببه. لقد قضى ثلاث سنواتٍ في زنزانةٍ رهيبةٍ تحت الأرض، لا يكاد يدخلها أي ضوء، وتغشاها الرطوبة، وبغيضة. وظل في السجن بمفرده تمامًا طيلة ثلاث سنين.»

ارتعش صوتُ الأم قليلًا وتوقف فجأةً.

قال بيتر: «لكن يا أمي، لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا في أيامنا هذه. إنه يبدو شبيهًا بشيءٍ ما في كتاب التاريخ؛ محاكم التفتيش، أو شيء كهذا.»

قالت أمه: «لكنه كان حقيقيًّا بالفعل. كان كله حقيقيًّا بصورةٍ مفزعة. حسنٌ، ثم أخرجوه من السجن وأرسلوه إلى سيبيريا، مُدانًا مربوطًا في سلسلةٍ مع مدانين آخرين — كانوا رجالًا من الأشرار الذين ارتكبوا جميع أنواع الجرائم — كانت سلسلةً طويلةً من هؤلاء الرجال، وأخذوا يمشون، ويمشون، ويمشون، طيلةَ أيامٍ وأسابيع، حتى ظنَّ أنهم لن يَكفُّوا عن المسير. وكان المراقبون يسيرون وراءهم بالسياط — نعم، سياط — ليجلدوهم إذا كلُّوا عن السير. وقد أَصاب العرجُ بعضهم، وسقط بعضهم على الأرض، وعندما كانوا يعجزون عن القيام واستكمال المسير، كانوا يضربونهم، ثم يتركونهم ليموتوا. يا إلهي، إن الأمر كله في غاية الفظاعة! وفي النهاية وصل إلى المناجم، وكان قد حُكم عليه بالبقاء هناك مدى الحياة؛ مدى الحياة، فقط لأنه ألَّف كتابًا جيدًا نبيلًا رائعًا.»

«وكيف تمكن من الهروب؟»

«عندما جاءت الحرب، سُمِح لبعض السجناء الروس بالتطوع جنودًا فيها. وقد تطوع. لكنه فرَّ مع أول فرصةٍ أُتيحَت له، ثم ...»

قال بيتر: «لكن هذا جبنٌ شديد، أليس كذلك، أن يفر من الجندية؟ خاصةً في وقت الحرب.»

«هل تعتقد أنه كان يَدينُ بأيِّ شيءٍ لبلدٍ فعل به كل ذلك؟ لو كان كذلك، فإنه يدين بأكثرَ من هذا لزوجته وأولاده. إنه لا يدري ما الذي حدث لهم.»

صاحت بوبي: «يا إلهي، إذن فقد كان يفكر فيهم ويبتئس عليهم أيضًا طوال فترة بقائه في السجن، أليس كذلك؟»

«بلى، كان يفكر فيهم ويبتئس عليهم طوال فترة بقائه في السجن. لقد كان يعلم أنه ربما يُزَج بهم في السجن بأي تهمة هم كذلك. لقد كانوا يفعلون تلك الأشياء في روسيا. لكنه عندما كان في المناجم نجح بعض أصدقائه في إيصال رسالةٍ إليه يخبرونه فيها أن زوجته وأولاده هربوا وجاءوا إلى إنجلترا. لذا عندما فرَّ جاء إلى هنا ليبحث عنهم.»

قال بيتر صاحبُ التفكير العملي: «وهل حصل على عنوانهم؟»

«لا؛ إنجلترا وحسب. لقد كان في طريقه إلى لندن، وحسِب أنه يلزمه أن يبدل القطار في محطتنا، ثم اكتشف أنه فقد تذكرته ومحفظة نقوده.»

«أوه، هل تتوقعين أن يجدهم؟ أقصد زوجته وأولاده، وليس التذكرة وهذه الأشياء.»

«أرجو ذلك. يا إلهي، أرجو وأدعو أن يجد زوجته وأولاده من جديد.»

حتى فيليس أدركت في تلك اللحظة أن صوت أمها كان مضطربًا للغاية.

قالت فيليس: «يا للأسى، يا أمي، كم تبدين حزينةً للغاية من أجله!»

لم تُجب أمها للحظةٍ، ثم لم تقل سوى: «نعم.» ثم بدا أنها تُفكِّر. بقي الأطفال ساكتين في ذلك الوقت.

بعد قليلٍ قالت: «أحبتي، عندما تتلون صلواتكم، أظن أنه ربما يجدر بكم أن تسألوا الرب أن ينزل رحمته على جميع السجناء والأسرى.»

أخذت بوبي تُكرِّر بتمهل: «أن يُنزِل رحمته على جميع السجناء والأسرى. هكذا يا أمي؟»

قالت أمها: «نعم، على جميع السجناء والأسرى. جميع السجناء والأسرى.»

الفصل السادس

مُنقذو القطار

تحسنَت صحةُ السيد الروسي في اليوم التالي، وتحسنت أكثر في اليوم الذي تلاه، وفي اليوم الثالث أصبحت صحته جيدةً بما يكفي لكي يخرج إلى الحديقة. لقد وُضع له كرسيٌّ من الخوص المنسوج وجلس عليه مرتديًا ملابس الأب، وكانت كبيرةً جدًّا عليه. لكن عندما ثنَت الأم أطراف الأكمام والسراويل لاءمَته الملابسُ بصورةٍ مقبولة. لقد أصبح وجهه طيبًا في ذلك الوقت إذ لم يعد بعدُ متعبًا ولا خائفًا، وكان يبتسم في وجوه الأطفال كلما رآهم. كانوا يتمنون من قلوبهم لو كان يستطيع الحديث بالإنجليزية. لقد كتبتْ أمهم العديد من الخطابات لأُناسٍ اعتقدتْ أنهم ربما يعرفون في أي مكانٍ من إنجلترا يُحتمَل أن تكون زوجة سيدٍ روسي وأسرته؛ لكنها لم تكتب لأولئك الذين كانت تعرفهم قبل مجيئها للعيش في البيت ذي المداخن الثلاث — لم تكتب قطُّ لأيٍّ منهم — وإنما لأناسٍ لا تعرفهم؛ أعضاء في البرلمان، ومحرري صحف، وأمناء سر بعض الجمعيات.

لم تنجز الكثير في القصة التي كانت تؤلفها، وإنما اكتفت بتصحيح بعض مسوَّدات الطباعة أثناء جلوسها في الشمس بقرب الروسي، وحديثها إليه بين الحين والآخر.

شعر الأطفال برغبة شديدةٍ في إظهار مدى تعاطفهم لذلك الرجل الذي زُجَّ به في السجن وأُرسِل إلى سيبيريا لمجرد أنه ألَّف كتابًا جميلًا عن الفقراء. كانوا يستطيعون الابتسام في وجهه، لا شك في ذلك؛ كانوا يستطيعون ذلك وقد عملوه بالفعل. لكنك عندما تُفرط في الابتسام طوال الوقت، تُصبح الابتسامةُ عُرضةً للثبات على وجهك كابتسامة الضبع؛ ومِن ثَمَّ لا تعود تبدو ودودةً، وإنما ببساطةٍ تبدو أقربَ إلى السخافة؛ لذا حاول الأطفال فعل أشياء أخرى، فظلوا يُحضِرون له الأزهار إلى أن أصبح المكان الذي يجلس فيه محاصَرًا بباقاتٍ صغيرةٍ ذابلةٍ من نباتات النفل والورود وأزهار جرس كنتربري.

بعد ذلك خطرت لفيليس فكرة. فأشارت إلى الآخَرين إشارةً غامضةً وسحبتهما إلى الفناء الخلفي، وهناك، في مكانٍ خفيٍّ؛ بين المضخة وبرميل الماء، قالت:

«أتذكران عندما وعدني بيركس أن يعطيني أولَ ما ينضج من ثمار الفراولة في حديقته؟» كان بيركس، كما ستتذكرون، هو الحمَّال. «حسنٌ، أعتقد أنها نضجت الآن. لنذهب إلى المحطة ونرى.»

كانت الأم قد ذهبت إلى المحطة قبل ذلك؛ إذ كانت قد وعدت ناظر المحطة أن تخبره قصة السجين الروسي. لكنْ حتى مفاتن السكة الحديدية كانت قد عجزت عن اقتلاع الأطفال من جوار الغريب المثير للاهتمام؛ لذا فقد ظلوا ثلاثة أيامٍ لا يذهبون إلى المحطة.

وذهبوا بعد ذلك.

لكنَّ الجفاء الشديد الذي استقبلهم به بيركس أدهشهم وأصابهم بالكرب.

قال لهم عندما اختلسوا النظر إليه وهم عند باب حجرة الحمَّالين: «لقد نالني عظيمُ الشرف بزيارتكم، بالتأكيد.» وواصل قراءة جريدته.

ساد الغرفةَ صمتٌ مُقلق.

قالت بوبي متنهدةً: «يا إلهي، أعتقد أنك غاضب.»

قال بيركس بتعالٍ: «ماذا، أنا؟ ليس أنا! إن الأمر لا يَعنيني.»

قال بيتر، وقد منعتْه شدة القلق والانزعاج من تعديل الكلمات: «ما هو الذي لا يَعنيك؟»

قال بيركس: «لا عليكم. بخصوص ذلك الذي حدث هنا أو في أي مكانٍ آخر، إذا كنتم تريدون الاحتفاظ بأسراركم لأنفسكم فاحتفظوا بها ولا بأس. هذا ما عندي.»

فتَّش كلُّ واحد من الأطفال مستودع أسراره سريعًا في فترة الصمت التي تلت كلام بيركس. لكنَّ رءوسًا ثلاثة راحت تهتز نافيةً أن يكون لدى أصحابها أي سر.

قالت بوبي أخيرًا: «إننا لا نكتم عنك أيَّ أسرار.»

قال بيركس: «ربما تكتمون، وربما لا. إنه أمرٌ لا يعنيني. وأتمنى لكم جميعًا يومًا طيبًا جدًّا.» ورفع الجريدة بينه وبينهم وراح يقرأ.

قالت فيليس في يأس: «أوه، لا تفعل هذا! هذا مخيفٌ حقًّا! أيًّا كان الأمر، أخبرنا ما هو.»

«إننا لم نقصد أن نفعله أيًّا كان ما هو.»

لا رد. قلب بيركس صفحات الجريدة وبدأ في قراءة عمودٍ آخر.

قال بيتر فجأةً: «انظر إليَّ. هذا ليس عدلًا. حتى من يرتكبون الجرائم لا يُعاقَبون دون أن يعرفوا سبب العقوبة؛ كما كانوا يفعلون من قبل في روسيا.»

«أنا لا أعرف أي شيءٍ عن روسيا.»

«يا إلهي، بلى، إنك تعرف، عندما جاءت أمي إلى المحطة كي تخبرك أنت والسيد جيلز بكلِّ شيءٍ عن ضيفنا الروسي.»

قال بيركس باستياءٍ وغضب: «ألا يمكنك أن تتخيل الأمر؟ ألا تستطيع أن تتخيله وهو يطلب إليَّ أن أدخل إلى حجرته وأن أتخذ مقعدًا لكي أسمع لما كانت ستقوله السيدة والدتكم؟»

«أتقصد أن تقول إنك لم تسمع شيئًا؟»

قال بيركس: «ولا كلمة واحدة. ولقد تماديتُ وسألته، لكنه أسكتني كما تُسكِتُ المصيدةُ الفأرَ وقال: «إنها أسرار الدولة يا بيركس.» لكنني كنتُ أظن أن واحدًا منكم سيأتي مسرعًا ليخبرني؛ إنكم تسرعون بالمجيء إلى هنا عندما تريدون أن تأخذوا أي شيءٍ من بيركس العجوز.» — صبغ الخجل وجه فيليس حين تذكرَت ثمار الفراولة — وواصل بيركس قائلًا: «معلوماتٍ عن القاطرات أو الإشارات أو ما شابه.»

«لكننا لم نعلم أنك لم تعلم.»

«ظننا أن أمنا أخبرتك.»

«كنا نريد أن نخبرك فقط أننا ظننا أنها ستكون أخبارًا قديمة.»

قالها الثلاثة كلهم في اللحظة نفسها.

قال بيركس إنه لا بأس بذلك، وظلَّ رافعًا الجريدة. لكن فيليس خطفَتها منه فجأةً، وألقتْ ذراعَيها حول عنقه.

وقالت: «أوه، فلنتصالح إذن. سنعتذر لك نحن أولًا، إذا أحببت، لكننا بالفعل لم نكن نعلم أنك لم تعلم.»

قال الآخران: «نحن آسفون للغاية.»

وأخيرًا وافق بيركس على قَبول اعتذارهم.

بعد ذلك أقنعوه بالخروج من الغرفة والجلوس تحت أشعة الشمس في الجانب المكسو بالخضرة من السكة الحديدية، حيث كانت حرارة العشب أعلى بكثيرٍ من أن يلمسه أحد، وهناك، أخذوا يقصون عليه قصة السجين الروسي، فيتحدثون كلٌّ على حِدَة تارة، وتارة يتحدثون جميعًا في الوقت نفسه.

قال بيركس: «حسنٌ، أرى أنه ...» لكنه لم يقل رأيه؛ أيًّا كان ما أراد أن يقوله.

وقال بيتر: «نعم، إنه أمرٌ في غاية الفظاعة، أليس كذلك؟ وأنا لا أعجب من فضولك لمعرفة من هو ذلك الرجل الروسي.»

قال الحمَّال: «لم يكن فضولًا بقدر ما كان اهتمامًا.»

«حسنٌ، لقد ظننتُ أن السيد جيلز ربما أَخبرك بالأمر. لقد كان فعله هذا شنيعًا.»

قال الحمَّال: «أنا لا ألومه على ذلك أيتها الفتاة. ولِمَ قد أفعل هذا؟ إنني أتفهم دوافعه. ما كان يريد أن يُفشي أسرار مَن يؤيدهم بإفشاء قصة كهذه هنا. ليس هذا من طبيعة البشر؛ لأن على المرء أن يساند من يؤيدهم بغض النظر عما يفعلون. هكذا هي السياسة الحزبية. كنتُ سأفعل الأمر نفسه لو كان هذا الرجل ذو الشعر الطويل يابانيًّا.»

قالت بوبي: «لكنَّ اليابانيين لمْ يرتكبوا مظالمَ شريرةً وحشية كهذه.»

قال بيركس بحذر: «ربما لم يفعلوا، لكنكِ لا تستطيعين أن تأمني الأجانب. أرى أنهم جميعًا بهم الخصال السيئة نفسها.»

سأل بيتر: «فلمَ كنتَ في صف اليابانيين إذن؟»

«حسنٌ، يجب أن تنحاز إلى أحد الفريقَين. تمامًا كما هو الحال مع الليبراليين والمحافظين. الأهم هو أن تختار فريقك وتظلَّ متمسكًا به، مهما حدث.»

رن جرس إحدى الإشارات.

قال بيركس: «ها قد وصل قطار الثالثة وأربع عشرة دقيقة. اختبئوا حتى يمر، ثم سنذهب إلى بيتي، ونرى إن كان أيٌّ من ثمار الفراولة التي حدثتكم عنها قد نضج.»

قالت فيليس: «لو وجدنا أيًّا منها قد نضج، وأعطيتَنيها بالفعل، فإنك لن تمانع في أن أُعطيها للروسي المسكين، أليس كذلك؟»

ضيَّق بيركس عينَيه ثم رفع حاجبَيه.

وقال: «إنها الفراولة إذن التي جاءت بكم إليَّ هذا اليوم، أليس كذلك؟»

كانت هذه لحظةً محرجةً لفيليس؛ فلو أنها قالت «بلى» لبدتْ وقحةً وجشعة وجاحدة لبيركس. لكنها كانت تعلم أنها لو قالت «نعم»، فلن ترضى عن نفسها بعد ذلك. لذا ...

قالت: «بلى، هي الفراولة.»

قال الحمَّال: «أحسنتِ! قولي الحقَّ ولو كان ...»

أضافت فيليس سريعًا: «لكننا لو كنا نعلم أنك لم تسمع القصة لأتينا إليك في اليوم التالي مباشرةً.»

قال بيركس: «إنني أُصدقكِ أيتها الفتاة.» ثم قفز فوق قضبان السكة الحديدية أمام القطار القادم نحوه والذي لم يكن يَفصله عنه سوى مسافة ست أقدام.

انزعجت الفتاتان من رؤيته وهو يفعل هذا، لكنَّ بيتر أَحبه؛ إذ رآه مثيرًا للغاية.

ابتهج السيد الروسي بثمار الفراولة ابتهاجًا شديدًا لدرجة أن الأطفال الثلاثة راحوا يعصرون أدمغتهم بحثًا عن مفاجأة أخرى يُفاجئونه بها. لكن التفكير المُضنيَ لم يُسفِر عن أي فكرةٍ أكثر جِدَّةً من ثمار الكَرز البري. وقد خطرت لهم هذه الفكرة في صباح اليوم التالي. لقد كانوا رأوا النُّوَّار على الأشجار في فصل الربيع، وكانوا يعلمون أين يبحثون عن أشجار الكرز البري؛ إذ كان ذلك أوان نضوجُ الكرز هنا. كانت الأشجار تنمو على طول الجانب الصخري للمنحدر، الذي تشقُّه فوهةُ النفق، وفوقه كذلك. كانت جميع أنواع الأشجار موجودةً هناك، أشجار البتولا وشجر الزَّان وصغار أشجار البلوط وأشجار البندق، وكان نُوارُ الكرز يلتمع بينها الْتماعَ الثلج والفِضة.

كانت فوهة النفق بعيدةً بعض الشيء عن المنزل ذي المداخن الثلاث؛ لذا سمحت لهم أمهم بأخذ غدائهم معهم في سلة. وكانت السلة ستفي بالغرض ليحضروا فيها ثمار الكرز لو وجدوا أي ثمارٍ ناضجة. وأعارتهم كذلك ساعتها الفضية لكيلا يتأخروا على موعد وجبة شاي الأصيل. لقد قررتْ ساعة بيتر ماركة ووتربيري ألا تعمل منذ ذلك اليوم الذي أسقطها فيه بيتر في برميل الماء. وهكذا بدءوا رحلتهم. عندما وصلوا إلى قمة النفق المكشوف الذي تمر فيه قضبان السكة الحديدية، انحنوا على السور وراحوا ينظرون إلى المكان الذي تمتد فيه قضبانُ السكة الحديدية؛ في قاعِ ما بدا تمامًا، كما قالت فيليس، كوادٍ جبلي عميقٍ ضيق.

«لولا وجودُ السكة الحديدية في الأسفل، لبدا المكان وكأن أرجل البشر لم تطَأْه يومًا، أليس كذلك؟»

كان جانبا النفق المكشوف يتكونان من حجارةٍ رماديةٍ نُحِتَت بانحدارٍ شديدٍ جدًّا. كان الجزء العلوي من النفق المكشوف بالفعل عبارة عن وادٍ طبيعيٍّ صغيرٍ ضيقٍ في الأصل، ثم حُفر إلى مستوًى أعمق مما كان عليه لكي يُصبح في مستوى فوهة النفق المغلق الذي يعلوه الجسر ويمر القطار من تحته. كان العشب والأزهار ينبتان فيما بين الصخور، كما نبتَ للبذور التي أسقطها الطيرُ في شقوق الصخور جذورٌ ونمَتْ حتى

أصبحتْ شُجيراتٍ وأشجارًا تُشرِف على النفق المكشوف. كان قُربَ النفق المغلق دَرَجٌ يؤدي إلى خط السكة الحديدية — لم يكن سوى قضبان خشبية مثبتة بإحكامٍ في الأرض — وكان شديدَ الانحدار والضيق؛ فكان أقرب إلى سلم متنقل منه إلى درَج.

قال بيتر: «يجدر بنا أن ننزل. أنا واثقٌ أن الوصول إلى ثمار الكرز سيكون أسهلَ عندما نقف على جانِبَي السلالم. تذكَّرا أننا قطفنا نوار الكرز الذي وضعناه على قبر الأرنب ونحن واقفان عليها.»

وهكذا ساروا بمحاذاة السور باتجاه البوابة الدوارة الصغيرة القائمة فوق قمة ذلك الدَّرَج. وعندما كادوا يصلون إلى البوابة قالت بوبي:

«صه. توقفا! ما هذا؟»

كان «هذا» صوتًا غريبًا جدًّا في الحقيقة؛ صوتٌ هادئٌ، لكن كان من السهل جدًّا تمييزُه من بين صوت الريح التي تضرب فروع الأشجار، وهمهمة أسلاك التلغراف وطنينها. كان صوتًا هامسًا شبيهًا بالخشخشة. وعندما أصغوا إليه توقف، لكنه عاد ليبدأ من جديد.

وفي هذه المرة لمْ يتوقف، وإنما صار أكثر صخبًا وأكثر خشخشةً وزمجرة.

صاح بيتر فجأةً: «انظُرا، تلك الشجرة التي هناك!»

كانت الشجرة التي أشار إليها واحدةً من تلك الأشجار ذات الأوراق الرمادية الخشنة والأزهار البيضاء. إن ثمار الكرز، عندما تنضج، تكون قرمزيةً زاهية، لكنك عندما تقطفها فإنها تخذلك باستحالتها إلى اللون الأسود قبل أن تذهبَ بها إلى البيت. وعندما أشار بيتر، كانت الشجرة تتحرك؛ ليس فقط كما ينبغي للأشجار أن تتحرك عندما تندفع الريح من خلالها، وإنما كانت تتحرك كلُّها جملةً واحدة، وكأنما كانت مخلوقًا حيًّا يسير بقدَمَيه نزولًا على جانب النفق المكشوف.

صاحت بوبي قائلةً: «إنها تتحرك! يا إلهي، انظُرا! والأشجار الأخرى كذلك. إنها تفعل مثل غابة بيرنام في مسرحية ماكبث.»

قالت فيليس لاهثةً: «إنه سِحر. لطالما عرَفتُ أن هذه السكة الحديدية مسحورة.»

بدا الأمر بالفعل شبيهًا قليلًا بالسحر؛ إذ بدت جميع الأشجار الواقعة على امتداد عشرين ياردةٍ تقريبًا في الضفة المقابلة وكأنما تسير نازلةً ببطءٍ في اتجاه خط السكة الحديدية، وكانت الشجرة ذات الأوراق الرمادية تسير خلف بقية الأشجار وكأنها راعٍ عجوز يسوق قطيعًا من الخراف الخضراء.

قالت فيليس: «ما هذا؟ يا إلهي، ما هذا؟ إنه سحرٌ أكثر بكثيرٍ مما أستطيع تحمله. أنا لستُ مطمئنة. لنذهب إلى البيت.»

لكنَّ بوبي وبيتر تشبثا بالسور بقوةٍ وظلَّا ينظران وقد انقطعت أنفاسهما من الدهشة. ولم تتحرك فيليس خطوة واحدة للذهاب إلى البيت بمفردها.

ظلت الأشجار تتحرك بلا توقف، وسقطت التربةُ الرخوة وبعض الأحجار وراحت تُقرقع على قضبان السكة الحديدية بعيدًا في الأسفل.

«إنها تنهار كلها.» حاول بيتر أن يقول هذه الكلمات، لكنه لم يكد يجد أي صوتٍ ينطقها به. وبالفعل، في اللحظة التي كان يتكلم فيها تمامًا، راحت الصخرة الكبيرة التي كانت الأشجار السائرة تنمو على قمتها، تميل ببطءٍ إلى الأمام. وهنا توقفت الأشجار عن المسير، وثبتت في مكانها وراحت ترتعش. بدت الأشجار، وهي تميل مع الصخرة، وكأنها ترددتْ قليلًا، ثم، وبصوت اندفاع، انزلقت الصخرة والأشجار والعشب والشجيرات من على جانب النفق المكشوف مباشرةً، وسقطت فوق القضبان بارتطامٍ متخبط سُمِع صوتُه من على بعد نصف ميل. وارتفعت على إثر ذلك سحابة من الغبار.

قال بيتر بنبرةٍ مرتاعة: «يا إلهي، أليس هذا شبيهًا تمامًا بلحظة دخول الفحم إلى القبو؟ ... إذا لم يكن يوجد أيُّ سقفٍ للقبو واستطعتم النظر إليه من أعلى.»

قالت بوبي: «انظُرا كم هي ضخمةٌ التلةُ التي تكونت!»

قال بيتر ببطءٍ: «نعم.» وكان لا يزال منحنيًا على السور. ثم كرَّر ببطءٍ أشد: «نعم.» بعد ذلك اعتدل في وقفته.

وقال: «إن قطار الحادية عشرة وتسع وعشرين دقيقة القادم من العاصمة لم يمر بعد. لا بد أن نخبرهم في المحطة بما جرى، وإلا فستقع حادثة مروعة.»

قالت بوبي: «لنركض.» وبدأت في الركض بالفعل.

لكنَّ بيتر صاح بها: «ارجعي!» ونظر في ساعة أمه. كان متأهبًا وجادًّا للغاية، وبدا وجهه لعيونهما أكثر شحوبًا من أي وقت مضى.

قال بيتر: «لا وقت لدينا. إن المحطة على بعد ميلَين، والساعة تجاوزت الحادية عشرة.»

اقترحت فيليس بأنفاسٍ متقطعة: «ألا يُمكننا، ألا يمكننا أن نتسلق أحد أعمدة التلغراف ونفعل شيئًا ما في الأسلاك؟»

قال بيتر: «إننا لا نعرف كيف نفعل هذا.»

قالت فيليس: «إنهم يفعلون هذا في الحروب. أعرف هذا، لقد سمعتُ عنه.»

قال بيتر: «إنهم إنما يقطعونها، أيتها الحمقاء، وليس لهذا أي جدوى. ثم إننا لا نستطيع قطعها حتى لو صعدنا إليها، كما أننا لا نستطيع الصعود إليها. لو كان معنا أي شيء أحمر اللون، كان سيُمكننا أن ننزل إلى القضبان ونلوح به.»

قالت فيليس: «لكن القطار لن يرانا قبل أن يصل إلى المنعطف، وساعتها سيرى التلة كما نراها نحن، وربما أفضل مما نراها، لأنه أكبر بكثيرٍ منا.»

كرر بيتر كلامه قائلًا: «لو كان معنا فقط شيءٌ أحمر اللون، لكنَّا اقتربنا من المنعطف ولوَّحنا للقطار.»

«نستطيع أن نلوح له، على أي حال.»

«سيظنون فقط أننا نلوح كالمعتاد. لطالما لوحنا للقطار من قبل. على أي حال، تعاليا لننزل.»

نزل الأطفال الثلاثة على الدَّرَج الشديد الانحدار. كانت بوبي شاحبةً مرتجفة. وبدا وجه بيتر أنحف من المعتاد. أما فيليس فكان وجهها محمرًّا متعرقًا من القلق الذي اعتراها.

وقالت: «يا إلهي، كم أشعر بالحر! وأنا التي ظننت أن الجو سيصبح باردًا؛ ليتنا لم نَرْتدِ ...» وتوقفت فجأةً، ثم ختمت كلامها بنبرةٍ مختلفةٍ تمامًا: «قمصاننا الصوفية الداخلية.»

استدارت بوبي من أسفل الدَّرَج.

وصاحت قائلةً: «يا إلهي، نعم. إنها حمراء اللون! هيا لنخلعها.»

وخلعتاهما بالفعل، ثم أخذوا يركضون على امتداد القضبان، والقميصان الصوفيان الداخليان مطويَّان تحت ذراعَيهما، وراحوا يدورون حول تلة الأحجار والصخور والتراب والأشجار المنحنية والمحطمة والملوية التي سقطت لتوها. كانوا يَركضون بأقصى سرعة لديهم. كان بيتر في المقدمة، لكن البنتين لم تكونا متأخرتَين عنه كثيرًا. ووصل الثلاثة إلى المنعطف الذي كان يُخفي التلة عن خط السكة الحديدية المستقيم الممتد بطول نصف ميلٍ من دون انحناءٍ أو انعطاف.

قال بيتر وهو ممسكٌ بأكبر القميصَين الصوف الداخليَّين: «الآن.»

قالت فيليس بتلعثم: «إنك لن ... إنك لن تمزقهما، أليس كذلك؟»

قال بيتر بصرامةٍ واختصار: «اصمتي.»

قالت بوبي: «أوه، نعم. اجعلهما مِزَقًا صغيرةً إذا أردت. ألا تفهمين يا فِل، إذا لم نستطع إيقاف القطار، فستقع حادثةٌ حقيقية؛ حادثةٌ توقع قتلى. يا إلهي، هذا مخيف! انظُر يا بيتر، لن تستطيع أبدًا أن تقطعهما من عند الياقة!»

أخذتْ بوبي منه القميص الصوفي الأحمر وقطعتْه من مسافةِ بوصةٍ من الياقة. ثم مزقت القميص الآخر بالطريقة نفسها.

قال بيتر، وهو يُمزِّق القميصَين بدوره: «ها قد انتهيت!» لقد قَسمَ كل قميصٍ إلى ثلاثة أجزاء. وأضاف: «أصبح لدينا الآن ستُّ رايات.» ثم نظر في الساعة مرةً أخرى، وقال: «وأمامنا سبعُ دقائق. لا بد أن يكون لدينا سَوارٍ للرايات.»

نادرًا ما تكون السكاكين التي تُعطى الأولاد، ولسببٍ ما غريبٍ، من النوع الذي يحتفظ معدنه بحدته؛ لذلك اضطُرُّوا إلى كسر الشجيرات الصغيرة بأيديهم. وقد اقتلعوا اثنتَين منها من الجذور، ثم أزالوا الأوراق عنها.

قال بيتر: «يجب أن نصنع ثقوبًا في الرايات، وأن نُدخِل العصيَّ في الثقوب.» وصنعوا الثقوب بالفعل. كانت السكين حادة بما يكفي لقطع الصوف. بعد ذلك نصب الأطفال اثنتَين من الرايات في كومتَين من الحصى بين العوارض التي يمتد فوقها قضيبا القطار القادم من العاصمة. بعد ذلك أمسكت كلٌّ من فيليس وروبيرتا بإحدى الرايات، ووقفتا مستعدَّتَين للتلويح بهما بمجرد أن يظهر القطار.

قال بيتر: «سأمسك أنا الرايتَين الأُخريَين بنفسي؛ لأن التلويح بشيءٍ أحمر اللون كان فكرتي أنا.»

كانت بوبي ستبدأ الشجار فقالت: «لكن القميصَين قميصانا نحن.» لكنَّ بوبي قاطعتها قائلةً:

«يا إلهي، ماذا يهم لو لوَّح أيُّ أحد بأي شيء، إذا كنا نستطيع فقط أن ننقذ القطار؟»

ربما لم يحسب بيتر جيدًا عدد الدقائق التي سيستغرقها قطار الحادية عشرة وتسع وعشرين دقيقة للوصول من المحطة إلى المكان الذي كانوا يقفون فيه، أو ربما القطار هو الذي تأخر. على أي حال، لقد بدت مدةٌ انتظارهم طويلةً جدًّا.

بدأ صبر فيليس يَنفد، فقالت: «أعتقد أن الساعة ليست مضبوطة، وأن القطار قد مرَّ.»

أراح بيتر جسمه من الهيئة البطولية التي كان قد اختار أن يتخذها ليُظهِر عَلَمَيه. وبدأت بوبي تملُّ من الترقُّب.

بدا لها أنهم ظلوا واقفين هناك ساعاتٍ طوالًا، مُمسكين بتلك الرايات الصوفية الحمراء الصغيرة السخيفة التي لن يراها أحدٌ أبدًا؛ وأن القطار لن يكترث لهم؛ وإنما سينطلق مسرعًا بجانبهم وينعطف باندفاعٍ وتهورٍ ليرتطم بتلك التلة الفظيعة؛ وأن جميع من على متنه سيموتون. أصبحت يداها باردتَين جدًّا وراحتا ترتجفان حتى إنها بالكاد كانت تستطيع الإمساك بالعلم. وفي تلك اللحظة جاء صوت زمجرة وطنين القضبان من بعيد، وظهرت نفثةٌ من البخار الأبيض من بعيدٍ جدًّا عبر خط السكة الحديدية.

قال بيتر: «اثبُتا، ولَوِّحا بقوة! وعندما يصل إلى شجيرة الجولق الكبيرة تلك تراجعا، لكن استمرا في التلويح! لا تقفي على القضبان يا بوبي!»

جاء القطار مندفعًا بسرعةٍ كبيرة جدًّا ومقرقعًا أثناء اندفاعه.

صاحت بوبي: «إنهم لا يروننا! إنهم لن يرونا! لا فائدةَ من كل ما نفعله!»

بدأت الرايتان الصغيرتان المثبتتان عند القضبان تتمايلان عندما راح القطار المقترب يهز كومتَي الحصى اللتَين كانتا تنتصبان فوقهما ويخلخلهما. وأخذت واحدةٌ منهما تنحني ببطءٍ حتى سقطتْ على شريط القطار. وهنا قفزت بوبي إلى الأمام والتقطتها، وأخذت تلوح بها؛ ولم تعد يداها ترتعشان الآن.

بدا أن القطار كان قادمًا باتجاههم بأقصى سرعة لديه؛ فلقد اقترب كثيرًا في تلك اللحظة.

قال بيتر بشدة: «ابتعدي عن القضبان، أيتها الغبية الخرقاء!»

قالت بوبي ثانيةً: «لا فائدةَ من هذا.»

صاح بيتر فجأةً: «تراجعي!» وجذب فيليس من ذراعها إلى الوراء.

لكن بوبي صاحت: «ليس بعد، ليس بعد!» وراحت تلوح برايتَيها وهي واقفة على شريط القطار. بدت مقدمة القاطرة سوداء وضخمة. وكان صوتها عاليًا وعنيفًا.

صاحت بوبي: «أوه، توقف، توقف، توقف!» لكنَّ أحدًا لم يسمعها. على الأقل لم يسمعها بيتر ولا فيليس؛ لأن اندفاع القطار المقبل عليهم أخفى صوتها بوابلٍ من صوته. لكنها فيما بعد كانت تتساءل إن كانت القاطرة نفسها لم تسمعها. لقد بدا الأمر تقريبًا وكأنها سمعتها؛ لأنها أخذت تتباطأ سريعًا، أخذت تتباطأ ثم توقفت، على بعد أقل من عشرين ياردة من المكان الذي وقفت فيه بوبي تلوح برايتَيها فوق شريط القطار.

لقد رأت القاطرة السوداء الضخمة وهي تتوقف فجأةً، لكنها بطريقةٍ ما لم تستطع أن تتوقف عن التلويح بالرايتَين. وعندما نزل السائق والوقَّاد من القاطرة وذهب بيتر وفيليس ليقابلاهما ويقصا عليهما في انفعالٍ قصتهما عن التلة الرهيبة الواقعة بالقرب من المنعطف، كانت بوبي لا تزال تلوح بالرايتَين لكن بوهنٍ وارتعاشٍ متزايدَين.

عندما التفت الآخرون إليها وجدوها ممددةً على شريط القطار وقد ألقت بيدَيها إلى الأمام وهما لا تزالان تقبضان بقوةٍ على عصوَي الرايتَين الصوف الحمراوَين الصغيرتَين.

رفعها سائق القطار من على الأرض، وحملها إلى القطار، ثم وضعها على وسائد إحدى عربات الدرجة الأولى.

وقال: «لقد أُغمي على الفتاة المسكينة في الحال؛ ولا عجب. سوف أُلقي نظرةً فقط على هذه التلة التي تتحدثون عنها، ثم سنعود بكم إلى المحطة ونُحضر طبيبًا ليراها.»

أحس الطفلان بالرعب لرؤية بوبي وهي هامدةٌ تمامًا ووجهها شديد الشحوب، وشفتاها زرقاوان ومفتوحتان.

قالت فيليس هامسةً: «أعتقد أن الناس يبدون هكذا عند موتهم.»

قال بيتر محتدًّا: «إياكِ أن تقولي هذا!»

جلس الطفلان إلى جوار بوبي على الوسائد الزرقاء، ومضى القطار عائدًا. وقبل أن يصل إلى محطتهم تنهدت بوبي وفتحت عينَيها، وتحولت عن جنبها الذي كانت عليه وبدأت تبكي. وأبهج ذلك الآخرَين بصورةٍ مذهلة. لقد رأَياها وهي تبكي من قبل، لكنهما لم يرياها قط غائبةً عن الوعي، ولا أيَّ أحدٍ غيرها كذلك. ولم يكن لديهما دراية بما يجب أن يفعلاه أثناء إغمائها، لكن لأنها الآن كانت تبكي وحسب فقد كانا يستطيعان أن يَلْكماها في ظهرها ويطلبا منها أن تكف عن البكاء، تمامًا كما اعتادا أن يفعلا دائمًا. وبعد قليلٍ، عندما توقفت عن البكاء، أصبح بإمكانهما أن يضحكا منها لجبنها الشديد الذي جعلها تفقد الوعي.

عندما وصل القطار إلى المحطة، كان الأطفال الثلاثة أبطالًا احتفى بهم جَمْعٌ جياشٌ فوق رصيف المحطة.

كانت عبارات الثناء التي تلقَّوها على «سرعة تصرفهم» و«حسن تمييزهم» و«براعتهم» كفيلةً بإيقاع أي أحدٍ في الغرور. استمتعَت فيليس بوقتها تمامًا؛ فلم تكن بطلةً حقيقيةً قبل ذلك قط، وكان هذا الإحساس مبهجًا. أما بيتر فقد صبغ الخجلُ أذنَيه بلونٍ أحمر قانٍ؛ لكنه استمتع هو الآخر بوقته. بوبي فقط هي التي تمنت أن لم يفعلوا جميعًا ما فعلوه. وأرادت الابتعاد عن هذا المكان.

قال ناظر المحطة: «أتوقع أن ترسل لكم شركة السكة الحديدية خطابًا بشأن هذا.»

تمنت بوبي ألا تسمع عن الأمر بعد ذلك أبدًا. وأخذت تجذب بيتر من سترته.

وقالت: «أوه، هيا لنذهب، هيا لنذهب! أريد الذهاب إلى المنزل.»

وهكذا انصرفوا. وبينما هم في طريقهم أخذ ناظر المحطة والحمَّال والحراس والسائق والوقَّاد والركاب يُحيُّونهم بالهتاف.

صاحت فيليس: «يا إلهي، اسمعا، هذا الهتاف من أجلنا نحن!»

قال بيتر: «نعم. أنا سعيدٌ لأنني فكرتُ في البحث عن شيءٍ أحمر اللون للتلويح به.»

قالت فيليس: «كم كنا محظوظين عندما ارتدينا قمصاننا الصوف الداخلية الحمراء!»

لم تقل بوبي شيئًا. كانت تفكر في التلة الرهيبة، والقطار الذي كان يندفع مسرعًا باتجاهها في اطمئنان.

قال بيتر: «وكنَّا نحن مَن أنقذهم.»

قالت فيليس: «كم كان سيصبح الأمر مرعبًا لو كانوا جميعًا قد ماتوا! أليس كذلك يا بوبي؟»

قالت بوبي: «لم نحصل على ثمرة كرزٍ واحدةٍ، على كل حال.»

ظنَّ الآخران أنها عديمة المشاعر من دون ريب.

الفصل السابع

تقديرًا للشجاعة

أرجو ألا تجدوا مانعًا في أن أستفيض في الحديث عن روبيرتا. الحقيقة أنني أصبحتُ متعلقةً بها للغاية. إنني كلما لاحظتُها ازددتُ لها حُبًّا. وإني أرى فيها جميع الأشياء التي أُحب.

على سبيل المثال، كانت تحرص حرصًا نادرًا جدًّا على جعل الآخرين سعداء. كما أنها كانت قادرةً على حِفظ الأسرار، وهي مزيةٌ نادرةٌ إلى حدٍّ ما. وكانت تتحلى كذلك بالقدرة على التعاطف في صمت. يبدو هذا مملًّا بعض الشيء، أعرف هذا، لكنه في الحقيقة ليس مملًّا جدًّا كما يبدو. إنه يعني فقط أن تكون لدى شخصٍ ما القدرةُ على الشعور بحزنك، وأن يزداد حُبًّا لك من أجل حزنك هذا، من دون أن يُزعجك بالحديث طوال الوقت عن مدى أسفه عليك. هذا ما كانت عليه بوبي. لقد علمتْ أن أمها كانت حزينةً؛ وأنها لم تُخبرها بسبب حزنها. ومِن ثَمَّ ازدادت فقط حبًّا لأمها، ولم تنطق قط بكلمةٍ واحدةٍ تجعل أمها تعرف مدى تَحيُّرِ ابنتها الصغيرة في سبب حزن أمها. إن هذا يحتاج إلى ممارسة؛ وليس أمرًا شديد السهولة كما قد تتصورون.

مهما حدث من أمرٍ — وقد حدثت جميع أنواع الأمور السارة المبهجة العادية — كالنزهات، والألعاب، وإحضار أقراص الكعك المُحلى من أجل الشاي، فقد ظلتْ هذه الأفكار تُعاود بوبي؛ «أمي حزينة. لماذا؟ لا أدري. وهي لا تريدني أن أدري. لن أحاول اكتشاف السبب. لكنها حزينة. لماذا؟ لا أدري. وهي لا تريدني …» وهكذا، ظلت تتكرر وتتكرر مثل نغمةٍ لا تدرون متى تتوقف.

ظل السيد الروسي مستحوذًا على نصيبٍ كبيرٍ من أفكار الجميع. لقد ردَّ جميعُ محرري الصحف وأمناء سر الجمعيات وأعضاء البرلمان على رسائل أمهم بأدبٍ جم؛ لكنَّ

أحدًا منهم لم يعرف أين عساها أن تكون زوجة وأولاد السيد شيبانسكي. (هل أخبرتكم أن الاسم الروسي الأصيل للسيد الروسي هو ذلك؟)

كانت لبوبي سجيةٌ أخرى سيختلف ما تسمعون من وصفها باختلاف مَن يصفونها. فالبعض يسمونها «تدخلًا في شئون الآخرين»، والبعض يسمونها «مد يد العون للمحتاج»، وبعضهم يسمونها «طِيبة ودودة.» إنما معناها هو فقط السعي إلى مساعدة الناس.

لقد أجهدت بوبي ذهنها في التفكير كيما تهتدي إلى طريقةٍ تساعد بها السيد الروسي في العثور على زوجته وأولاده. لقد تعلم بعض الكلمات الإنجليزية الآن. فأصبح باستطاعته أن يقول «صباح الخير» و«طاب مساؤك» و«لو سمحت» و«شكرًا لك»، و«رائع» وذلك عندما كان الأطفال يحضرون له الأزهار، و«جيدة جدًّا» عندما كانوا يسألونه كيف كانت ليلته.

كانت بوبي تقول إنها تشعر أن الطريقة التي يبتسم بها عندما «ينطق ما تعلَّمَه من الإنجليزية» كانت «جميلةً للغاية». لقد اعتادت أن تتذكر وجهه؛ لأنها كانت تتخيل أنه ربما يقودها إلى طريقةٍ ما تساعده بها. لكنه لم يَقُدها لشيء. لكن وجوده معهم أبهجها لأنها رأت أنه جعل أمها أسعد مما كانت عليه.

قالت بوبي: «إنها تحب أن يكون هناك من تحسن معاملته، حتى إلى جانبنا نحن. أعرف أنها كانت تكره أن تُلبسه ملابس والدي. لكن أظن أن فِعلها كان خيرًا وكان في ذلك تعويض لها رغم صعوبته على نفسها، وإلا لَمَا فعلتْه.»

ظلت بوبي لياليَ عديدةً، بعد ذلك اليوم الذي أنقذتْ فيه القطار من التحطم، هي وبيتر وفيليس، بتلويحهم له براياتهم الصوف الحمراء الصغيرة، ظلَّتْ تستيقظ من نومها صارخةً مرتجفة، حيث كانت تتبدى لها من جديدٍ تلك التلة الرهيبة، والقطار المطمئن المسكين وهو يندفع مسرعًا باتجاهها؛ متوهمًا أنه إنما كان يؤدي مهمته الخفيفة السريعة، وأن كل شيءٍ كان ممهَّدًا ومأمونًا. ثم بعد هذا كانت تسري بجسمها ارتعاشةُ بهجةٍ دافئةٌ عندما تتذكر كيف تمكنت بالفعل هي وبيتر وفيليس والقمصان الصوف الداخلية الحمراء من إنقاذ الجميع.

في صباح أحد الأيام وصلتهم رسالة. كانت مرسَلةً إلى بيتر وبوبي وفيليس. فتح الأطفال الرسالة بفضولٍ غامر؛ لأنهم كانوا لا يتلقَّون رسائل غالبًا.

كانت الرسالة تقول:

سيدي العزيز، سيدتاي العزيزتان

لقد تقرر إقامة حفل تكريم لكم، تخليدًا لذكرى مبادرتِكم الشجاعة إلى تحذير القطار في اليوم ... من الشهر الجاري، ومنعِكم ما كان سيصبح، بالحديث عن أرواح البشر، حادثةً مروعة. سوف يُعقَد الاحتفال في المحطة في الساعة الثالثة من اليوم الثلاثين من الشهر الجاري، إذا كان هذا المكان والتوقيت مناسبَين لكم.

المخلص

جيبيز إنجلوود

سكرتير شركة قطارات

جريت نورثيرن آند ساوذرن ريلواي

لم تمر بالأطفال الثلاثة لحظةٌ في حياتهم شعروا فيها بالفخر أكثر من هذه اللحظة. أسرعوا إلى أمهم بالرسالة، فشعرتْ هي الأخرى بالفخر وقالت مثل ذلك، وقد سعد الأطفال بهذا سعادةً لم يشعروا بها من قبل قط.

قالت أمهم: «لكن لو كان التكريم مالًا، فعليكم أن تقولوا: «شكرًا لكم، لكننا نُفضِّل ألَّا نأخذه».» وأضافت: «سوف أغسل ملابسكم المصنوعة من الموسلين الهندي في الحال. يجب أن تظهروا مهندمين في مناسبةٍ كهذه.»

قالت بوبي: «أستطيع أن أغسل الثياب أنا وفِل، إذا تفضلتِ أنت بكيِّها يا أمي.»

إن غسل الثياب ممتعٌ بعض الشيء. تُرى هل جربتموه من قبل؟ لقد غسلوا هذه الثياب تحديدًا في المطبخ الخلفي، ذي الأرضية الحجرية وكان به حوض حجريٌّ كبير تحت نافذته.

قالت فيليس: «لنضع ماء الغسل في الحوض، ثم يمكننا أن نتظاهر بأننا من النساء اللواتي يغسلن الملابس في الخلاء كاللاتي رأتهن أمي في فرنسا.»

قال بيتر، ويداه في جيبَيه: «لكنهن كُنَّ يغسلن في النهر البارد. وليس في ماءٍ دافئٍ كالذي تغسلين فيه.»

قالت فيليس: «هذا نهرٌ دافئٌ إذن، ساعدني في حمل ماء الغسل، من فضلك.»

قال بيتر: «أتمنى لو كان هناك من يساعدك سواي.» لكنه ساعدها على أي حال.

«والآن إلى الدلك والفرك ثم الفرك والدلك.» هكذا قالت فيليس وهي تتواثب في أرجاء المطبخ بابتهاجٍ بينما كانت بوبي ترفع الغلاية الثقيلة بحذرٍ من فوق شعلة المطبخ.

قالت بوبي وقد صدمها كلام فيليس للغاية: «أوه، لا! لا تفركي قماش الموسلين. إنما تضعين الصابون المغلي في الماء الساخن وترغينه كله؛ ثم تحركين الموسلين وتعصرينه، برفقٍ شديدٍ جدًّا، وبهذا تخرج جميع الأوساخ منه. إن الأشياء الخشنة فقط كأغطية المائدة والملاءات هي التي تُفرَك.»

كانت أزهار الليلك وأزهار جلور دو ديجون تتمايل مع النسيم الرقيق خارج النافذة.

قالت بوبي وهي تشعر بنضجٍ كبير: «إنه يومٌ جيدٌ لتجفيف الملابس؛ هذه واحدة. يا إلهي، أتساءل أي مشاعرَ رائعةٍ سوف نشعر بها يا تُرى عندما نرتدي فساتين الموسلين الهندي!»

قالت فيليس وهي تهز فساتين الموسلين وتعصرها باحترافيةٍ شديدة: «نعم، إني لأتساءل أيضًا عن هذا.»

«والآن نعصر الثياب لنُخرِج منها الماء المغمور بالصابون. لا يجب ألا نَلوِيَها ثم بعد ذلك نشطفها بالماء. سوف أمسكها ريثما تُفرِغي ماء الغسل أنتِ وبيتر وتحضران ماءً نظيفًا.»

«تكريم! هذا يعني هدايا، ترى ما نوعها؟» هكذا تساءل بيتر وأختاه، بعدما غسلتا المشابك ونظَّفتا حبل الغسيل كما ينبغي، وعلقتا الفساتين لتجف.

قالت فيليس: «قد تكون أي شيء، إن ما حلمتُ باقتنائه دومًا هو فيلٌ صغيرٌ لعبة؛ لكنني أظن أنهم لن يعرفوا هذا.»

قالت بوبي: «هل تظنان أن تكون نماذج ذهبية لقاطراتٍ بخارية؟»

قال بيتر: «أو نموذجٌ كبيرٌ لمشهد منع وقوع الحادثة، يكون فيه نموذجٌ مصغرٌ لقطارٍ، ودُمًى تُشبهنا نحن وسائق القاطرة والوقَّاد والرُّكاب.»

قالت بوبي بارتيابٍ وهي تُجفِّف يديها في المِنشفة الخشنة المعلقة على أسطوانةٍ خلف باب حجرة غسل الأواني: «هل تحبان، هل تحبان أن نُكافَأ لأننا أنقذنا قطارًا؟»

قال بيتر بصراحة: «نعم، أحب هذا، ولا تحاولي خداعنا بأنك لا تحبين هذا أيضًا؛ لأنني أعلم أنكِ تحبينه.»

قالت بوبي بارتيابٍ: «نعم، أعلم أنني أحب ذلك. لكن ألا ينبغي لنا أن نكتفي فقط بما عملناه، وألَّا نطالب بأي شيءٍ أكثر منه؟»

قال أخوها: «من الذي طالب بأي شيءٍ أكثر منه، أيتها الحمقاء؟ إن الجنود الذين يحصلون على وسام «صليب فيكتوريا» لا يُطالِبون به؛ لكنهم برغم هذا يسعدون غاية السعادة عندما ينالونه. ربما تكون هدايانا ميداليات. وحينئذٍ، عندما أُصبح عجوزًا جدًّا، سأريها لأحفادي وأقول: «إنما قمنا بواجبنا.» وسيفتخرون بي للغاية.»

نبَّهتْه فيليس قائلةً: «يجب أن تتزوج، وإلَّا فلن يكون لديك أي أحفاد.»

قال بيتر: «أظن أني سأُضطَر لأن أتزوج يومًا ما، لكنَّ وجودها معي طوال الوقت سيكون مزعجًا أيما إزعاج. أود لو أتزوج سيدةً مصابةً بنوبات إغماء، وألا تُفيق منها سوى مرةٍ أو مرتَين في العام.»

قالت بوبي: «فقط لتقول لك إنك نور حياتها، ثم تعود إلى نومها من جديد. أجل. لن يكون هذا سيئًا.»

قالت فيليس: «عندما أتزوج، سأريد من زوجي أن يرغب في أن أظل في وعيي طوال الوقت، لكي أسمعه وهو يقول كم أنا جميلة.»

قالت بوبي: «أظن أنه سيكون جميلًا لو تزوجتِ رجلًا فقيرًا جدًّا، ومِن ثَمَّ تقومين أنتِ بجميع أعمال المنزل ويكون هو مغرمًا بكِ للغاية، ويرى أثناء عودته إلى البيت في كل ليلة دخانَ الخشب الأزرقَ وهو يتصاعد من موقد منزلكم ويلتف بين الأشجار. أرى أنه ينبغي لنا أن نرد على تلك الرسالة ونقول إن الوقت والمكان سيناسباننا. ها هو ذا الصابون يا بيتر. إن كلينا نظيفٌ كما ينبغي أن تكون النظافة. أحضري لنا صندوق أوراق الكتابة الوردي الذي حصلتِ عليه في عيد ميلادكِ يا فِل.»

استغرق الأطفالُ بعضَ الوقت في إعداد ما سيقولونه. لقد عادت أمهم إلى القصص التي تكتبها، وقد أَتلف ثلاثتُهم العديدَ من الأوراق الوردية، ذات الحواف المدورة الذهبية ورسوماتِ نبات النَّفَل الأخضر ذي الأوراق الأربع في أركانها، قبل أن يُقرِّروا ما سيقولون. بعد ذلك نسخ كلٌّ منهم نسخةً من الرسالة ووقَّع تحتها باسمه.

كان نص الرسالة التي تكررت ثلاث مراتٍ كالآتي:

عزيزي السيد جيبيز إنجلوود

شكرًا جزيلًا لك. لم نكن نرغب في أن نُكافأ وإنما أردنا إنقاذ القطار وحسب، لكننا سعداء لأنك تعتقد أننا نستحق التكريم، وشكرًا جزيلًا لك. سيكون الوقت والمكان اللذان حددتهما مناسبَين جدًّا لنا. نشكرك شكرًا جزيلًا.

صديقك الصغير المُحب، ...

بعد ذلك كُتب الاسم، وبعده:

ملحوظة: شكرًا جزيلًا لك.

قالت بوبي وهي تأخذ الفساتين النظيفة الجافة من على الحبل: «إن غسل الملابس أسهل بكثيرٍ من كيِّها. أُحب رؤية الأشياء عندما تُصبح نظيفة. يا إلهي؛ لا أدري كيف سنصبر حتى يحين الوقتُ لنعلم نوع التكريم الذي سيُقدمونه!»

عندما أتى اليوم أخيرًا، والذي بدا أنه أتى بعد مدةٍ طويلةٍ جدًّا، توجه الأطفال الثلاثة إلى المحطة في الوقت المحدد. وكان كل ما جرى في شدة الغرابة لدرجة أنه بدا لهم كحلم. لقد خرج ناظر المحطة لاستقبالهم — وكان يرتدي أجمل ثيابه، كما لاحظ بيتر في الحال — وقادهم إلى غرفة الانتظار التي لعبوا فيها لعبة الإعلانات ذات مرة. لكنها بدَت مختلفةً تمامًا هذه المرة؛ فقد فُرش فيها سجادة — ووُضِعتْ أُصُصُ الزهور على رف المدفأة وأفاريز النوافذ — وكانت الفروع الخُضر تنتصبُ، كما تنتصب فروع الآس البري وفروع شجرة الغار في عيد الميلاد، فوق ملصقات الإعلانات المؤطرة لشركة كوكس تورز السياحية وشركة بيوتيز أوف ديفون وشركة قطارات باريس ليونز ريلواي. كان هناك عددٌ كبيرٌ من الناس غير الحمَّال — سيدتان أو ثلاث يرتدين فساتين أنيقة، وحشدٌ غفيرٌ من السادة يرتدون قبعاتٍ عاليةٍ ومعاطف — إضافةً إلى جميع من يعملون بالمحطة. وقد تعرف الأطفالُ على العديد من الناس الذين كانوا في القطار يوم القمصان الداخلية الصوف الحمراء. وكان أفضل ما في الأمر أن السيد العجوز صاحبهم كان موجودًا، وبدا معطفه وقبعته وياقته مختلفين كلَّ الاختلاف عن معاطف وقبعات وياقات الآخرين جميعًا. صافحهم السيد العجوز ثم بعد ذلك جلس الجميع في مقاعدهم، وبدأ رجل

محترم ذو نظارةٍ — اكتشفوا فيما بعد أنه رئيس المقاطعة — يلقي خطابًا طويلًا جدًّا؛ وكان خطابًا شديد الذكاء في الواقع. لكنني لن أكتب الخطاب هنا. أولًا: لأنكم ربما ترونه مملًّا؛ وثانيًا: لأنه جعل وجوه الأطفال جميعًا تصطبغ بحمرة شديدة من شدة الخجل، كما جعل ذلك الخجل يبث حرارته في آذانهم أيضًا مما زاد في حرصي على تجنب هذا الجزء من الموضوع؛ وثالثًا: لأن السيد المحترم احتاج للكثير جدًّا من الكلمات لقول ما أرادَ قولَه؛ حتى إنني بالفعل لا أجد الوقت لكتابتها كلها. لقد قال جميع أنواع عبارات الثناء على شجاعة الأطفال وحضور أذهانهم، وعندما انتهى من حديثه جلس، وراح الحاضرون جميعًا يصفقون ويقولون: «مرحى، مرحى.»

بعد ذلك قام السيد العجوز وقال بعض الكلمات هو الآخر. لقد كان الأمر شبيهًا جدًّا باحتفالات تسليم الجوائز التي تُقام في المدارس. بعد هذا أخذ يدعو الأطفال بأسمائهم واحدًا واحدًا، وأعطى كلًّا منهم ساعةً ذهبيةً جميلةً وسلسلةً. وبداخل كل ساعة نُقِش بعد اسم صاحبها الجديد:

> من مديري شركة قطارات جريت نورثيرن آند ساوذرن ريلواي امتنانًا وتقديرًا للشجاعة وسرعة التصرف التي منعت وقوع حادثة يوم ... سنة ١٩٠٥.

كانت الساعات من أجمل ما يمكنكم أن تتصوروا، وكان لكل واحدةٍ علبةٌ جلديةٌ زرقاء تُوضَع فيها عندما تكون في المنزل.

«يجب أن تُلقي خطابًا الآن وتشكر الجميع على فضلهم.» بهذه الكلمات همس ناظر المحطة في أُذن بيتر ثم دفعه للأمام مُضيفًا: «ابدأ بـ «سيداتي وسادتي».»

كان كل واحدٍ من الأطفال قد قدَّم بالفعل عبارات الشكر كما ينبغي تمامًا.

قال بيتر متفاجئًا: «يا إلهي»، لكنه لم يقاوم الدفعة التي دفعه إياه ناظر المحطة.

وقال بصوتٍ مبحوحٍ بعض الشيء: «سيداتي وسادتي»، ثم توقف قليلًا، وسمع دقات قلبه وقد بلغ صوتُها حلقه؛ ثم واصل باندفاعٍ: «سيداتي وسادتي، إنه لكرمٌ بالغٌ منكم، وسوف نحتفظ بالساعات طيلةَ حياتنا؛ لكننا في الحقيقة لا نستحقها لأن ما فعلناه ليس بشيءٍ، صدقوني. أقصد لقد كان مثيرًا للغاية، وما أريد قولُه هو ... شكرًا لكم جميعًا، شكرًا جزيلًا.»

صفق الناس لبيتر أكثر مما صفقوا لرئيس المقاطعة، وبعدها صافح الحاضرون جميعًا الأطفال الثلاثة، وحالما سمحَتْ لهم حدودُ اللياقة غادروا، وانطلقوا يَنهبون التلة ركضًا صاعدين إلى المنزل ذي المداخن الثلاث وساعاتهم بأيديهم.

كان يومًا رائعًا؛ من تلك الأيام التي نادرًا جدًّا ما تحدث لأي أحدٍ، ولا تحدث لمعظمنا أبدًا.

قالت بوبي: «كنتُ أرغب بشدةٍ في الحديث إلى السيد العجوز عن أمرٍ آخر، لكنَّ الناس كانوا كثيرين جدًّا؛ وكأننا كنا في كنيسة في يوم الأحد.»

سألتها فيليس: «ما الذي رغبتِ في قوله؟»

قالت بوبي: «سأخبركِ بعدما أُفكر فيه أكثر.»

وهكذا، وبعدما زادت الأمر قليلًا من التفكير، كتبتْ رسالة.

كانت الرسالة تقول:

> عزيزي السيد العجوز، أرغب بشدةٍ في طلبِ شيءٍ منك. لو استطعتَ النزول من القطار والذهاب بالقطار الذي يليه، فسيكون هذا جيدًا. لا أريدك أن تعطيني أي شيء. لقد قالت أمي إنه ينبغي لنا ألا نفعل هذا. وإضافةً إلى هذا، فإننا لسنا بحاجة إلى أيِّ شيء. إنما أريد فقط أن أُحدِّثك عن سجينٍ وأسير.
>
> صديقتك الصغيرة المُحبة
>
> بوبي

أقنعتْ بوبي ناظر المحطة بإعطاء الرسالة للسيد العجوز، وفي اليوم التالي طلبتْ من بيتر وفيليس أن يذهبا معها إلى المحطة وقتَ مرور القطار الذي سيأتي فيه السيد العجوز من المدينة.

لقد شرحتْ لهما فكرتها؛ وقد وافقا عليها تمامًا.

غسل الثلاثة جميعُهم أيديهم ووجوههم، وصففوا شعورهم، وأصلحوا من هندامهم بقدر ما استطاعوا. لكنَّ فيليس، سيئةَ الحظ دائمًا، سكبتْ دورقًا من عصير الليمون على فستانها من الأمام. لم يكن أمامها متسعٌ من الوقت لتغير ملابسها؛ وتصادف أن هبَّت الريح من مخزن الفحم، فاكتسى فستانُها في الحال بالرماد، الذي التصق ببقع عصير الليمون الدبقة، وجعل فيليس تبدو، كما قال بيتر: «كأيِّ طفلةٍ صغيرةٍ متشردة.»

وقرروا أن تبقى وراء الآخرَين قدر الإمكان.

قالت بوبي: «ربما لن يلاحظ السيدُ العجوز. إن أبصار كبار السن ضعيفة غالبًا.»

لكن لم يكن ثمة ما يدل على وجود ضعف في عينَي السيد العجوز ولا في أي جزءٍ آخر منه عندما نزل من القطار وراح يُقلب عينَيه في أرجاء رصيف المحطة.

شعر الأطفال الثلاثة، بعد أن بلغ الأمر ذروته في تلك اللحظة شعروا فجأةً، بتلك الهجمة التي يشنها الخجل الشديد عليكم فيرفع حرارة آذانكم ويصبغها باللون الأحمر، ويجعل أياديَكم دافئةً مبتلةً، وأطرافَ أنوفكم ورديةً متوهجة.

قالت فيليس: «يا إلهي، إن قلبي يخفق بقوةٍ وكأنه محركٌ بخاريٌّ؛ وتحت حزامي مباشرةً كذلك.»

قال بيتر: «هذا هراء. إن قلوب الناس ليست تحت أحزمتهم.»

قالت فيليس: «لا يهمني. إن قلبي أنا تحت حزامي.»

قال بيتر: «لو كنتِ ستتكلمين مثلما تتكلم كتبُ الشعر، فإن قلبي أنا سيقفز من فمي.»

قالت روبيرتا: «أما أنا فقد وقع قلبي في حذائي من القلق، لكن دعكما من هذا؛ سوف يظن السيد العجوز أننا حمقى.»

قال بيتر باغتمام: «لو ظن ذلك فلن يكون قد ابتعد كثيرًا عن الصواب.» ومضوا لمقابلة السيد العجوز.

قال الرجل وهو يصافحهم جميعًا واحدًا بعد الآخر: «مرحبًا، سُرِرتُ للغاية بمقابلتكم.»

قالت بوبي بأدبٍ والعرق يرشح من وجهها: «لقد كان لُطفًا منك أنْ خرجتَ لمقابلتنا.»

أمسك السيد العجوز بذراعها وجذبها برفقٍ إلى حجرة الانتظار التي كانت تلعب فيها هي والآخران لعبة الإعلانات في ذلك اليوم الذي عثروا فيه على الرجل الروسي. وتبعهما بيتر وفيليس. قال السيد العجوز وهو يهز ذراع بوبي برفقٍ ووُدٍّ قبل أن يتركه: «حسنٌ! أخبريني، ما الأمر؟»

قالت بوبي: «يا إلهي، لو سمحت!»

قال السيد العجوز: «نعم؟»

قالت بوبي: «أقصد أن أقول ...»

قال السيد العجوز: «ماذا؟»

قالت: «إن الأمر كله جميلٌ وخيرٌ للغاية.»

قال: «لكن؟»

قالت: «أرجو أن تسمح لي بقول شيءٍ ما.»

قال: «قوليه.»

قالت بوبي: «حسنٌ إذن.» ثم مضتْ تقص عليه قصة الرجل الروسي الذي ألف ذلك الكتاب الجميل عن الفقراء، فزُجَّ به في السجن ثم أُرسِل إلى سيبيريا فقط من أجل هذا.

قالت بوبي: «وما نريده أكثر من أي شيءٍ آخر هو أن نعثر له على زوجته وأولاده، لكننا لا نعرف كيف. لكن لا بد أنك ذكيٌّ لأبعد الحدود، وإلا لما صرتَ مُديرًا للسكة الحديدية. ولو كنتَ تعرف كيف تعثر عليهما؛ فهل ستفعل؟ إننا نود أن نحصل منك على هذا أكثر من أيِّ شيءٍ آخر. إننا مستعدون حتى للاستغناء عن الساعات، إذا كان بإمكانك أن تبيعها وتستخدم المال في العثور على زوجته.»

وقال الآخران مثل ذلك أيضًا، وإن لم يكن بحماستها الكبيرة نفسها.

قال السيد العجوز وهو يجذب صُدرته البيضاء ذات الأزرار الذهبية الكبيرة إلى الأسفل: «اممم، ما الاسم الذي قُلتِه؛ فرينجبانسكي؟»

قالت بوبي بنبرةٍ جادة: «لا، لا، سأكتبه لك. إنه في الحقيقة لا يبدو كذلك أبدًا إلا عندما تنطقه.» وسألته قائلةً: «هل معك قلمُ رصاصٍ ومظروفٌ أكتب على ظهره؟»

أخرج السيد العجوز من جيبه علبة أقلام رصاصٍ ذهبيةً، ومُفكرةً روسيةً جميلةً، طيبة الرائحة، لها غلافٌ من جلدٍ أخضر وفتحها على صفحةٍ جديدة.

وقال: «تفضلي، اكتبيه هنا.»

كتبت بوبي حروفَ الاسم وقالت:

«هكذا يُكتب. لكنه يُنطق «شيبانسكي».»

أخرج السيد العجوز نظارةً ذهبيةَ الحواف ووضعها على أنفه. وعندما قرأ الاسم، بدا على وجهه تغيرٌ كبير.

وقال: «ذلك الرجل؟ يا للعجب! يا إلهي، لقد قرأتُ كتابه! لقد تُرجم إلى جميع اللغات الأوروبية. إنه كتابٌ جيد؛ كتابٌ ممتاز. وهكذا آوتْه أمكم في منزلكم؛ كما فعل السامري الصالح. حسنٌ، حسنٌ. اسمعوني أيها الأطفال؛ لا بد أن أمكم امرأةٌ في غاية الطيبة.»

قالت فيليس باندهاش: «إنها كذلك بالطبع.»

قالت بوبي بحياءٍ بالغ، لكن بإصرارٍ كبيرٍ على التحلي بالأدب: «وأنتَ أيضًا رجلٌ طيب جدًّا.»

قال السيد العجوز وهو يخلع قبعته بحركة مسرحية: «هذا ثناءٌ لا أستحقه. والآن هل تسمحين لي أن أخبركِ برأيي فيكِ؟»

أسرعت بوبي بقولها: «أوه، أرجوك لا تفعل.»

سألها السيد العجوز: «ولِمَ؟»

قالت بوبي: «لا أدري لماذا بالضبط. فقط؛ لو كان سيئًا، فلا أُحب أن تقوله؛ ولو كان جميلًا، فسأُفضل ألا تقوله.»

أخذ السيد العجوز يضحك.

وقال: «حسنٌ إذن. سوف أقول فقط إنني سعيدٌ جدًّا لأنكِ لجأتِ إليَّ في هذا الأمر؛ إنني سعيدٌ للغاية في الحقيقة. ولن أتفاجأ لو اكتشفتُ شيئًا ما قريبًا جدًّا. إنني أعرف الكثيرين جدًّا من الرُّوس في لندن، وكلُّ روسيٍّ يعرف اسم هذا الرجل. والآن أخبروني كلَّ شيءٍ عنكم أنتم.»

والتفتَ إلى الآخرَين، لكن لم يكن هناك سوى واحدٍ منهما فقط، وهو بيتر. فقد اختفت فيليس.

قال السيد العجوز مرةً أخرى: «أخبرني بكل شيءٍ عن نفسك.» لكنَّ بيتر بالطبع لم ينطق من شدة الذهول.

قال السيد العجوز: «حسنٌ، سنُجري امتحانًا. اجلسا أنتما الاثنان على المنضدة، وسأجلس أنا على المقعد وأُوجِّه لكما أسئلة.»

أجرى السيد العجوز الامتحان، فعرف أسماءهم وأعمارهم؛ واسم أبيهم ومهنته؛ ومنذ متى وهم يعيشون في المنزل ذي الثلاث المداخن والكثير من الأشياء الأخرى.

كانت الأسئلة على وشك التحول إلى مسائل من نوع «اشترى فلانٌ سمكةً ونصفَ سمكةٍ من سمك الرنجة بثلاث قطع نقديةٍ من فئة نصف البنس ...» و«إذا كان لدينا رطلٌ من الرصاص ورطلٌ من الريش ...» لكنَّ باب حجرة الانتظار انفتح على إثر ركلةٍ من حذاءٍ عالي الساق؛ وعندما دخل الحذاء إلى الحجرة رأى الجميع أن رباطه كان قد أوشك على أن ينفكَّ؛ ودخلتْ فيليس إلى الغرفة ببطءٍ وحرصٍ شديدَين.

كانت تحمل في إحدى يدَيها علبةً قصديرية كبيرة، وفي الأخرى شريحةً سميكةً من الخبز والزبد.

«شاي بعد الظهيرة.» هكذا قالتْ مُعلنةً في فخرٍ، وناولت العلبة والخبز والزبد السيد العجوز، الذي أخذها وقال:

«يا إلهي!»

قالت فيليس: «نعم.»

قال السيد العجوز: «هذا لطفٌ كبيرٌ منكِ، لطفٌ كبير.»

قالت بوبي: «لكن كان يجدر بكِ أن تُحضري فنجانًا وطبقًا.»

قالت فيليس، وقد احمرَّ وجهها خجلًا: «إن بيركس يشرب دائمًا من العلبة.» وأضافت: «أظن أنه لطفٌ كبيرٌ منه أن يعطيني إياها من الأساس؛ فما بالُكِ بالفناجين والأطباق؟»

قال السيد العجوز: «وأنا أيضًا أشرب منها.» وارتشف رشفاتٍ من الشاي وتذوق الخبز والزبد.

بعد ذلك حان وقتُ قدوم القطار التالي، ودخله السيد العجوز وهم يُشيِّعونه بالكثير من كلمات الوداع الطيبة.

قال بيتر بعدما أصبحوا بمفردهم على رصيف المحطة، وبعدما توارت أنوار القطار الخلفية وراء المنعطف: «حسنٌ، أعتقد أننا أشعلنا شمعةً اليوم — مثلما فعل الأُسقُف لاتيمَر، تعرفان ذلك، عندما أُحرق — وسنحتفل بضيفنا الروسي قريبًا.»

وهذا ما حدث بالفعل.

لم تمر عشَرةُ أيامٍ على المقابلة التي جرَت في حجرة الانتظار حتى جلس الأطفال الثلاثة على قمة أضخم صخرةٍ في المرج أسفل منزلهم يشاهدون قطار الخامسة وخمس عشرة دقيقة وهو يغادر المحطة وينطلق مطلقًا الدخان على امتداد السطح السفلي من الوادي. ورأوا كذلك تلك القلة من الناس الذين خرجوا من المحطة وراحوا يسيرون متفرقين على الطريق باتجاه القرية؛ ورأوا شخصًا يغادر الطريق ويفتح البوابة التي يسلك من خلالها السائرُ عبرَ الحقول إلى المنزل ذي المداخن الثلاث؛ وليس إلى أيِّ مكانٍ سواه.

قال بيتر وهو يزحف نازلًا عن الصخرة: «من عساه يكون هذا؟!»

قالت فيليس: «لنذهب ونرَ.»

وهكذا فعلوا. وعندما اقتربوا بما يكفي ليروا مَن كان ذلك الشخص، وجدوا أنه كان صاحبهم السيد العجوز نفسه، كانت أزرار ثيابه النحاسيةُ تتلألأ في ضوء شمس الأصيل، وبدتْ صُدرته البيضاءُ وسط خُضرةِ المرج أنصعَ بياضًا منها في أيِّ وقتٍ مضى.

صاح الأطفال ملوحين بأيديهم: «مرحبًا!»

وصاح السيد العجوز ملوحًا بقبعته: «مرحبًا!»

ثم انطلق الثلاثة يركضون، وحين وصلوا إليه كانت أنفاسهم منقطعة واستطاعوا بالكاد أن يقولوا:

«كيف حالُك؟»

قال: «أخبارٌ جيدة. لقد عثرتُ على زوجة صاحبكم الروسي وابنه؛ ولا أستطيع كبح رغبتي في إخباره.»

لكنه عندما نظر إلى وجه بوبي أحس أن بإمكانه كبْحَ تلك الرغبة.

قال لها: «تفضلي، أسرعي أنتِ وأخبريه. وسيُرينِي أخواك الآخران الطريق.»

انطلقتْ بوبي مسرعةً. لكنها عندما ألقت الخبرَ بأنفاسٍ متقطعةٍ على أمها والرجل الروسي الجالسَين في هدوء الحديقة — وعندما أشرق وجهُ أمها إشراقًا فائق الجمال، وقالت للرجل المنفي بعض الكلمات الفرنسية المتلاحقة — تمنت بوبي لو لم تكن نقلت إليهما الخبر. فقد نهض الروسي فجأةً من كرسيِّه وصاح صيحةً جعلت قلب بوبي يثب من مكانه ويرتجف؛ صيحةَ حبٍّ وشوقٍ لم تسمع مثلها قط. بعد ذلك أمسك يد أمها ووضع عليها قبلةً في رفقٍ واحترام؛ ثم ارتمى على كرسيه وغطى وجهه بيديه وراح ينشج بالبكاء. وهنا انسلَّتْ بوبي من أمامهما خفيةً. ولم تُرِد أن ترى الآخرين في تلك اللحظة.

لكنها كانت مبتهجةً كالجميع عندما انتهت المحادثةُ الفرنسية الطويلة، وعندما انطلق بيتر يقطع شوارع القرية لإحضار الكعك المحلى والفطائر، وجهزت الفتاتان الشاي وأخذتاه إلى الحديقة.

كان السيد العجوز في منتهى السعادة والبهجة. وبدا أنه كان يجيد الحديث بالإنجليزية والفرنسية في اللحظة نفسها تقريبًا، وكانت أمهم تفعل الشيء نفسه تقريبًا. لقد كان وقتًا مبهجًا. بدا كذلك أن أمهم لم تستطع أن تولي للسيد العجوز الاهتمام الكافي، ووافقتْ في الحال عندما استأذنها في أن يُقدم بعض الـ «أطايب» لأصدقائه الصغار.

كانت الكلمة جديدة على الأطفال؛ لكنهم خمنوا أنها تعني الحلوى؛ لأن العلب الثلاث الكبيرة الملونة بالأخضر والوردي، والمربوطة بأشرطة خضراء، التي أخرجها من حقيبته، كان بها طبقاتٌ من الشوكولاتة الجميلة التي لم يسبق لهم أن رأوها من قبل.

حُزمت أمتعة الرجل الروسي القليلة، ورافقوه جميعهم إلى المحطة وودَّعوه هناك.

بعد ذلك التفتت الأم إلى السيد العجوز وقالت:

«لا أدري كيف أشكرك على كل ما فعلتَه. لقد سعدتُ حقًّا برؤيتك. لكننا نحيا حياةً هادئةً للغاية؛ وأنا في غاية الأسف لأنني لا أستطيع دعوتك لزيارتنا مرةً أخرى.»

اعتقد الأطفال أن هذا في غاية القسوة. فحين كانوا يحصلون على صديق، وصديقٍ مخلصٍ جدًّا، كانوا يودون من صميم قلوبهم أن يأتي لزيارتهم مرةً أخرى.

أما ما دار بخاطر السيد العجوز فلم يعرفوه؛ فلم يزد على أن قال:

«إنني أعد نفسي محظوظًا للغاية يا سيدتي لأنكِ استقبلتِني مرةً في بيتك.»

قالت الأم: «يا إلهي، أعرف أنني أبدو فظةً وناكرةً للجميل بالتأكيد ... لكن ...»

قال السيد العجوز وهو ينحني انحناءةً أخرى من انحناءاته المهذبة: «لا يمكن أبدًا أن تَبدي بأي صورةٍ سوى أن تكوني أجمل وأرق سيدة.»

وعندما استداروا ليصعدوا التلة، رأتْ بوبي وجه أمها.

فقالت: «كم تبدين متعبةً يا أمي، استندي عليَّ.»

قال بيتر: «إن من واجبي أنا أن أُعين أمي؛ فأنا رَجل الأسرة في غياب والدي.»

استندتْ أمهما على كلٍّ منهما.

قالت فيليس وهي تتواثب في ابتهاج: «كم هو جميلٌ للغاية أن أتخيل الروسي العزيز وهو يعانق زوجته التي لم يرها منذ مدةٍ طويلة. لا بد أن الرضيع قد كبر كثيرًا مُنذ أن رآه.»

قالت أمها: «نعم.»

تابعت فيليس وهي تتواثب بمزيد من الابتهاج: «تُرى هل سيعتقد أبي أنني قد كبرت. لقد كبرتُ بالفعل، أليس كذلك يا أمي؟»

قالت أمها: «نعم، أوه، نعم.» وأحست بوبي وبيتر بيدَيها تقبضان بشدةٍ أكثر على ذراعَيهما.

قال بيتر: «كم أنتِ مسكينة يا أمي، إنكِ مُتعَبةٌ بحق.»

قالت بوبي: «تعالي يا فِل؛ سوف أُسابقكِ إلى البوابة.»

وبدأت السباق، رغم أنها لم تكن تحب أن تفعل هذا. إنكم تعرفون لِمَ فعلَت بوبي ذلك. لقد حسبَتْ أمها أنها إنما ملَّتْ من المشي ببطء. حتى الأمهات، اللاتي يُحبِبنكم أكثر من أي شخصٍ آخر، قد لا يفهمنكم أحيانًا.

الفصل الثامن

الوقَّادون الهواة

قال بيركس الحمَّال: «جميلٌ هذا البروش الصغير الذي ترتدينه يا آنستي. لا أعلم فيما رأيتُ شيئًا أشبه منه بزهرة الحَوْذان من دون أن يكون زهرةَ الحوذان نفسَها.»

قالت بوبي وقد شعرت بالسعادة والخجل من استحسانه هذا: «نعم، لطالما اعتقدتُ أنه يكاد يكون أشبه بزهرة الحوذان حتى من زهرة حوذانٍ حقيقية — وما تخيلتُ قط أن يُصبِح لي، لي أنا — ثم أهدتني أمي إياه في عيد ميلادي.»

«أوه، هل احتفلتِ بعيد ميلادك؟» هكذا سألها بيركس وقد بدَت عليه علامات اندهاشٍ شديد، وكأن الاحتفال بعيد الميلاد شيء لا ينالُه إلا قلةٌ مُختارة.

قالت بوبي: «نعم، ومتى عيدُ ميلادكَ أنت يا سيد بيركس؟» كان الأطفال يحتسون الشاي مع السيد بيركس في غرفة الحمَّالين وسط المصابيح وروزنامات السكة الحديدية. كانوا قد أحضروا معهم فناجينهم الخاصة وبعض فطائر المربى المطوية. أعد السيد بيركس الشاي في علبة جِعَة كالمعتاد، وشعر الجميع بسعادة غامرةٍ واطمئنانٍ كبير.

قال بيركس وهو يصب من العلبة مزيدًا من الشاي البني الغامق في فنجان بيتر: «عيد ميلادي؟ لقد تركتُ الاعتناء بعيد ميلادي من قبل أن تُولَدوا.»

قالت فيليس باهتمام: «لكن لا بد أن تكون قد وُلِدتَ في يومٍ ما، أليس كذلك؟ حتى إن كان منذ عشرين سنة؛ أو ثلاثين أو ستين أو سبعين.»

أجابها بيركس مبتسمًا ابتسامةً عريضة: «ليس منذ وقتٍ طويلٍ هكذا أيتها الفتاة. إذا كنتِ حقًّا تودين أن تعلمي، فقد كان هذا منذ اثنتَين وثلاثين سنة، وسيحين في الخامس عشر من هذا الشهر.»

سألته فيليس: «ولماذا لا تعتني به إذن؟»

قال بيركس باختصار: «لديَّ شيءٌ آخر لأعتني به إضافةً إلى أعياد الميلاد.»

سألته فيليس بإلحاح: «أوه، وما هو؟ لا أسرار بيننا، أليس كذلك؟»

قال بيركس: «بلى، إنهم العيال وامرأتي.»

كان هذا الحوار هو ما دفع الأطفال إلى التفكير، ثم بعد وقتٍ قليلٍ دفعهم إلى الكلام. لقد كان بيركس، بصفةٍ عامة، أقرب صديقٍ إلى قلوبهم. لم يكن رفيع المقام كناظر المحطة، لكنه كان سهل الجانب أكثر منه؛ ولم يكن ذا نفوذٍ مثل السيد العجوز، لكنهم كانوا يأتمنونه على أمورٍ أكثر خصوصيةً مما يأتمنون السيد العجوز عليه.

قالت بوبي: «يبدو لي فظيعًا ألَّا يهتم أحدٌ بعيد ميلاده. ألا يمكننا عمل شيءٍ ما؟»

قال بيتر: «هيا نذهب إلى جسر قناة الماء ونناقش الأمر باستفاضةٍ هناك. لقد حصلتُ على حبل صيدٍ جديدٍ من ساعي البريد هذا الصباح. لقد أعطانيه في مقابل باقة من الزهور أعطيته إياها ليهديها لزوجته. إنها مريضة.»

قالت بوبي في غضب: «أعتقد إذن أنه كان يجدر بك أن تعطيها الورود من دون مقابل.»

قال بيتر بفظاظة: «نعم، نعم، أعرف!» ووضع يدَيه في جيبَيه.

أسرعت فيليس قائلةً: «لقد فعل هذا بالطبع. إننا ما إنْ سمعنا بمرضها حتى أعددنا الورود وانتظرنا أمام البوابة. كان هذا عندما كنتِ تُعِدين الخبز المحمص من أجل الإفطار. وبعدما شكرَنا على الورود كثيرًا جدًّا — أكثر بكثيرٍ مما كان عليه أن يفعل — أخرج الحبل وأعطاه لبيتر. لم تكن مقايضة؛ كان عرفانًا منه بالجميل.»

قالت بوبي: «يا إلهي. معذرة يا بيتر. أنا آسفة جدًّا.»

قال بيتر بتعالٍ: «لا عليكِ. كنتُ أعرف أنكِ ستعتذرين.»

وهكذا ذهبوا جميعًا إلى جسر قناة الماء. كانت الفكرة أن يصطادوا من فوق الجسر، لكنَّ الحبل لمْ يكن طويلًا بما يكفي.

قالت بوبي: «لا عليكما. تعاليا نقف هنا وحسب ونشاهد الأشياء. كل شيءٍ جميلٌ للغاية.»

كان كل شيءٍ جميلًا فعلًا. كانت الشمس تغرب وضوءُها الأحمر الساطع مُرْخًى فوق التلال الرمادية والأرجوانية، وكانت قناة الماء تنسابُ لامعةً تحت الظلال؛ ولم يكسر انسيابَ سطحها مويجةٌ واحدة. كانت كشريطِ ساتان أشهب ممدودٍ بين المروج الحريرية الخضراء الداكنة الممتدة على ضفتَيها.

قال بيتر: «حسنٌ، لكنني — بشكل أو بآخر — دائمًا ما أستطيع أن أرى جمال الأشياء أكثر بكثير عندما يكون لديَّ شيءٌ أفعله. لننزل إلى الممر الموازي للقناة ونصطَد من هناك.»

تذكرَت فيليس وبوبي كيف رماهم الصِّبية الذين كانوا في قوارب القناة بالفحم، وقالتا ذلك.

قال بيتر: «أوه، هذا هراء. لا يوجد أي صبية هنا الآن. ولو وجدناهم، فسأتشاجر معهم.»

كانت أُختا بيتر طيبتَين بما يكفي بحيث لم تُذكِّراه بأنه لمْ يتشاجر مع الصبية في آخر مرة عندما ظلوا يقذفونهم بالفحم. وإنما قالتا: «حسنٌ إذن.» ونزلوا بحذرٍ على الضفة المنحدرة باتجاه الممر الموازي للقناة. وضع الأطفال الطُّعم بعنايةٍ في حبل الصيد، وظلوا يحاولون الصيد في صبرٍ طيلةَ نصف ساعةٍ ولكن دون جدوى. لم يُقضم الطُّعمُ قضمةً واحدةً تُنعِشُ الأمل في قلوبهم.

كانت جميع العيون مركزةً على المياه البطيئة الحركة التي ظلَّتْ تتظاهر في عزمٍ بأنها لمْ تُئوِ في أحشائها سمكة واحدة، وفي ذلك الحين انطلقتْ صيحةٌ عنيفةٌ عاليةٌ جعلتْهم يثبون فزَعًا.

قال الصوتُ الصائح بنبرة بغيضة إلى أبعد الحدود: «أنتم! اخرُجوا من هنا، ألا تستطيعون؟»

كان ثمة حصانٌ عجوزٌ أبيض قادمٌ على الممر على مسافة ست ياردات منهم. نهض الأطفال على أقدامهم وأسرعوا يتسلقون ضفة القناة.

قالت بوبي: «سننزل مرةً أخرى عندما يمرون.»

لكن، وا أسفاه، فإن القارب، وعلى عادة القوارب الأخرى، توقف تحت الجسر.

قال بيتر: «سوف يلقون المرساة لتثبيت القارب، يا لحظنا العاثر!»

لكنْ لم يُلقِ أحدٌ مرساةً من القارب؛ لأن المرساةَ ليستْ جزءًا من مُعدات قوارب قنوات الماء، وإنما رُبِط بالحبال من مقدمته ومؤخرته إلى الشاطئ؛ ورُبطت الحبالُ سريعًا في الأوتاد والعتلات المثبتة في الأرض.

زمجر الملاح في غضب: «فيمَ تُحدقون؟»

قالت بوبي: «لم نكن نُحدق، لسنا بهذه الوقاحة.»

قال الرجل: «لا يهمني إن كنتم وقحين أم لا. انصرفوا من هنا!»

قال بيتر: «انصرف أنت من هنا.» لقد تذكر ما قاله بشأن العِراك مع الصبية، كما أنه أحس بالأمان وهو في منتصف المسافة بين أسفل الضفة وأعلاها. وأضاف: «إن لنا الحق في الوقوف هنا مثل أي أحدٍ آخر.»

قال الرجل: «أوه، ألكم الحق في الوقوف هنا، حقًّا! سنكتشف ذلك في الحال.» وخطا على متن القارب ثم بدأ ينزل من على جانبه.

قالت بوبي وفيليس بصوتٍ مُتألمٍ واحد: «يا إلهي، هيًّا يا بيتر، هيا!»

قال بيتر: «لن أنصرف، لكن يحسن بكما أنتما أن تنصرفا.»

صعدت البنتان إلى أعلى الضفة ووقفتا مستعدتَين للفرار سريعًا إلى المنزل حالما تريان أخاهما وقد ابتعد عن الخطر. كان الطريق إلى المنزل يمتد كله أسفل التلة. كانوا يعرفون أنهم جميعًا يحسنون الجري. ولم يبدُ أن الملاح كان يحسنه. لقد كان متوهج الوجه بدينًا ثقيلَ الوزن.

لكن ما إن لامستْ قدمه الممر حتى أدرك الأطفال أنهم أساءوا الحكم عليه.

لقد قفز قفزةً واحدةً إلى أعلى الضفة فأمسك بيتر من رجله، وسحبه إلى الأسفل، وأجلسه على قدمَيه وهو يهزه، ثم أمسكه من أُذنه، وقال في صرامة:

«والآن إذن، ماذا تقصد من وراء ما تفعله؟ ألا تعلم أنه يُحظَر على العامة الصيد من مياه هذه القناة؟ لا يحق لك صيد السمك من هنا؛ هذا فضلًا عن وقاحتك اللعينة.»

ظل بيتر فيما بعد يفتخر دائمًا كلما تذكر أنه تحلى بالشجاعة لقول الحقيقة، رغم أصابع الملاح المستشيطة غضبًا التي أطبقت على أذنه، ورغم وجه الملاح، المصطبغ باللون القرمزي من شدة الغضب، الذي كان قريبًا من وجهه، ورغم أنفاس الملاح الساخنة التي ظل ينفثها في رقبته.

قال بيتر: «لم أكن أصطاد السمك.»

قال الرجل وهو يلوي أُذن بيتر — ليس في عنف — لكنه لواها على أي حال: «هذه ليست غلطتك، أنا واثق من هذا.»

لم يستطع بيتر أن يقول إنها كانت غلطته. كانت بوبي وفيليس تُمسِكان بالسياج في الأعلى وتتقافزان من القلق. وفجأةً انسلتْ بوبي من بين قضبان السياج وأسرعت بالنزول على الضفة باتجاه بيتر، وفعلت ذلك بهوجٍ شديدٍ للغاية لدرجة أن فيليس، التي تبعتها في هدوءٍ واتزانٍ أكبر، تأكدتْ أن انحدار أختها هذا سينتهي بها في ماء القناة. وقد كان هذا ما سيحدث لو لمْ يترك الملاحُ أذن بيتر ويمسك بوبي بذراعه المكسوة بصوف الجرسي.

قال الملاح وهو يُجلِسها على قدمَيها: «من الذي جئتِ لتدفعيه؟»

قالت بوبي لاهثةً: «أوه، ما جئتُ لدفع أي أحد. على الأقل، لم أفعل هذا عن عمْد. أرجوك لا تغضب من بيتر. إذا كانت قناتَك فإننا آسفون بالتأكيد، ولن نعود إلى هذا مرةً أخرى. لكننا لمْ نكن نعلم أنها قناتُك.»

قال الملاح: «انصرفوا من هنا.»

قالت بوبي بنبرةٍ جادة: «نعم، سننصرف؛ بالتأكيد سننصرف، لكننا نرجوك أن تسامحنا؛ ونحن بالفعل لمْ نصطَد سمكةً واحدة. ولو فعلنا لأخبرتُك على الفور، أُقسم بشرفي أنني كنتُ سأخبرك.»

مدَّت بوبي يدَيها وقلبتْ فيليس جيبها الصغير الخاوي لتُرياه أنهما بالفعل لم تكونا تخبئان أي أسماك معهما.

قال الملاح بنبرةٍ أكثر رقة: «حسنٌ، أسرعوا بالانصراف إذن، وإياكم أن تفعلوا ذلك مرةً أخرى، انتهى الكلام.»

أسرع الأطفال بصعود الضفة.

صاح الرجل قائلًا: «ألقِ لنا معطفًا يا ماريا.» فخرجت من باب مقصورة الركاب في القارب امرأةٌ حمراء الشعر ترتدي شالًا أخضر مُربعَ النقش، وعلى ذراعَيها طفلٌ رضيعٌ، وألقت له المعطف. ارتدى الرجل المعطف، وصعد إلى ضفة القناة، وراح يمشي متمايلًا فوق الجسر متوجِّهًا إلى القرية.

وناداها من فوق الجسر قائلًا: «ستجدينني في «حانة روز آند كراون» بعدما تُهجِعين الطفل.»

بعدما توارى الرجل عن الأنظار عاد الأطفال ببطءٍ مرةً أخرى. كان بيتر مُصرًّا على هذا.

قال بيتر: «ربما تكون القناة ملكه، رغم أنني لا أُصدق هذا. لكن الجسر ملك الجميع. لقد قال لي الدكتور فوريست إنه ملكيةٌ عامة. لن يُجبرني هو ولا أيُّ أحدٍ غيره على مغادرة الجسر، صدقاني.»

كانت أذن بيتر لا تزال مُلتهبة، وهكذا كانت مشاعره.

سارت البنتان خلفه مثلما يسير الجنود البواسل خلف قائد سَرِيَّةٍ فدائية.

«أتمنى بصدقٍ ألا تفعل هذا.» كان هذا كل ما قالتاه.

قال بيتر: «عودا إلى البيت إذا كنتما خائفتَين. اتركاني بمفردي. أنا لستُ خائفًا.»

تلاشى وقعُ أقدام الرجل على الطريق الهادئ. لم تقطع سكونَ الليل تغاريدُ بلابل أشجار السُّعد ولا صوتُ المرأة التي في القارب وهي تُغني لرضيعها كي ينام. لقد كانت أغنيةً حزينة تلك التي كانت تُغنيها. كان فيها شيءٌ عن بيل بيلي وكيف تريده أن يعود إلى المنزل.

وقف الأطفال مستندين بأذرعهم على سور الجسر؛ كانوا سعداء بما نعموا به من الهدوء لبضع دقائق؛ لأن الأفئدة الثلاثة كانت تدق بسرعةٍ بالغة.

قال بيتر بصوتٍ أجش: «لن يطردني أيُّ ملاحٍ عجوزٍ من هنا، لن يفعل.»

قالت فيليس تُهدِّئه: «بالطبع لن يفعل، إنك لمْ تستسلم له! لذا يمكننا الآن أن نعود إلى البيت، ألا ترى هذا؟»

قال بيتر: «لا.»

لم يقل أحدٌ أيَّ شيءٍ غير هذا حتى خرجت المرأةُ من القارب، وصعدت على الضفة، ثم جاءت تمشي على الجسر.

ترددت المرأةُ وهي تنظر إلى ظهور الأطفال الثلاثة ثم تنحنحتْ.

ظل بيتر على هيئته، لكن البنتَين الْتفتتا.

قالت المرأة: «يجب ألا تَشغلوا بالكم بزوجي بيل. إنه ليس شريرًا في الحقيقة كما يبدو. إن بعض الأطفال من طريق فيرلي واي مشاغبون للغاية. إنهم هم الذين أثاروا غضبه عندما صاحوا ناعتين إياه بآكلِ فطيرة الكلاب تحت جسر مارلو.»

سألتها فيليس: «من الذي فعل هذا؟»

قالت المرأة: «لا أعرف.» وأضافت: «لا أحد يعرف! لكن بطريقةٍ ما، ولا أدري سببها ولا دوافعها، كانت كلماتهم غصة في حلق سيد القارب. لا تشغلوا بالكم. فلن يعود قبل ساعتَين كاملتَين. تستطيعون صيد الكثير من السمك قبل مجيئه. إن الضوء ساطعٌ وكل شيءٍ مهيأ.»

قالت بوبي: «شكرًا لكِ، أنتِ طيبةٌ للغاية. أين طفلكِ الرضيع؟»

قالت المرأة: «نائمٌ في مقصورة الركاب. إنه بخير. وهو لا يستيقظ مطلقًا قبل الثانية عشرة. إنه دقيقٌ مثل ساعة كنيسة.»

قالت بوبي: «أنا آسفة، كنتُ أود أن أراه عن قرب.»

قالت المرأةُ وقد أشرق وجهها وهي تتكلم: «ولن تري أجمل منه أبدًا يا آنستي، وإن كنتُ أنا مَن تقول هذا.»

قال بيتر: «ألستِ خائفةً من تركه بمفرده؟»

قالت المرأة: «أَحبك الرب! لا، لستُ خائفة، ومن الذي قد يؤذي رضيعًا صغيرًا مثل هذا؟ وفوق هذا فإن الكلب سبوت موجودٌ هناك. وداعًا!»

وانصرفت المرأة.

قالت فيليس: «هلا نعود إلى المنزل؟»

قال بيتر باقتضاب: «يمكنكما أن تعودا. أما أنا فسأصطاد.»

قالت فيليس: «أظن أننا أتينا إلى هنا لنتحدث عن عيد ميلاد بيركس.»

«سوف نعتني بعيد ميلاد بيركس.»

وهكذا نزلوا إلى الممر الموازي للقناة مرةً أخرى وبدأ بيتر يصطاد. لكنه لم يَصِد أي شيء.

كان الظلام قد أوشك على أن يشتد، وكان الإرهاق قد بدأ ينال من البنتَين، وكانوا، كما قالت بوبي، قد تجاوزوا موعد ذَهابهم إلى النوم، وفجأةً صاحت بوبي: «ما هذا؟»

وأشارتْ إلى القارب الذي في القناة. كان الدخان يتصاعد من مدخنة مقصورة الركاب، لقد كان في الحقيقة يتموج برفقٍ في نسيم المساء الرقيق طوال الوقت؛ لكنَّ حلقاتٍ أخرى من الدخان كانت تتصاعد في تلك اللحظة، وكانت آتيةً من باب المقصورة.

قال بيتر في هدوء: «إنها تحترق، هذا كل ما في الأمر. نال ما يستحقه.»

صاحت فيليس: «يا إلهي؛ كيف تقول هذا؟ فكر في الكلب المسكين.»

صرخت بوبي: «الرضيع!»

وفي الحال أسرع الثلاثة إلى القارب.

كانت أحبال تثبيت القارب مرتخيةً، وكانت النسمة الواهنة، التي لا يكاد يشعر بها أحدٌ من وهنها، قويةً بما يكفي، رغم هذا، لكي تجرف مؤخر القارب إلى جوار الضفة. صعدت بوبي أولًا؛ ثم تبعها بيتر، وهو الذي انزلقتْ قدمُه وسقط. غاص في مياه القناة حتى رقبته، ولم تستطع قدماه لمس قاعها، لكنَّ ذراعه كانت على حافة القارب. أمسكته فيليس من شعره. لقد آلمه هذا، لكنه ساعده على الخروج من الماء. وبعد دقيقةٍ قفز إلى القارب، وتبعته فيليس.

صاح بيتر في بوبي قائلًا: «ليس أنتِ! بل أنا؛ لأنني مبتل.»

أدرك بيتر بوبي عند باب مقصورة الركاب، ودفعها من طريقه بخشونةٍ شديدةٍ في الحقيقة؛ لو أنهما كانا يلعبان، لجعلت هذه الخشونةُ بوبي تذرف الدموعَ من الغضب

والألم. أما في هذه اللحظة، ورغم أنه دفعها بعنفٍ على حافة مخزن القارب، وسُحِجَت ركبتها ومرفقها وانكدما، فإنها لم تزد على أن صاحت قائلة:

«لا، ليس أنت، بل أنا.» ونهضتْ من جديدٍ بصعوبة. لكن لم تكن سريعةً بما يكفي.

كان بيتر قد نزل بالفعل درجتَين من درجات مقصورة الركاب وسط سحابة الدخان الكثيف. لكنه توقف، وتذكر كل ما سمعه من قبل عن الحرائق، ونزع منديله المبلل بالماء من جيبه العلوي المجاور لصدره وربطه على فمه. وقال وهو ينزعه من جيبه:

«كل شيءٍ على ما يرام، لا يكاد يوجد حريقٌ على الإطلاق.»

وقد أحسن بيتر إلى حدٍّ ما فيما قاله هذا، رغم أنه اعتقد أنها كذبة. لقد قصد بها منْع بوبي من الجري وراءه إلى الخطر. لكنها بالطبع لم تمنعها.

كانت المقصورةُ تتوهج بحمرة الضوء؛ فقد كان ثمة مصباحُ نفطٍ يُضيء في هدوءٍ وسط شبورة برتقالية اللون.

قال بيتر وقد رفع المنديل من على فمه لحظةً: «مرحبًا، مرحبًا، أيها الرضيع؛ أين أنت؟» واختنقتْ أنفاسه.

صاحت بوبي من مسافةٍ قريبة خلفه: «أوه، دعني أدخل.» لكن بيتر دفعها إلى الخلف بخشونةٍ أكبر من ذي قبل، وواصل تقدمه.

والآن لا أدري ما الذي كان سيحدث لو لم يبكِ الرضيع؛ لكنه في تلك اللحظة تحديدًا أخذ يبكي. تحسس بيتر طريقه وسط الدخان المعتم، فوجد شيئًا صغيرًا طريًّا دافئًا ينبض بالحياة، والتقطه وعاد ليخرج به، وكاد يتعثر ويسقط فوق بوبي التي كانت على مسافةٍ قريبةٍ خلفه. فقد نهش كلبٌ رجله؛ ثم حاول النباح، لكنه غصَّ بالدخان.

قال بيتر وهو ينزع المنديل من على فمه ويترنح على ظهر القارب: «إن الطفل معي.»

أخذت بوبي تقبض بيدها في المكان الذي أتى منه صوت النباح، ووقعتْ يداها على الظهر البدين لكلبٍ ناعم الشعر. استدار الكلب وأطبق أسنانه على يدها، لكن برفقٍ شديد، وكأنه يقول لها:

«إن عليَّ أن أنبح وأعض إذا دخل الغرباء مقصورة سيدي، لكنني أعرف أن قصدكما خير؛ لذا لن أعضكِ عضةً حقيقية.»

تركت بوبي الكلب.

وقالت: «لا بأس، أيها العجوز. إنك كلبٌ طيب. ناولني الرضيع يا بيتر؛ إنك مبتلٌّ للغاية وستصيبه بالبرد.»

ابتهج بيتر جدًّا بإعطائها تلك الصُّرة الصغيرة الغريبة التي كانت تتلوى وتنشج بالبكاء بين ذراعَيه.

أسرعتْ بوبي تقول: «والآن أسرِع مباشرةً إلى حانة «روز آند كراون» وأخبرهما. سأبقى أنا وفيليس هنا مع الصغير. كفى بكاءً الآن أيها الحبيب، أيها الجميل، أيها اللطيف! اذهب الآن يا بيتر! اجرِ!»

قال بيتر بنبرةٍ حازمة: «لا يمكنني الجري وأنا أرتدي هذه الأشياء. إنها ثقيلةٌ كالرصاص. سوف أمشي.»

قالت بوبي: «سأجري أنا إذن. اصعدي إلى الضفة يا فِل، وسأناولكِ الصغير.»

ناولت بوبي الرضيع لفيليس بحذر. جلستْ فيليس على الضفة وحاولتْ تهدئة الرضيع. أخذ بيتر يعصر الماء من أكمامه وأرجُل سراويله القصيرة بقدر ما استطاع، أما بوبي فهي التي راحت تجري كالريح على الجسر ثم على الطريق الأبيض الطويل الهادئ الذي أضاءته حمرةُ المغيب، باتجاه حانة «روز آند كراون.»

ثمة حجرةٌ جميلةٌ عتيقة الطراز في حانة «روز آند كراون»، يجلس فيها الملاحون وزوجاتهم مساءً لشرب جِعَة العشاء، وتحميص شطائر الجبن على قطعٍ متوهجةٍ من الفحم بمقدارِ مَلء سلةٍ في وعاء يبرز داخل الحجرة من تحت مدخنةٍ ضخمةٍ ذات غطاء، وقد كانت تلك المدخنة أكثر دفئًا وجمالًا وتوفيرًا للراحة من أي مدفأةٍ رأيتُها في حياتي.

كان ثمة مجموعةٌ لطيفةٌ من الملاحين مجتمعين حول النار. ربما لم تكونوا لتحسبوهم لطفاء، لكنهم كانوا كذلك بالفعل؛ لأنهم كانوا جميعًا أصدقاء أو معارف، وكانوا يحبون الأشياء نفسها، ويتكلمون كلامًا واحدًا. هذا هو السر الحقيقي وراء وجود رفقةٍ لطيفة. لقد كان رفاق الملاح بيل — الذي وجده الأطفال بغيضًا للغاية — يعدونه رفيقًا رائعًا. كان في ذلك الوقت يقص حكايةً عن أخطاءٍ ارتكبها؛ دائمًا ما يكون هذا موضوعًا مثيرًا. لقد كان يتكلم عن قاربه.

قال: «وأمرني قائلًا: «ادهنه بالكامل.» ولمْ يحدد لونًا معينًا، أرأيتم؟ لذا أحضرتُ الكثير من الطلاء الأخضر وأخذتُ أدهنه من أوله لآخره، وصدقوني، لقد بدا جيدًا للغاية. ثم أقبل عليَّ وقال: «لماذا دهنته كلها بلونٍ واحدٍ؟» هكذا سألني. وقلتُ له، قلتُ: «لأنني أعتقد أن هذا سيجعله يبدو ممتازًا.» هكذا قلتُ. وقلتُ أيضًا: «ولا أزال أعتقد هذا.»

فقال لي: «أهكذا تعتقد؟ إذن فلتدفع أنت ثمن الطلاء اللعين.» هكذا قال لي. واضطُرِرتُ أن أفعل ذلك أيضًا.» سَرَت همساتُ التعاطف في الحجرة. لكن بوبي اقتحمتها عليهم مُحدِثة ضجة؛ فقد دفعت الباب الدوَّار وفتحته وهي تصيح لاهثةً:

«بيل! أريد الملاح بيل.»

ساد الحجرةَ صمتٌ من أثر الذهول. كانت أقداح الجعة مرفوعةً في الهواء، وتجمدتْ وهي في طريقها إلى الأفواه العطشى.

قالت بوبي وقد رأت زوجة الملاح وتوجهت إليها: «أوه، إن مقصورة الركاب في قاربكِ تحترق. أسرعي.»

انتفضت المرأة واقفة، ووضعتْ يدًا كبيرةً حمراء على خاصرتها، على جانبها الأيسر، في المكان الذي يبدو أن قلوبكم تكون فيه عندما يصيبكم فزعٌ أو تعاسة.

صاحت المرأة بصوتٍ رهيب: «ريجينالد هوراس! حبيبي ريجينالد هوراس!»

قالت بوبي: «لا بأس. إذا كنتِ تقصدين الرضيع؛ فقد أنقذناه. والكلب كذلك.» لم تجد بوبي في صدرها نفَسًا لقول المزيد، سوى: «أسرعي إلى هناك؛ إن القارب مشتعلٌ كله.»

ثم ارتمتْ على دكة الحانة وحاولت أن تلتقط تلك الأنفاس المريحة التي تعقب الجري والتي يُسمِّيها الناس «استرداد الأنفاس.» لكنها أحستْ وكأنها لن تتنفس من جديدٍ أبدًا.

نهض الملاح بيل من مكانه ببطءٍ وتثاقل. لكن زوجته كانت قد قطعت مائة ياردةٍ من الطريق قبل أن يفهم الأمر جيدًا.

لم تكد فيليس، التي جلستْ ترتعش بجوار قناة الماء، تسمع وقع الأقدام المقتربة سريعًا منها حتى قذفت المرأةُ بنفسها على السياج، وتدحرجتْ على الضفة، وانتزعت الرضيع منها.

قالت فيليس تعاتبها: «لا تفعلي هذا. لقد جعلتُه ينام لتوي.»

أقبل بيل بعد ذلك يتكلم بلغةٍ لا يعرفها الأطفال مطلقًا. ثم وثب باتجاه القارب وراح يغرف دلاءً من الماء. وقد ساعده بيتر وأطفئا النار معًا. أما فيليس، وزوجة الملاح، والرضيع — وبوبي التي لحقت بهم بعد وقتٍ قصيرٍ كذلك — فوقفن متضامَّات وكأنهن كومة على ضفة القناة.

أخذت المرأةُ تردد مرةً بعد أخرى: «ساعدني يا إلهي، لو كنتُ أنا التي تركت أي شيءٍ يمكن أن يشتعل.»

لكن لم تكن هي التي فعلتْ هذا. لقد كان الملاح بيل هو الذي أفرغ غليونه في القارب وسقط الرماد الملتهب على البساط المفروش أمام الموقد وظل يحترق هناك ببطءٍ من دون لهبٍ ثم في النهاية اندلعت منه النار. لكنه كان عادلًا برغم صرامته؛ فلمْ يلُم زوجته على خطئه، كما كان من الممكن أن يفعل الكثير من الملاحين، والرجالُ الآخرون كذلك.

كاد القلق أن يدفع أمهم إلى التهور عندما وصل الأطفال الثلاثة أخيرًا إلى المنزل ذي المداخن الثلاث، وكانوا جميعهم في ذلك الوقت مبللين للغاية؛ إذ بدا أن البلل الذي طال ملابس بيتر قد رشح على ملابسهم. لكنها عندما استخلصت حقيقة ما حدث من روايتهم المختلطة غير المترابطة، اعترفتْ أنهم أحسنوا التصرف تمامًا، وأنه لم يكن بإمكانهم فعلُ شيءٍ غير هذا. كما أنها لمْ تضع أي عراقيل في طريق قَبولهم للدعوة الودودة التي أنهى بها الملاح لقاءه معهم.

كان الملاح قد قال: «تعالوا إلى هنا غدًا في الساعة السابعة، وسوف أصطحبكم على متن القارب في رحلة كاملة إلى قرية فيرلي ذهابًا وإيابًا، هكذا سأفعل، ولن تدفعوا مليمًا واحدًا. تسعة عشر هويسًا!»

لم يعرف الأطفال ما هي الأهوسة؛ لكنهم كانوا عند الجسر في الساعة السابعة، وكان معهم سلةٌ فيها خبزٌ وجبنٌ ونصف كعكة مخبوزة بماء الصودا، وربع فخذٍ رائعٍ من لحم الضأن.

كان يومًا رائعًا. أخذ الحصان الأبيض العجوز يبذل جهده ليجر الحبال، وراح القارب ينساب بسلاسة واطِّرادٍ عبر المياه الساكنة. كانت السماء زرقاء فوق رءوسهم. وكان السيد بيل في أقصى ما يمكن لإنسانٍ أن يكون من اللطف. ما كان أحدٌ ليتخيل إمكانية أن يكون هذا هو الرجل نفسه الذي أمسك بيتر من أُذنه. أما عن زوجة السيد بيل، فقد كانت لطيفةً معهم دائمًا، كما قالت بوبي، وهكذا كان الرضيع، وحتى سبوت، الذي كان بإمكانه أن يعقرهم بشدة لو أراد.

قال بيتر بعدما وصلوا إلى البيت وهم في غاية السعادة، وغاية الإرهاق، وغاية الاتساخ: «كانت رحلةً رائعةً وحسب يا أمي، فوق تلك القنطرة الرائعة مباشرةً. والأهوسة؛

إنكِ لا تعرفين كيف تبدو هذه الأهوسة. إنكِ تغطسين باتجاه الأرض، ثم بعد ذلك، وعندما تشعرين أنكِ لن تتوقفي أبدًا عن الانخفاض إلى الأسفل، تبدأ بوابتان سوداوان كبيرتان في الانفتاح رويدًا رويدًا؛ وتخرجين منهما، وهناك تجدين نفسكِ فوق القناة كما كنتِ قبل ذلك تمامًا.»

قالت الأم: «أعرف هذا؛ ثمة أهوسةٌ في نهر التيمز. كنتُ أنا ووالدكم نذهب إلى النهر في مدينة مارلو قبل زواجنا.»

قالت بوبي: «والرضيع الحبيب اللطيف الجميل، لقد تركني أعتني به وقتًا طويلًا جدًّا؛ وكان هذا رائعًا للغاية. أمي، أتمنى لو كان عندنا رضيعٌ لألعب معه.»

قالت فيليس: «وكان الجميع في غاية اللطف معنا، جميع من قابلناهم. وقالوا إن بإمكاننا الصيدَ وقتما نشاء. وسيُرينا بيل كيف نصطاد عندما يذهب إلى تلك الأنحاء في المرة المقبلة. إنه يقول إننا لا نعرف كيفية الصيد في الحقيقة.»

قال بيتر: «لقد قال إنكِ أنتِ التي لا تعرفين. لكنه يا أمي قال إنه سيخبر جميع الملاحين على امتداد القناة بأكملها أننا أطفالٌ شِهامٌ جيدون، وأن عليهم أن يُعاملونا معاملةً جيدةً، مثلما كنا جيدين.»

قاطعته فيليس قائلةً: «وعندئذٍ قلتُ إنَّ كل واحدٍ منا سيرتدي وشاحًا أحمر اللون دائمًا عندما نذهب للصيد بجوار القناة؛ لكي يعرفوا أننا نحن الذين نصطاد، وأننا نحن الشهام الجيدون، ويعاملوننا بلطف!»

قالت الأم: «إذن قد أصبح لديكم مجموعة أخرى من الأصدقاء؛ من السكة الحديدية أولًا، ثم من القناة!»

قالت بوبي: «أوه، نعم. أعتقد أن كل إنسانٍ في الدنيا قد يكون صديقًا إذا استطعتِ فقط أن تُقنعيه أنكِ لا تريدين أن تكوني عدوًّا.»

قالت الأم: «ربما تكونين مُحقة.» ثم تنهدت وقالت: «تعالوا يا أحبتي. حان وقتُ النوم.»

قالت فيليس: «نعم، يا إلهي؛ وقد كنا ذهبنا إلى هناك لنتحدث بشأن ما سنفعله بشأن عيد ميلاد بيركس. ولم نتكلم كلمةً واحدةً عنه!»

قالت بوبي: «لم نقل الكثير، لكنَّ بيتر أنقذ حياة ريجينالد هوراس. أعتقد أن حدوث هذا في ليلة واحدة جيد بما فيه الكفاية.»

قال بيتر بصدق وإخلاص: «كانت بوبي ستنقذه لو لمْ أُسقطها أرضًا؛ لقد فعلتُ ذلك مرتَين.»

قالت فيليس: «وأنا أيضًا، لو أنني كنت أعرف كيف أنقذه.»

قالت الأم: «نعم. لقد أنقذتم حياة طفلٍ صغير. أعتقد أن هذا كافٍ لليلةٍ واحدة. أوه، يا أحبابي، حمدًا للرب أنكم جميعًا آمنون!»

الفصل التاسع

كبرياء بيركس

كانوا في وقت الإفطار. كان وجه أمهم مشرقًا للغاية وهي تصب اللبن وتغرف العصيدة.

قالت: «لقد بعثُ قصةً أخرى يا أحبائي. القصة التي تتحدث عن «ملك بلح البحر»؛ لذا سيكون هناك كعكٌ مُحلًّى من أجل الشاي. يمكنكم أن تذهبوا لإحضاره حالما يُخبز. في الحادية عشرة تقريبًا، أليس كذلك؟»

تبادل كلٌّ من بيتر وفيليس وبوبي النظرات، ست نظراتٍ في المجمل. ثم قالت بوبي:

«أمي، هل تُمانعين في ألَّا نأتي بالكعك من أجل الشاي هذه الليلة، ولكن في الخامس عشر من هذا الشهر؟ سيوافق هذا يوم الخميس القادم.»

قالت الأم: «لا يُهِمني متى تأتون به يا حبيبتي، لكن لماذا؟»

قالت بوبي: «لأنه عيد ميلاد بيركس؛ سيُتِم اثنَين وثلاثين عامًا، وهو يقول إنه لم يَعُد يعبأ بعيد ميلاده؛ لأن لديه أشياء أخرى يعتني بها؛ ليست أرانبَ يُربِّيها وليست أسرارًا يخفيها، إنما هي عياله وامرأته.»

قالت الأم: «تقصدين زوجته وأولاده.»

قالت فيليس: «نعم، إنه نفس المعنى، أليس كذلك؟»

قال بيتر: «وقد اعتقدنا أن بإمكاننا أن نعمل له حفل عيد ميلادٍ جميلًا. إنه يعاملنا دومًا بلطفٍ كبيرٍ جدًّا، كما تعرفين يا أمي، واتفقنا أن نسألكِ في اليوم الذي سنُحضر فيه الكعك إن كان بإمكاننا أن نفعل هذا.»

قالت الأم: «لكن افترضوا أنه لم يكن هناك يومٌ نحضر فيه الكعك قبل الخامس عشر من هذا الشهر؟»

«يا إلهي، إذن، كنا ننوي أن نطلب منكِ أن تسمحي لنا أن نـ... نتسبق الأحداث، وأن نستغني عن الكعك عندما يحين يومه.»

قالت الأم: «تقصد تستبِقون الأحداث، فَهِمتُ. بالتأكيد. سيكون لطيفًا لو كتبنا اسمه على الكعك بسكرٍ وردي، أليس كذلك؟»

قال بيتر: «بيركس، إنه ليس بالاسم الجميل.»

قالت فيليس: «اسمه الآخر هو ألبرت. لقد سألتُه ذات مرة.»

قالت الأم: «يمكننا أن نضع الحرفين «أ. ب»، سأعلمكم كيف تفعلونها عندما يحين اليوم.»

كان هذا كله جيدًا جدًّا ولكن بقدرٍ محدود. لكن حتى أربع عشرة كعكة محلَّاة من تلك التي تُباع الواحدة منها بنصف بنس، وعليها الحرفان «أ. ب» بالسكر الوردي لا تكفي بمفردها لإقامة احتفالٍ مهيب للغاية.

«دائمًا ما يكون ثمة أزهار، بالطبع.» هكذا قالت بوبي، فيما بعد، أثناءَ اجتماعهم في مجلسٍ استشاريٍّ جادٍّ للغاية لمناقشة الموضوع في مخزن القش حيث توجد ماكينةُ فرم القش المعطلة، وصفُّ الفتحات التي ينزل منها القش في حوامل القش الموضوعة فوق معالف الإسطبلات.

قال بيتر: «إن لديه الكثير من الأزهار.»

قالت بوبي: «لكن من الجميل دائمًا أن تُهدى إليك الأزهار، رغم كثرة ما لديك منها. يمكننا استخدام الأزهار في زينات عيد الميلاد. لكن لا بد من وجود شيءٍ نزينه إضافة إلى الكعك.»

قالت فيليس: «لنهدأ جميعًا ونفكر، ولا يتكلمن أحدٌ قبل العثور على فكرة.»

وهكذا جلسوا جميعًا في هدوء والتزموا ثباتًا شديدًا للغاية؛ لدرجة أن فأرًا بني اللون توهم أنه لا يوجد أحد في المخزن وخرج في جرأةٍ كبيرة. عندما عطستْ بوبي صُدم الفأر للغاية وولى هاربًا؛ لأنه رأى أن مخزنَ قشٍّ مُعرضًا لأنْ تَحدث فيه مثل هذه الأمور ليس مكانًا مناسبًا لفأرٍ محترمٍ في منتصف العمرِ يحب أن يحيا حياةً هادئةً.

صاح بيتر فجأة: «مرحى! لقد وجدتُها.» وقفز من مكانه وراح يركل القش السائب.

قالت الأخريان في لهفة: «ماذا؟»

«يا إلهي، إن بيركس لطيفٌ للغاية مع الجميع. لا بد أن ثمة كثيرين في القرية سيرغبون في المساعدة في إقامة حفل عيد ميلادٍ له. هيا لنتجول ونطلب من الجميع.»

قالت بوبي في تردد: «لقد قالت أمنا إن علينا ألَّا نطلب شيئًا من الناس.»

قال بيتر: «لأنفسنا، هذا ما قصدتْه، أيتها الحمقاء، وليس للآخرين. سوف أطلب من السيد العجوز أيضًا. تأكدي أني سأفعل هذا.»

قالت بوبي: «لنستأذن أمنا أولًا.»

قال بيتر: «يا إلهي، ما الفائدة من وراء إزعاج أمنا بكل أمرٍ صغير؟ خصوصًا وهي مشغولة. دعي عنكِ تلك الأفكار؛ لننزل إلى القرية الآن ونبدأ.»

وهكذا ذهبوا. قالت السيدة العجوز التي في مكتب البريد إنها لا تفهم لمَ يجب أن يظل بيركس يحتفل بعيد ميلاده أكثر مما يفعل أي شخصٍ آخر.

قالت بوبي: «لا، إنني أحب أن يحتفل الجميع بأعياد ميلادهم. إننا فقط نعرف موعد عيد ميلاده.»

قالت السيدة العجوز: «إن عيد ميلادي غدًا، ولن يعيره أحدٌ كثيرَ اهتمام. أنا لا أصدقكم.»

وهكذا انصرفوا.

كان بعض الناس طيبًا، وكان بعضهم فظًّا. ووافق بعضهم على العطاء، وامتنع بعضهم. إنها مهمةٌ صعبةٌ بعض الشيء أن تطلب شيئًا من الناس، حتى ولو للآخرين، كما رأيتم من دون شكٍّ إذا كان سبق لكم يومًا أن جربتم القيام بذلك.

عندما عاد الأطفال إلى البيت وراحوا يعدون ما جمعوه وما وُعِدوا بأن يُعطَوه، أحسوا أن ذلك لمْ يكن سيئًا للغاية بالنسبة إلى اليوم الأول. دوَّن بيتر قائمتَين بالأشياء في مفكرة الجيب الصغيرة التي كان يكتب فيها أرقام القاطرات. هكذا كانت القائمتان:

ما حصلنا عليه:

غليون تبغٍ من محل الحلوى.
نصف رطلٍ من الشاي من محل البقالة.
وشاح صوف باهت قليلًا من محل القماش، الواقع في الجانب الآخر من محل البقالة.
سنجابٌ مُحنط من الطبيب.

ما وُعدنا أن نحصل عليه:

قطعة لحمٍ من الجزار.
ست بيضاتٍ طازجات من السيدة التي تسكن في الكوخ القديم عند بوابة تحصيل الرسوم.

قطعة من قرص عسل النحل وستة أربطة للحذاء من الإسكافي، ومجرفة حديدية من ورشة الحداد.

في وقتٍ مبكرٍ جدًّا من صباح اليوم التالي استيقظت بوبي وأيقظت فيليس. كانتا قد اتفقتا على هذا فيما بينهما. ولم تُخبِرا بيتر؛ لأنهما اعتقدتا أنه سيظن أن هذا سخيف. لكنهما أخبرتاه لاحقًا، عندما انتهى الأمر على ما يُرام.

لقد جمعتا باقةً كبيرةً من الورود، ووضعتاها في سلةٍ مع حافظة أدوات الخياطة التي كانت فيليس قد صنعتها لبوبي في عيد ميلادها، ووضعتا معهما ربطة عنق زرقاء جميلة للغاية من ربطات عنق فيليس. ثم كتبتا على ورقة: «إلى السيدة رانسوم، مع خالص حبنا، بمناسبة عيد ميلادها.» ووضعتا الورقة في السلة، وأخذتاها إلى مكتب البريد، ثم دخلتا إلى هناك ووضعتاها على النضد وهربتا قبل أن تتمكن السيدة العجوز التي تعمل في مكتب البريد من الدخول إلى محلها.

عندما عادتا إلى المنزل كان بيتر قد اكتسب الثقة أثناء مساعدة أمه في إعداد الفطور وأخبرها بخططهم.

قالت الأم: «لا بأس بهذا. لكن الأمر يعتمد على كيفية قيامكم به. أرجو فقط ألَّا يشعر بالإهانة وألَّا يظن أنها صدقة. إن نفوس الفقراء أبيَّة جدًّا.»

قالت فيليس: «ليس هذا لأنه فقير، ولكن لأننا نحبه.»

قالت أمها: «سأبحث عن بعض الملابس التي أصبحت صغيرةً على فيليس، إذا كنتم واثقين تمامًا أنَّ بإمكانكم إعطاءها له دون أن يشعر بالإهانة. إنني أود أن أقدم له شيئًا ولو صغيرًا للطفه الجمِّ معكم. لكنني لا أستطيع أن أعمل له الكثير؛ لأننا نحن أنفسنا فقراء. ماذا تكتبين يا بوبي؟»

قالت بوبي التي كانت قد بدأت فجأةً تخربش على ورقة: «لا شيء بعينه. أنا واثقةٌ أنه سيحب الملابس يا أمي.»

انقضى صباح اليوم الخامس عشر بسعادةٍ كبيرةٍ في إحضار الكعك المحلى ومشاهدة أمهم وهي تكتب عليه حرفي «أ. ب» بالسكر الوردي. تعرفون كيفية عمل هذا بالتأكيد، أليس كذلك؟ تخفقون بياض البيض وتخلطونه بالسكر المطحون، ثم تضيفون عليهما قطراتٍ قليلةً من اللون القرمزي، ثم تصنعون مخروطًا من الورق الأبيض النظيف وتجعلون فيه فتحةً صغيرةً عند طرفه المدبب، وتضعون خليط السكر والبيض الوردي

في الطرف الكبير للمخروط. سيخرج الخليط ببطءٍ من الطرف المدبب، وتكتبون الحروف به وكأنه قلمٌ كبيرٌ مكتنزٌ مليءٌ بحبر السكر الوردي.

بدت الكعكات جميلة والحرفان على كل واحدةٍ منه، وعندما وضعتها أمهم في فرنٍ فاتر الحرارة لكي يجمد السكر، ذهب الأطفال إلى القرية ليجمعوا العسل والمجرفة والأشياء الأخرى التي وُعدوا بالحصول عليها.

كانت السيدة العجوز التي تعمل في مكتب البريد واقفةً أمام عتبة بابها. قال الأطفال بأدبٍ أثناء مرورهم: «صباح الخير.»

قالت: «أنتم. توقفوا قليلًا.»

توقف الأطفال.

قالت: «تلك الورود.»

قالت فيليس: «هل أعجبتكِ؟ لقد كانت ناضرةً تمامًا. أنا التي صنعت حافظة أدوات الخياطة، لكنها هدية بوبي.» كانت فيليس تتواثب بابتهاجٍ أثناء حديثها.

قالت سيدة مكتب البريد: «ها هي ذي سلتكم.» ودخلت وأحضرت السلة. كانت مليئةً بثمار عنب الثعلب الحمراء الممتلئة.

قالت السيدة: «أعتقد أن أطفال بيركس سيحبونها.»

قالت فيليس وهي تطوق خصر السيدة المسنة الممتلئَ بذراعَيها: «أنتِ سيدةٌ لطيفة.»

قالت السيدة المسنة وهي تربت على كتف فيليس: «إنه لن يبلغ نصفَ ما بلغتُ من السعادة بحافظة أدوات الخياطة وربطة العنق والزهور الجميلة وكل ما أهديتموني. إنكم أرواحٌ صغيرةٌ بريئةٌ، هكذا أنتم. انظروا. إن لديَّ عربةَ أطفالٍ قُرب الجزء الخلفي من المنزل في الكوخ الخشبي. لقد اشتريناها من أجل المولود الأول لابنتي إيمي، لكنه لم يعش سوى ستة أشهر، وهي لم تُنجب سواه. أود أن تحصل عليها زوجةُ السيد بيركس. فسوف تساعدها في الاعتناء بطفلها الرائع. هل ستأخذونها؟»

قال الأطفال كلهم في صوتٍ واحد: «أوه!»

بعدما أخرجت السيدة رانسوم عربة الأطفال وأزالت الأوراق التي كانت تُغلِّفها بعناية، ونفضت الغبار عن كل جزءٍ منها، قالت:

«حسنٌ، ها هي ذي. كنت أعتقد أنِّي كنتُ سأعطيها إياها من قبل لو كنتُ فكرتُ في هذا الأمر. إنني فقط لم أكن واثقةً تمامًا إن كانت ستقبلها مني. قولوا لها إنها كانت عربة صغيرِ ابنتي إيمي ...»

«يا إلهي، أليس رائعًا أن يتخيل المرء أنه سيوضع فيها رضيعٌ حقيقيٌّ حيٌّ مرةً أخرى!»

قالت السيدة رانسوم وهي تتنهد: «بلى.» ثم ضحكت وقالت: «خذوا، سأعطيكم بعض حلوى النعناع من أجل الصغار، ثم أسرِعوا بالانصراف قبلما أُعطيكم سقف بيتي وملابسي التي تسترني.»

عبأ الأطفال كل ما جمعوه من أجل بيركس في عربة الأطفال، وفي الثالثة والنصف أخذها بيتر وبوبي وفيليس إلى المنزل الأصفر الصغير الذي يسكنه بيركس.

كان المنزل مرتبًا للغاية. كان على إفريز النافذة دورقٌ به أزهارٌ برية، وزهور أُقْحُوان كبيرة، ونبتة حَبَقٍ خرساني حمراء، وأعشابٌ ناعمةٌ مُزهرة.

كان ثمة صوتُ رَشاشٍ قادمٌ من حجرة غسل الملابس، ووضَع صبيٌّ لم يُكمل استحمامَه رأسَه قُرب الباب، وقال:

«إن أمي تُغيِّر ثيابها.»

جاء من أعلى الدَّرَج الضيق المغسول حديثًا صوتٌ يقول: «سأنزل بعد دقيقة.»

وقف الأطفال ينتظرون. وبعد دقيقة سُمِع للدرج صوتُ صريرٍ ونزلتْ عليه زوجة السيد بيركس وهي تُغلِق أزرار صِدارها. كان شعرها منسدلًا وفي غاية النعومة، وكان وجهها متألقًا بعدما غسلتْه بالماء والصابون.

قالت لبوبي: «لقد تأخرتُ بعض الشيء في تغيير ملابسي يا آنستي؛ لأنني كان لدي أعمال تنظيف أكثر من المعتاد اليوم؛ لأن بيركس قال إن اليوم هو عيد ميلاده. لا أدري ما الذي أدخل في رأسه التفكير في شيءٍ كهذا. إننا نحتفل بأعياد ميلاد الأطفال، بالطبع؛ لكن أنا وهو؛ إنَّ سننا أكبر بكثيرٍ من أن نفعل مثل هذه الأشياء.»

قال بيتر: «لقد كنا نعلم أن اليوم هو عيد ميلاده، وقد أحضرنا له بعض الهدايا في عربة الأطفال خارج البيت.»

بينما راح الأطفال يفرغون الهدايا من العربة شهقت زوجة السيد بيركس. وبعدما أفرغوها كلها، فاجأتهم المرأةُ وأفزعتهم بجلوسها المفاجئ على كرسيٍّ خشبيٍّ وانفجارها في البكاء.

قال لها الجميع: «أوه، لا تبكِي! أوه، أرجوكِ لا تبكِي!» وأضاف بيتر، ربما في شيءٍ من الاستعجال: «ما الذي حدث بالضبط؟ لا تقولي إن الهدية لم تعجبك!»

لم تَزِد زوجة السيد بيركس على أن نشجت بالبكاء. وقف أطفال بيركس أمام باب حجرة غسل الملابس، وقد اكتست وجوههم في تلك اللحظة بأحسن ما قد يتمناه أيُّ أحد من الضياء، وأخذوا ينظرون بتجهمٍ في وجوه أولئك المتطفلين. ساد المنزلَ صمتٌ مُربك.

قال بيتر مرةً أخرى: «أما أعجبتكِ الهدية؟» بينما راحت أختاه تربتان على ظهر زوجة السيد بيركس.

توقفت المرأة عن البكاء فجأةً كما انفجرت فيه فجأة.

وقالت: «هونوا عليكم، هونوا عليكم، لا تَشغلوا بالكم بي. أنا بخير! أعجبتني؟ يا إلهي، إنه عيد ميلادٍ لمْ يحظ بيركس بمثله قبل ذلك قط، ولا حتى عندما كان صغيرًا وكان يعيش مع عمه، الذي كان يبيع الذرة بمفرده. لقد أفلس بعد ذلك. أعجبتني؟ يا إلهي ...» بعد ذلك واصلَت الحديث وقالت جميع أنواع الأشياء التي لن أكتبها؛ لأنني على يقينٍ أن بيتر وبوبي وفيليس لن يحبوا أن أفعل هذا. لقد أخذَت آذانهم تزداد سخونةً، ووجوههم تزداد حمرةً، لِما قالتْه زوجة السيد بيركس من لطيف الكلام. لقد أحسوا أنهم لم يفعلوا شيئًا يستحقون عليه كل هذا الثناء.

في النهاية قال بيتر: «اسمعي، إننا مسرورون لأنكِ سعيدة. لكنكِ لو ظللتِ تقولين مثل هذا الكلام، فسنعود حتمًا إلى البيت. وقد كنا نريد أن ننتظر ونرى إن كان السيد بيركس سعيد هو الآخر. لكننا لا نحتمل هذا.»

قالت زوجة السيد بيركس بوجهٍ بشوش: «لن أنطق بكلمة واحدة أخرى، لكن هذا لا يقتضي أن أكف عن التفكير، أليس كذلك؟ لأنني لو ...»

سألتها بوبي فجأةً: «هل تسمحين لنا بطبقٍ من أجل الكعك؟» فأسرعت زوجة السيد بيركس بإعداد المنضدة من أجل الشاي، ووُضِع الكعك والعسل وثمار عنب الثعلب في أطباق، ووُضِعت الزهور في مرطبانَي مربى زجاجيَّين، وبدتْ منضدةُ الشاي، كما قالت زوجة السيد بيركس «لائقةً بأمير.»

قالت أيضًا: «يا للمفاجأة! لقد رتبتُ المكان مبكرًا، وأحضر الصغار الزهور البرية وكل شيء؛ لكنني لم أتخيل قط أن يحظى بأي شيءٍ أكثر من تلك الأوقية من تبغه المفضل التي اشتريتها يوم السبت وأحتفظُ له بها منذ ذلك الحين. يا إلهي! لقد جاء مبكرًا!»

كان بيركس بالفعل قد رفع مزلاج البوابة الأمامية الصغيرة.

همست بوبي قائلةً: «يا إلهي، لنختبئ في المطبخ الخلفي، ولتُخبريه أنتِ بأمر الهدية. لكن أعطيه التبغ أولًا، لأنكِ أحضرتِه له. وبعدما تخبرينه، سندخل كلنا ونصيح قائلين: «نتمنى لك العمر المديد»!»

كانت خطةً جميلةً جدًّا، لكنها لم تنجح النجاح المرجو؛ أولًا: لم يكد الوقت يسعف بيتر وبوبي وفيليس كي يسرعوا بالدخول إلى حجرة غسل الملابس، ويدفعوا أطفال بيركس الصغار الفاغرين أفواههم في ذهول أمامهم. كما لم يتسع الوقتُ لإغلاق الباب؛ لذا، ومن دون أن يقصدوا على الإطلاق، استمعوا إلى ما جرى في المطبخ. كانت حجرة غسيل الملابس بالكاد تتسع لأطفال بيركس وأطفال المنزل ذي المداخن الثلاث، بالإضافة إلى جميع لوازم حجرة غسيل الملابس التي كان من بينها المرجل النحاسي ومعصرة الملابس.

سمع الأطفال صوت السيد بيركس وهو يقول: «مرحبًا أيتها العجوز! يا لها من مائدة جميلة!»

قالت زوجة السيد بيركس: «إنه حفل شاي عيد ميلادك يا بيرت، وها هي ذي أوقيةٌ من تبغك المخصوص. لقد اشتريتُها يوم السبت عندما تذكرتَ أن عيد ميلادك اليوم.»

قال السيد بيركس: «فتاةٌ طيبةٌ!» وسمع الأطفال صوت قبلة.

«لكن ما الذي تفعله عربةُ الأطفال هذه هنا؟ وما كل هذه الرزم؟ ومن أين أتيتِ بالحلوى، و...»

لم يسمع الأطفال رد زوجة السيد بيركس؛ لأنه في تلك اللحظة تحديدًا انتفضت بوبي، ووضعت يدها في جيبها، وتيَبَّس جسمها كله من الفزع.

وهمست قائلةً للآخرين: «يا إلهي! ماذا سنفعل؟ لقد نسيتُ أن أضع البطاقات على أيٍّ من الهدايا! لن يعرف بيركس مَن أهداه ماذا. سيظن أننا نحن من فعلنا كل هذا، وأننا نحاول أن نكون عظماء أو محسنين أو شيئًا ما شنيعًا.»

قال بيتر: «صه!»

وعندئذٍ سمعوا صوت السيد بيركس مرتفعًا وغاضبًا بعض الشيء.

كان يقول: «لا يهمني، لن أطيق هذا، وها أنا ذا أخبركِ من دون مواربة.»

قالت زوجته: «لكن، إنهم هؤلاء الأطفال أولئك الذين تثير حولهم هذه الضجة؛ الأطفال الذين يسكنون المنزل ذا الثلاث المداخن.»

قال بيركس في حسم: «هذا لا يهمني، حتى ولو كان ملاكًا من السماء. لقد عشنا بخيرٍ كل هذه السنوات دون أن نحتاج إلى أحدٍ أو نطلب معروفًا. وأنا لا أنوي أن يبدأ هذا النوع من الصدقات في حياتي، فإياكِ أن تحسبي أنه سيحدث يا نِل.»

قالت زوجة السيد بيركس المسكينة: «أوه، صه! بيرت، أمسك لسانك الأحمق، لأجل الرب. إن الأطفال الثلاثة كلهم في حجرة غسل الملابس يسمعون كل كلمةٍ تقولها.»

قال بيركس الغاضب: «إذن فسأقول لهم شيئًا ليسمعوه.» وأضاف: «لقد قلتُ لهم رأيي بصراحة قبل ذلك، وسأعيده ثانيةً.» ثم خطا خطوتَين واسعتَين باتجاه باب حجرة غسل الملابس، وفتحه عن آخره — أقصد فتحه إلى أقصى ما يمكن أن يُفتَح — والأطفال مكوَّمون خلفه بعضهم فوق بعض.

قال بيركس: «اخرجوا. اخرجوا وأخبروني ماذا تقصدون من وراء فعلكم هذا. هل اشتكيتُ لكم قط من ضيق ذات اليد حتى تُغدِقوا عليَّ بهذه الصدقة؟»

قالت فيليس: «يا إلهي! كنتُ أظنك ستسعد للغاية؛ لن أحاول أن أكون لطيفةً مع أي أحدٍ ما حييت. لا، لن أفعل، أبدًا.»

وانفجرتْ في البكاء.

قال بيتر: «لم نقصد أي إساءة.»

قال بيركس: «ليست الإساءةُ فيما قصدتم بقدر ما هي فيما فعلتم.»

صاحت بوبي في محاولةٍ جاهدةٍ منها لأنْ تكون أكثر شجاعةً من فيليس، وأن تجد كلماتٍ أكثر مما وجدها بيتر لشرح الأمر: «أوه، لا تقل هذا! كنا نظن أنك ستحب ما فعلناه. إننا دائمًا ما نحصل على الهدايا في أعياد ميلادنا.»

قال بيركس: «أجل، من أقاربكم؛ هذا شيء مختلف.»

قالت بوبي: «أوه، لا، ليس من أقاربنا. لقد اعتاد الخدم كلهم أن يقدموا لنا هدايا في المنزل، ونحن كنا نقدم لهم الهدايا في أعياد ميلادهم. وعندما جاء عيد ميلادي، وأهدتني أمي البروش الشبيه بزهرة الحَوْذان، أعطتني السيدةُ فايني مِزهريَّتَين زجاجيتَين جميلتَين، ولم يعتقد أحدٌ أنها جاءت لتُغدِق الصدقة علينا.»

قال بيركس: «لو كانتا مزهريتَين زجاجيتَين هنا لَما أكثرتُ الكلام. لكنها أكوامٌ وأكوامٌ من أشياء لا أتحملها. لا؛ ولن أتحملها كذلك.»

قال بيتر: «لكنها ليست كلها منا؛ لقد نسينا فقط أن نضع البطاقات عليها. إنها من جميع الناس في القرية.»

سأله بيركس: «ومَن حرَّضهم على هذا، أريد أن أعرف؟»

قالت فيليس وهي تشهق: «نحن من فعلنا ذلك.»

ارتمى بيركس بقوة على الكرسي ذي الذراعَين وراح يرمقهم بنظراتٍ وصفتها بوبي فيما بعد بأنها نظرات يأسٍ كئيبٍ حادة.

«إذن لقد طُفتم على بيوت الجيران ورحتم تخبرونهم أننا عاجزون عن كسب قوت يومنا، أليس كذلك؟ حسنٌ، إنكم بهذا قد بلغتم الغاية في إلحاق الخزي بنا بين الجيران، يمكنكم فقط أن تُعيدوا تلك الأشياء كلها إلى حيث جئتم بها. أنا في غاية الامتنان لكم، بالتأكيد. أنا واثقٌ أنكم لم تقصدوا سوى الخير، لكنني أُفضِّل ألَّا تكون لي معرفة بكم بعد الآن إذا كان الأمر كله لا يَعنيكم.» وتعمَّد تحويل الكرسي بحيث أدار ظهره إلى الأطفال. أحدثت أرجل الكرسي صريرًا على الأرضية القرميدية، وكان هذا هو الصوت الوحيد الذي قطع الصمت.

ثم تكلمَتْ بوبي فجأةً.

وقالت: «أنصتْ إليَّ، إن هذا بشع للغاية.»

قال بيركس دون أن يلتفت: «هذا ما عندي.»

قالت بوبي في يأس: «أنصت إليَّ، سنذهب إذا أردتَ — ولستَ مُضطرًّا لأن تكون صديقنا بعد الآن إذا كنت لا تريد ذلك — لكن ...»

قالت فيليس وهي تشهق بشدة: «سنظل أصدقاءك دائمًا، رغم معاملتك السيئة لنا.»

أسر لها بيتر قائلًا بعنفٍ: «اسكتي.»

واصلت بوبي كلامها في يأس: «لكن قبل أن ننصرف، دعنا نريك البطاقات التي كتبناها كي نضعها على الهدايا.»

قال بيركس: «لا أريد أن أرى أي بطاقات، سوى تلك البطاقات الموضوعة على الحقائب في عملي. أتظنون أنني ظللتُ حَسَنَ السُّمعة بعيدًا عن الاستدانة باكتفائي بما أجنيه، واضطرارها هي للعمل في غسل الملابس هنا، كي أكون أُضحوكةً لجيراني أجمعين؟»

قال بيتر: «أُضحوكة؟ إنكَ لا تعلمُ شيئًا.»

قالت فيليس بتذمر: «إنك رجلٌ متسرعٌ للغاية يا سيدي. إنك تعرف أنك أخطأتَ مرةً قبل ذلك، بشأن عدم إخبارنا إياك بسر الرجل الروسي. دع بوبي تخبرك عن البطاقات!»

قال بيركس على كرهٍ منه: «حسنٌ. تفضلي!»

قالت بوبي وهي تبحث في جيبها المكتظ بالأوراق في ارتباكٍ مثيرٍ للشفقة، ولكن دون أن تفقد الأمل: «حسنٌ، إذن، لقد كتبنا كل ما قاله الجميع وهم يعطوننا الهدايا،

وكتبنا أسماءهم؛ لأن أمنا قالت إن علينا أن نكون حذرين ... لأن ... لكنني كتبتُ ما قالتْه؛ وسوف ترى.»

لكنَّ بوبي لمْ تستطع قراءة البطاقات في الحال. لقد اضطُرَّتْ إلى ابتلاع ريقها مرةً أو مرتَين قبل أن تتمكن من البدء في القراءة.

كانت زوجة السيد بيركس تبكي دون انقطاع منذ أن فتح زوجُها باب حجرة غسل الملابس. لكنها في تلك اللحظة الْتقطَتْ أنفاسها، ثم اختنق صوتها بالدموع، ثم قالت:

«لا تُكدِّري نفسكِ يا آنستي. إنني أعلم أنكِ ما أردتِ سوى الخير إن كان هو لا يعلم.»

قالت بوبي ودموعها تتساقط على قصاصات الورق وهي تحاول تصنيفها: أتسمحون لي بقراءة البطاقات؟ بطاقة أمي أولًا. إنها تقول:

قالت أمي: «الملابس الصغيرة لأطفال زوجة السيد بيركس. سأبحث عن بعض ملابس فيليس التي أصبحت صغيرةً عليها إذا كنتم متأكدين تمامًا أن هذا لن يجرح مشاعر السيد بيركس وأنه لن يظن أننا قصدنا به الصدقة. إنني أود أن أُقدِّم له شيئًا ولو صغيرًا، للطفه الجمِّ معكم. لكنني لا أستطيع أن أعمل له الكثير؛ لأننا نحن أنفسنا فقراء.»

توقفت بوبي عن القراءة لحظةً.

قال بيركس: «لا بأس في هذا. إن والدتكِ سيدةٌ نبيلةٌ بالفطرة. سوف نحتفظ بالفساتين الصغيرة، والأشياء الأخرى الشبيهة بها، يا نِل.»

قالت بوبي: «لدينا بعد ذلك عربة الأطفال وثمار عنب الثعلب، وقطع الحلوى، إنها من السيدة رانسوم. لقد قالت: «أعتقد أن أطفال السيد بيركس سيحبون الحلوى. وعربة الأطفال هذه كنا قد اشتريناها من أجل المولود الأول لابنتي إيمي؛ لكنه لم يعش سوى ستة أشهر، وهي لم تُنجب غيره. أود أن تأخذها زوجةُ السيد بيركس؛ فسوف تعينها في الاعتناء بابنها الجميل. ولو كنتُ تأكدتُ أنها ستقبلها مني لكنتُ أهديتُها إياها من قبل».» أضافت بوبي: «لقد طلبتْ مني أن أُخبرك أنها كانت عربة صغيرِ ابنتها إيمي.»

قالت زوجة السيد بيركس بلهجة حاسمة: «لا يمكنني إعادة هذه العربة يا بيرت. ولن أفعل. لذا لا تطلب مني ...»

قال بيركس بفظاظة: «لن أطلب منكِ أي شيء.»

قالت بوبي: «ثم المجرفة. لقد صنعها لك السيد جيمس بنفسه. وقال ... أين هي؟ أوه، نعم، ها هي! وقال: «أخبري السيد بيركس أنه من دواعي سروري أن أصنع شيئًا

صغيرًا كهذا لرجلٍ شديد الاحترام مثله.» ثم قال إنه يتمنى لو كان بإمكانه أن يصنع لأطفالك وأطفاله نِعالًا، كما يصنعون للخيل؛ لأنه، حسنٌ، لأنه يعلم كم هي كبيرةٌ تكلفةُ الأحذية الجلدية.»

قال بيركس: «إن جيمس رجلٌ طيب.»

أسرعت بوبي تقول: «ثم العسل، وأربطة الحذاء. لقد قال الإسكافي إنه يحترم الرجل الذي يتكفل بنفقات نفسه؛ وقال الجزارُ مثل ذلك تمامًا. وقالت السيدة العجوز التي تسكن عند بوابة تحصيل الرسوم إنك كثيرًا ما ساعدتها في أعمال حديقتها عندما كنتَ غلامًا — وإنك إنما تجني ثمار غرسك — لا أدري ماذا تقصد بهذا. وكل مَن أعطانا شيئًا قال إنه يحبك، وإنها كانت فكرةً جيدةً جدًّا منا؛ ولم يقل أحدٌ أيَّ شيءٍ عن الصدقة أو أي شيءٍ بشع كهذا. وقد أعطى السيد العجوزُ بيترَ جنيهًا ذهبيًّا من أجلك، وقال إنك رجلٌ تراعي عملك. وكنتُ أظنك ستسعد عندما تعرف كم يحبك الناس، لكنني لم أشعر في حياتي بمثل ما شعرتُ به من الحزن الآن. وداعًا. أرجو أن تسامحنا يومًا ما ...»

لم تستطع بوبي قول المزيد، والتفتتْ لتنصرف.

قال بيركس، وهو لا يزال مُوليًا ظهره لهم: «توقفي. إنني أسحب كل كلمة قلتُها خلافًا لِما كنت تتمنين. نِل، ضعي إبريق الشاي على النار.»

قال بيتر: «سنأخذ الهدايا إذا كنتَ منزعجًا منها، لكنني أعتقد أن الجميع سيشعرون بخيبة أمل كبيرةٍ للغاية، ونحن أيضًا.»

قال بيركس: «لستُ منزعجًا منها.» وأضاف، وقد أدار الكرسي فجأةً وأطلَّ عليهم بوجهٍ مشوشٍ وغريبِ المَرأى للغاية: «لا أعرف وقتًا سُررتُ فيه من قبل كسروري الآن. ليس بالهدايا — رغم أنها مجموعةٌ ممتازة — وإنما بهذا الاحترام الطيب من جيراننا. إن هذا جديرٌ بأن نحصل عليه، أليس كذلك يا نِل؟»

قالت زوجة السيد بيركس: «أعتقد أن كل ما قدموه جديرٌ بأن نأخذه، وأرى أنك أثرت ضجةً سخيفةً للغاية من دون داعٍ يا بيرت.»

قال بيركس بلهجة حاسمة: «لا، لمْ أفعل. إذا لم يحترم الرجل نفسه فلن يحترمه أحد.»

قالت بوبي: «لكن الجميع يحترمونك؛ كلهم قال ذلك.»

قالت فيليس بابتهاج: «كنتُ أعرف أنك ستسعد بالأمر عندما تفهمه على حقيقته.»

قال السيد بيركس: «أهكذا! ستبقون معنا إلى وقت الشاي؟»

فيما بعد دعاهم بيتر لشرب نخب السيد بيركس. وقال السيد بيركس كلماتِ النخب وهم يشربون الشاي، وكانت كلماته: «ليظل إكليل الصداقة ناضرًا إلى الأبد.» وقد كانت أكثر شاعريةً بكثير مما توقعه منه أيُّ أحد.

قال السيد بيركس لزوجته عندما أخذا مضجعهما: «رائعون جدًّا أولئك الصغار.»

قالت زوجته: «أوه، إنهم جيدون جدًّا، بارك الرب قلوبهم. لقد كنت أنت أكثر شخصٍ إزعاجًا على الإطلاق. لقد شعرتُ بالخجل مما فعلتَه؛ صدقني ...»

«لم تكوني مضطرةً إلى هذا أيتها الفتاة العجوز. لقد اعترفتُ بخطئي في الحال عندما أدركتُ أنها لم تكن صدقة. لكنَّ الصدقة هي ما لمْ أتحمله قط، ولن أتحمله.»

لقد سعد الجميع بحفل عيد الميلاد هذا. سعد السيد بيركس وزوجته وأولاده الصغار بالهدايا الجميلة كلها وبالاهتمام الطيب الذي أبداه جيرانهم؛ وسعد أطفال المنزل ذي الثلاث المداخن بنجاح خطتهم المؤكد، رغم تأخره غير المتوقع؛ كما ظلت السيدة رانسوم تشعر بالسعادة في كل مرة ترى فيها رضيعَ بيركس السمينَ في عربة الأطفال. لقد قامت زوجة السيد بيركس بمجموعة كبيرة متتابعة من الزيارات لتشكر الناس على هدايا عيد الميلاد الطيبة التي قدموها، وكانت تشعر بعد كل زيارةٍ أن لها صديقًا أشدَّ إخلاصًا مما كانت تحسبه.

قال بيركس متأملًا: «نعم، إن الأمور لا تعتمد كثيرًا على ما تفعله بقدر اعتمادها على ما تقصده منها؛ هذا هو رأيي. لكنها لو كانت صدقة ...»

قالت زوجة السيد بيركس: «يا إلهي، سحقًا لفكرتك عن الصدقة، إن أحدًا لن يعطيك أي صدقة يا بيرت، مهما كان احتياجك لها، أُراهنك على هذا. إنما كان ما فعلوه من باب المودة فحسب، هكذا هو الأمر.»

عندما زار الكاهنُ زوجةَ السيد بيركس أخبرته بالأمر كله. وقالت: «لقد كان لُطفًا ومودة منهم، أليس كذلك يا سيدي؟»

قال الكاهن: «أعتقد أنه كان ما نسميه أحيانًا مرحمة.»

هكذا ترون أن الأمر سار على خير ما يُرام في النهاية. لكنَّ المرء إذا فعل مثل هذا، فإن عليه أن يحرص على أن يفعله بالطريقة المناسبة. فالأمور، كما قال السيد بيركس، عندما أُتيح له الوقت للتفكير فيما حدث، لا تعتمد كثيرًا على ما تفعلون بقدر اعتمادها على ما تقصدون.

الفصل العاشر

السر الرهيب

عند بداية انتقالهم للعيش في المنزل ذي المداخن الثلاث، كان الأطفال يكثرون من الكلام عن أبيهم، كما كانوا يكثرون من الأسئلة عنه، وعمَّا كان يفعله وعن مكانه ومتى سيعود إلى البيت. كانت أمهم دائمًا تجيب أسئلتهم بقدر ما تستطيع. لكن مع مرور الوقت قلَّ حديثُهم عنه. لقد شعرت بوبي من البداية تقريبًا أنه لسببٍ غريب تعيسٍ كانت تلك الأسئلة تجرح أمهم وتحزنها. وبدأ الآخران رويدًا رويدًا يشعران بهذا الشعور أيضًا، رغم أنهما لم يستطيعا أن يعبرا عنه بالكلمات.

ذات يومٍ، عندما كانت أمهم منهمكةً للغاية في العمل لدرجة أنها لم تستطع أن تتوقف عنه ولو لعشر دقائق، صعدت بوبي إليها بمشروبها من الشاي في الغرفة الكبيرة الفارغة التي كانوا يسمونها ورشة أمي. لم يكن فيها أي أثاث تقريبًا. فقط منضدة وكرسي وسجادة. لكن دائمًا ما كانت توجد أُصُصُ الزهور الكبيرةُ على عتبات النوافذ ورف المدفأة. كان الأطفال يحرصون على ذلك. ومن خلال النوافذ الطويلة الثلاث التي لا تغطيها ستائر كان المرء يستطيع أن يرى المرج والمستنقع الممتدَّين الجميلَين، واللون البنفسجي الذي يكسو التلال من بعيد، والتغير المستمر الذي تتسم به السحب والسماء.

قالت بوبي: «ها هو شايُكِ يا أمي الحبيبة؛ فلتشربيه وهو ساخن.»

وضعت أمها قلمها وسط الأوراق التي كانت مبعثرةً على كل جزءٍ فوق المنضدة، تلك الأوراق المغطاة بخطها، الذي كان في وضوح الكتابة المطبوعة تقريبًا، وأجمل منها بكثير. وأخذت تمرر يدَيها عبر خصلات شعرها، وكأنها كانت ستشده وتملأ به كفَّيها.

قالت بوبي: «يا لرأسكِ المسكين الغالي! هل يؤلمك؟»

قالت أمها: «لا ... بلى ... ليس بشدة. بوبي، أتظنين أن بيتر وفِل قد نسيا أباكِ؟»

قالت بوبي بسخط: «لا. لماذا؟»

«لم يعد أيٌّ منكم يتحدث عنه الآن.»

وقفت بوبي أولًا على إحدى قدَميها ثم على الأخرى.

وقالت: «إننا كثيرًا ما نتكلم عنه عندما نكون بمفردنا.»

قالت أمها: «لكنكم لا تُحدِّثونني. لماذا؟»

لم يكن من اليسير على بوبي أن تقول السبب.

قالت بوبي: «أنا ... إنكِ ...» ثم توقفت عن الكلام. ثم توجهتْ إلى النافذة وراحتْ تنظر منها.

قالت أمها: «بوبي، تعالَي إلى هنا.» فأقبلتْ بوبي إليها.

قالت أمها وهي تُطوِّق بوبي بذراعها وتُسنِد رأسها المشوَّش على كتف بوبي: «والآن، حاولي أن تُخبريني يا حبيبتي.»

لكن بوبي أخذت تتململ.

«أخبري أمك.»

قالت بوبي: «حسنٌ إذن، لقد كنتُ أرى أنكِ حزينةٌ جدًّا لأن أبي ليس هنا، وكان حزنكِ يزداد عندما أتكلم عنه. لذلك امتنعتُ عن هذا.»

«والآخران؟»

قالت بوبي: «لا أدري بشأنهما. أنا لم أقل لهما أي شيءٍ عن هذا الأمر مطلقًا. لكنني أتوقع أن شعورهما نحوه كان كشعوري تمامًا.»

قالت أمها وهي لا تزال تسند رأسها عليها: «حبيبتي بوبي، سوف أُخبرك. علاوةً على ابتعاد أبيكِ عنَّا، كنتُ أنا وهو نشعر بحزنٍ شديد — أُوه، حزن فظيع — أسوأ من أي شيءٍ تستطيعين أن تتخيليه، وفي البداية كان يؤلمني بحقٍّ أن أسمعكم جميعًا تتحدثون عنه وكأن شيئًا لم يتغير. لكن الأمر كان سيُصبح أسوأ بكثيرٍ لو أنكم نسيتموه. كان هذا سيصبح أسوأ من أي شيء.»

قالت بوبي بصوتٍ خفيضٍ للغاية: «المشكلة، لقد وعدتُكِ ألَّا أسألكِ أي أسئلة، ولم أسألْك مطلقًا، أليس كذلك؟ لكن المشكلة ... إنها لن تدوم طويلًا، أليس كذلك؟»

قالت أمها: «بلى، سوف تنتهي أسوأ مشاكلنا عندما يعود والدكِ إلينا.»

قالت بوبي: «ليتني أملك مساعدتك.»

«أوه، يا حبيبتي، أتظنين أنكِ لا تساعدينني؟ أتظنين أني لمْ أُلاحظ كيف كنتم جميعًا تُحسِنون التصرف، وكيف أنكم لمْ تتشاجروا مثلما كنتم تتشاجرون من قبل،

وأني لم ألاحظ كل الأشياء الصغيرة اللطيفة التي تفعلونها من أجلي؛ الورود، وتنظيف حذائي، وإسراعكم إلى ترتيب فراشي قبل أن أتمكن من ترتيبه بنفسي؟»

كانت بوبي تتساءل أحيانًا إن كانت أمها تلاحظ هذه الأشياء.

وقالت: «إن هذا لا يُذكَر، مقارنةً بما ...»

قالت أمها وهي تضم بوبي ضمةً أخيرة: «يجب أن أواصل عملي. لا تقولي أي شيءٍ للآخرَين.»

في الساعة السابقة لوقت النوم من مساء ذلك اليوم لمْ تقرأ لهم أمهم، وإنما راحت بدلًا من ذلك تحكي لهم قصصًا عن الألعاب التي اعتادت أن تلعبها هي ووالدهم عندما كانا صغيرَين، وكانا يسكنان متجاورَين في القرية؛ حكاياتٍ عن المغامرات التي خاضها أبوهم مع إخوة أمهم عندما كانوا جميعًا صِبيةً بعضهم مع بعض. كانت قصصًا مضحكةً للغاية، وكان الأطفال يضحكون وهم يسمعونها.

قالت فيليس عندما أضاءت أمُّها شموع غرفة النوم: «لقد تُوفي خالي إدوارد في سن صغيرة، أليس كذلك؟»

قالت أمها: «بلى يا حبيبتي. كنتِ ستُحبينه لو رأيتِه. لقد كان صبيًّا شجاعًا جدًّا، وكان مولعًا بالمغامرات. ودائمًا ما كان يشاغب، لكنه برغم هذا كان صديقًا جيدًّا للجميع. وخالك ريجي في سيلان؛ نعم، ووالدك مسافرٌ أيضًا. لكنني أظن أنهم جميعًا كانوا سيَسعدون لو علموا أننا استمتعنا بالحديث عن الأشياء التي كانوا يفعلونها. ألا تعتقدين هذا؟»

قالت فيليس بنبرةٍ تُعبِّر عن الصدمة: «ما عدا خالي إدوارد. إنه في السماء.»

«لا تظني أنه، لأن الرب قبضه إليه، قد نسينا ونسي الأيام الخواليَ كلها مثلما لم أنسَه أنا. أوه، لا، بل إنه يذكر. إنه فقط غائبٌ لمدةٍ قصيرة. وسوف نراه يومًا ما.»

سألها بيتر: «وسنرى خالي ريجي؛ وأبي أيضًا؟»

قالت أمه: «نعم، وخالك ريجي وأباك أيضًا. طابت ليلتكم يا أحبائي.»

قال الجميع: «طابتْ ليلتُكِ.» ضمتْ بوبي أمَّها إليها بشدةٍ أكبر من المعتاد، وهمست في أذنها قائلةً: «أوه، أُحبكِ كثيرًا يا أمي، أحبكِ ... أحبك ...»

عندما جلست بوبي أخيرًا تتأمل الأمر برُمته، حاولتْ ألَّا تتساءل ما هي المشكلة الكبرى. لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك طيلة الوقت. إن أباها لمْ يَمُتْ — مثلما حدث لخالها المسكين إدوارد — لقد قالت أمها هذا. كما أنه لم يكن مريضًا، وإلَّا لظلت

أمها إلى جواره. ولم تكن المشكلة أنهم فقراء. لقد أدركت بوبي أنها مشكلة تؤلم القلب أكثر مما قد يؤلمه المال.

قالت بوبي تُحدِّث نفسها: «يجب ألَّا أُحاول التفكير في طبيعة هذه المشكلة، لا، يجب ألا أفعل. أنا سعيدةٌ لأن أمي لاحظتْ أننا لا نتشاجر كثيرًا. سوف نواظب على ذلك.»

لكن وا أسفاه؛ لقد وقع بينها وبين بيتر بعد ظهر ذلك اليوم نفسِه ما أسماه بيتر مشاجرةً من الدرجة الأولى.

لم يكن قد مر عليهم أُسبوعٌ في المنزل ذي الثلاث المداخن حتى طلبوا من أمهم أن تسمح لكلٍّ منهم بالحصول على جزءٍ من الحديقة لنفسه، وقد وافقتْ، وقُسِم الطرفُ الجنوبي الواقع تحت أشجار الدُّرَّاق إلى ثلاثة أجزاءٍ وسُمِح لكلٍّ منهم بزراعة ما يحبه هناك.

زرعتْ فيليس البُليحاء العطرية وأبا خنجر وزهرة فيرجينيا في جزئها. بدأت البذور تنبت، ورغم أن النباتات بدَتْ شبيهةً تمامًا بالعُشب البري، فقد اعتقدت فيليس أنها ستُنبِت أزهارًا يومًا ما. وقدمتْ زهرةُ فيرجينيا ما سوغ اعتقادها خلال وقتٍ قصيرٍ جدًّا، وزهَتْ حديقتُها بزُمرةٍ من الزهور الصغيرة البهية، فكان منها الوردي والأبيض والأحمر والبنفسجي الفاتح.

كانت فيليس تقول بارتياح: «لا أستطيع أن أزيل الأعشاب الضارة لأنني أخشى أن أقتلع ما لا ينبغي اقتلاعه، وهذا يوفر عليَّ الكثير من العمل.»

أما بيتر فبذر بذور الخضراوات من الجزر والبصل واللفت في جزئه من الحديقة. لقد حصل على البذور من المزارع الذي كان يعيش في المنزل الجميل المصنوع من الخشب والجص والمدهون باللونَين الأبيض والأسود الواقع خلف الجسر مباشرةً. لقد كان يربي الديوك الرومية والدجاج الحبشي، وكان رجلًا ودودًا للغاية. لكن خضراوات بيتر لمْ تحظَ قط بفرصةٍ مناسبة للإنبات؛ لأنه كان يُحِب استخدام تربةَ حديقته في حفر القنوات، وبناء القلاع والتحصينات الميدانية لجنوده من اللُّعب. ونادرًا ما تزدهر بذور الخضراوات في تربةٍ مرهقة دائمًا بأغراض الحرب والري.

أما بوبي، فزرعت شجيرات الورد في حديقتها، لكنَّ جميع الأوراق الصغيرة النابتة حديثًا في شجيرات الورد تغضنَت وذبلت، ربما لأنها نقلَتْها من الجزء الآخر من الحديقة في شهر مايو، وليس هذا هو الوقت المناسب من العام بأي حالٍ من الأحوال لنقل الورد. لكنها لمْ تشأ أن تعترف بموتها، وظلتْ تُرجِّي ما لا يُرجَّى، حتى أتى اليوم الذي جاء فيه بيركس لرؤية الحديقة، وقال لها بكل وضوح إن جميع ورودها قد ماتت إلى الأبد.

قال بيركس: «لا تصلح سوى حطبٍ للنيران يا آنستي. فقط اقتلعيها من التربة وأحرقيها، وسوف أعطيكِ بعض الجذور الطازَجة الجيدة من حديقتي؛ البنفسج الثالوث، ونبات المنثور، والقَرنفُل الملتحي، وزهور أذن الفأر. سأحضرها معي غدًا إذا جهزتِ التربة.»

وهكذا بدأت بوبي العمل في اليوم التالي، وتصادف أنْ كان هذا هو اليوم الذي مدحَتها فيه أمُّها ومدَحَت الآخرين لأنهم لا يتشاجرون. نقلت بوبي شجيرات الورد وحملتها إلى الطرَف الآخر من الحديقة، حيث صار كوم مخلفات الشجيرات بالشكل الذي أرادوه من أجل إحراقه في احتفالات يوم جاي فوكس.

في هذه الأثناء كان بيتر قد قرر أن يُسوِّي كل قلاعه وتحصيناته الميدانية بالأرض، وذلك بغرض بناء نموذجٍ لنفق السكة الحديدية المغلق، والنفق المكشوف الذي تمر فيه قضبان السكة الحديدية، والسد، وقناة الماء، وقنطرة الماء، والجسور، وكل شيء.

وهكذا عندما عادت بوبي من آخر رحلاتها الشائكة مع شُجيرات الورد الميتة، أخذ بيتر مجرفة الحديقة وراح يعمل بها بنشاط.

قالت بوبي: «لقد كنتُ أستعمل مجرفة الحديقة.»

قال بيتر: «حسنٌ، وأنا أستعملها الآن.»

قالت بوبي: «لكنني مَن استعملتُها أولًا.»

قال بيتر: «إذن إنه دوري أنا الآن.» وهكذا بدأت المشاجرة.

قال بيتر بعد نقاشٍ ساخن: «إنكِ دائمًا ما تُصبِحين فظَّة بسبب أشياء تافهة.»

قالت بوبي بتحدٍّ وقد احمرَّ وجهها، ويدُها مُطبِقةٌ على مقبض مجرفة الحديقة: «لقد أخذتُ مجرفة الحديقة قبلك.»

«لا تفعلي هذا؛ صدقيني لقد قلتُ في هذا الصباح إنني أعتزم أخذها. ألم أقُل هذا يا فِل؟»

قالت فيليس إنها لا تريد أن يُقحِموها في مشاحناتهما. لكنها ما لبثَتْ أنْ أُقحِمتْ بالطبع.

«إذا كنتِ تتذكرين، فإن عليكِ أن تتكلمي.»

«إنها بالطبع لا تذكر؛ لكن يمكنها أن تقول هذا.»

قال بيتر: «ليت كان لي أخٌ بدلًا من أختَين صغيرتَين متذمرتَين سخيفتَين.» كانتا تعرفان دائمًا أن هذه الكلمات تشير إلى أن بيتر قد وصل إلى ذروة غضبه.

أجابت بوبي بإجابتها المعتادة على كلماته تلك.

«لا أدري لماذا اخترعوا الصبيان الصغار أصلًا.» وما إن قالتها حتى نظرتْ إلى أعلى، ورأت النوافذ الطويلة الثلاث في ورشة أمها تلتمع في أشعة الشمس الحمراء. لقد أعاد المنظرُ إلى ذاكرتها كلمات الثناء تلك:

«إنكم لا تتشاجرون كما كنتم تتشاجرون من قبل.»

«يا إلهي!» هكذا صاحت بوبي، وكأنها تلقتْ ضربةً، أو أقفلت أحدَ الأبواب على إصبعها، أو أحستْ ببدايات ألم الأسنان المبرحة البشعة.

قالت فيليس: «ما الأمر؟»

أرادت بوبي أن تقول: «فلنكف عن الشجار. إن أمنا تكرهه بشدة.» ولقد حاولتْ جاهدةً، لكنها برغم هذا لم تستطع أن تقولها؛ فلقد بدا بيتر مسيئًا وشديد الفظاظة.

كان أفضل ما تمكنتْ من قوله: «فلتأخذ مجرفة الحديقة البغيض إذن.» وأرختْ يدها فجأةً من على المقبض. كان بيتر يشده إليه وهو مُحكِمٌ قبضته عليه بقوة، والآن، ولأن الجذب من الناحية الأخرى قد توقف فجأةً، فقد أخذ يترنح ثم انكفأ على ظهره، ووقعتْ أسنان مجرفة الحديقة بين قدمَيه.

قالت بوبي، ولمْ تتمكن من كبح نفسها: «تستحقها.»

ظل بيتر في مكانه نصف دقيقة؛ وهي مدة كافيةٌ لإخافة بوبي قليلًا. ثم زاد في تخويفها بعض الشيء؛ إذ نهض من مكانه، وصرخ صرخةً واحدة، واستحال وجهه إلى شيءٍ من الشحوب، ثم ارتمى على الأرض مرةً أخرى وبدأ يصيح، بوهن ولكن من دون انقطاع. بدا الصوتُ أشبه تمامًا بصوت خنزيرٍ يُقتَل على بُعد ربع ميل منهم.

أخرجَت أمهم رأسها من النافذة، ولمْ تمضِ نصفُ دقيقةٍ حتى كانت جاثيةً على ركبتَيها في الحديقة إلى جوار بيتر، الذي لمْ يكف لحظةً واحدةً عن الصياح.

سألت الأم: «ماذا حدث يا بوبي؟»

قالت فيليس: «إنها مجرفة الحديقة، كان بيتر يشدها إليه، وكذلك بوبي، وقد تركَتْها فسقط بيتر على ظهره.»

قالت الأم: «توقف عن هذا الضجيج يا بيتر. تعالَ. توقف في الحال.»

وضع بيتر كُلَّ ما تبقى من أنفاسه في صيحةٍ واحدةٍ أخيرةٍ ثم توقف.

قالت الأم: «والآن، هل تأذيت؟»

قالت بوبي وهي لا تزال ترتجف من شدة الغضب: «لو كان فعلًا تأذَّى لما أحدث مثل هذه الضجة؛ إنه ليس هلوعًا!»

قال بيتر مُغضَبًا: «أظن أن قدمي قد كُسرت، هذا كل شيء.» ونهض. ثم استحال لونه إلى شحوبٍ كامل. طوقته أمه بذراعها.

وقالت: «لقد تأذى بالفعل. لقد أُغمي عليه. تعالَي يا بوبي، اجلسي وضعي رأسه في حجرك.»

بعد ذلك فكت الأم نعلَي بيتر. وخلعَت اليُمنى منهما، فقَطَرَ من قدمه شيءٌ على الأرض. كان دمًا أحمر اللون. وعندما نزعتْ أمه الجورب وجدتْ ثلاثة جروحٍ حمراء في قدمه وكاحله، في المكان الذي جرحتْه فيه أسنانُ مجرفة الحديقة، ووجدت اللطخات الحُمر تُغطي قدمه.

قالت الأم: «أسرعي بإحضار الماء؛ أحضري جفنةً مملوءة.» فأسرعت فيليس لتحضرها. قلبتْ معظم ما في الجفنة من ماء بسبب استعجالها، واضطُرَّت إلى جلب المزيد منه في دورق.

لم يفتح بيتر عينَيه من جديد إلَّا وكانت أمه قد ربطتْ منديلها حول قدمه، وحملتْه هي وبوبي إلى داخل البيت ووضعتاه على المقعد الخشبي البني الطويل في غرفة المائدة. في ذلك الوقت كانت فيليس قد قطعتْ نصف المسافة في طريقها إلى الطبيب.

جلست الأم إلى جوار بيتر وراحت تغسل قدمه وتكلمه، وخرجت بوبي من الغرفة وأعدت الشاي، ووضعت الغلاية.

أخذت بوبي تُحدث نفسها قائلةً: «هذا كل ما أستطيع أن أفعله. يا إلهي، ماذا لو مات بيتر، أو أصبح مُقعدًا عاجزًا لبقية حياته، أو اضطُر إلى المشي بعكازَين، أو لبْسِ حذاءٍ طويلٍ ذي نعلٍ شبيهةٍ بكتلةٍ خشبية!»

وقفتْ بجانب الباب الخلفي تتفكر في هذه الاحتمالات الكئيبة، وعيناها مثبتتان على برميل الماء.

«يا ليتني لمْ أُولَد أبدًا.» هكذا قالت بوبي، وقالتها بصوتٍ عالٍ.

جاءها صوت يتساءل: «يا إلهي، رحماك يا ربنا! لمَ تقولين هذا؟» ووقف بيركس أمامها ومعه قُفةٌ بستانيٍّ خشبيةٌ مليئةٌ بأشياء ذات أوراق خضراء، وتراب ناعم.

قالت بوبي: «يا إلهي، إنه أنت. لقد جرح بيتر قدمه بمجرفة الحديقة؛ ثلاثة جروحٍ كبيرةٍ غائرة، كالتي يُصاب بها الجنود. وقد كان لي يدٌ فيما أصابه.»

قال بيركس: «سوف أشهد بأنها لمْ تكن غلطتكِ. هل رآه الطبيب؟»

«فيليس ذهبت لإحضار الطبيب.»

قال بيركس: «سوف يتعافى، تأكدي من هذا. يا إلهي، لقد دخلت مِذراةٌ قش في جسم حفيد عم والدي، اخترقت جسمه تمامًا، ولقد عادت صحته إلى سابق عهدها في أسابيع قليلة، باستثناء وهن خفيف فقط أصاب دماغه فيما بعد، وقد قالوا إن سببه أنه أُصيب بضربة شمسٍ خفيفةٍ في حقل القش، ولم يكن بسبب المذراة على الإطلاق. إنني أذكره جيدًا. لقد كان رجلًا طيب القلب، لكنه ضعيف، إذا صح القول.»

حاولت بوبي أن تبتهج بهذه الذكرى المشجعة.

قال بيركس: «حسنٌ، أظن أنكِ لن ترغبي في تجشُّم عناء العناية بالحديقة الآن. أريني مكان حديقتكِ، وسأضع لكِ هذه الأشياء هناك. وسأنتظر، إذا كان لي أن أتصرف من دون أي تكليف هكذا، لأرى الطبيب عندما يخرج وأعرف ما سيقول. هوني عليكِ يا آنستي. أُراهنكِ أنه لمْ يُجرَح كذلك.»

لكنه كان قد جُرِح. لقد أتى الطبيبُ ورأى القدم وضمَّدها جيدًا، وقال إن على بيتر ألَّا يطأ بها الأرض لمدة أسبوعٍ على الأقل.

همست بوبي من عند الباب، بأنفاسٍ متقطعة من الفزع: «هل سيُصبِح كسيحًا، أو يُضطَر إلى السير بعُكازَين، أو لبس كتلةٍ خشبية في قدمه، هل سيفعل هذا؟»

قال الدكتور فوريست: «يا للهول! لا! بل سيسير على قدمَيه برشاقةٍ كما كان دائمًا خلال أسبوعَين. لا تقلقي يا صغيرتي.»

عندما رافقتْ أمهم الطبيبَ إلى البوابة كي تأخذ تعليماته الأخيرة، وراحت فيليس تملأ الغلاية من أجل الشاي، أصبح بيتر وبوبي بمفردهما.

قالت بوبي: «إنه يقول إنك لن تُصبح كسيحًا أو تُصاب بأي شيء.»

قال بيتر وقد شعر بانشراحٍ كبيرٍ برغم ما قيل: «بالطبع لن أُصاب بشيءٍ أيتها الحمقاء.»

قالت بوبي بعد هُنيهة صمت: «يا إلهي، بيتر، أنا حقًّا آسفةٌ للغاية.»

قال بيتر بفظاظة: «لا بأس.»

قالت بوبي: «أنا التي تسببتُ في كل هذا.»

قال بيتر: «هذا هراء.»

«لو لم نتشاجر لما حدث ما حدث. كنتُ أعلم أن من الخطأ أن نتشاجر. لقد أردتُ أن أقول هذا، لكنني بطريقةٍ ما لمْ أستطع.»

قال بيتر: «كُفِّي عن هذه الحماقة. ما كان سيوقفني عن المشاجرة أن تقولي ذلك. بالتأكيد لا. وعلاوةً على هذا، فإن عراكنا لمْ يكن له أي علاقة بإصابتي. كان من الممكن أن أضرب قدمي بالمعزقة، أو أن تقتلع أصابعي ماكينةُ فرم القش، أو أن أُحرِق أنفي بالألعاب النارية. كانت قدمي ستُصاب سواءٌ تعاركنا أو لم نتعارك.»

قالت بوبي باكيةً: «لكنني كنتُ أعلم أن عراكنا خطأ، وقد أُصِبتَ الآن و...»

قال بيتر بلهجةٍ حاسمة: «اسمعيني جيدًا، كُفِّي عن الكلام. إذا لم تأخذي حذركِ، فستتحولين إلى متزمتةٍ بغيضةٍ من طالبات مدارس الأحد، صدقيني.»

«لا أقصد أن أكون متزمتة. لكن يشق على النفس جدًّا ألَّا تكون جيدًا رغم محاولاتك الجادة أن تكون كذلك.»

(ربما يكون القارئ الكريم قد عانى من هذه المعضلة.)

قال بيتر: «الأمر ليس هكذا، جميلٌ جدًّا أنه لمْ يكن أنتِ مَن أُصيب. أنا سعيدٌ أنني أنا الذي أُصبت. اهدئي! لو كنتِ أنتِ التي أُصبتِ، لرقدتِ على الأريكة وعلى وجهكِ ملامح ملاكٍ يُعاني ولأصبحتِ محطَّ اهتمام الأسرة القلقةِ وكل هذه الأشياء. وما كنتُ لأتحمل هذا.»

قالت بوبي: «لا، ما كنتُ سأفعل هذا.»

قال بيتر: «بلى، كنتِ ستفعلين.»

«أقول لك إنني لم أكن لأفعل هذا.»

«وأنا أقول إنك كنتِ ستفعلينه.»

جاء صوتُ أمهم من عند الباب: «أوه، يا أولاد، أتتشاجران ثانيةً؟ بهذه السرعة؟»

قال بيتر: «إننا لا نتشاجر؛ ليس بالضبط. ليتكِ لا تظنيننا نتشاجر في كل مرةٍ نختلف فيها!» عندما خرجتْ أمهما ثانيةً، انفجرت بوبي فجأةً:

«بيتر، أنا حزينةٌ حقًّا لإصابتك. لكنكَ وغدٌ لأنكَ تقول إنني متزمتة.»

قال بيتر، على خلاف المتوقع منه: «حسنٌ، ربما أكون كذلك. لقد قلتِ إنني لستُ هلوعًا، حتى وأنتِ في تلك الحالة من الغضب. إن ما أعنيه فقط؛ لا تكوني متزمتةً، هذا كل ما في الأمر. كوني على حذر وإذا أحسستِ بقدوم التزمُّت توقفي عنه في الوقت المناسب. هل فهمتِ؟»

قالت بوبي: «نعم، فهمت.»

قال بيتر بنبرة شهامة: «لنعتبرها هدنة إذن، ولندفن أسلحة العَداء في أعماق الماضي. لنتصافح على هذا. بوبي، عزيزتي، إنني أشعر بالتعب.»

ظل بيتر مُتعَبًا أيامًا عديدةً بعد ذلك، وبدا المقعد الخشبي الطويل صلدًا ومُتعِبًا رغم كل الوسائد والمساند والبطانيات الناعمة المطوية. كان من المؤلم ألَّا يكون قادرًا على الخروج من البيت. فنقلوا المقعد الخشبي الطويل إلى جوار النافذة، وتمكن بيتر وهو في ذلك المكان من رؤية دخان القطارات وهو يلتف على امتداد الوادي. لكنه لم يتمكن من رؤية القطارات.

كان من العسير جدًّا على بوبي في بداية الأمر أن تُعامله المعاملة الحسنة التي كانت تريد أن تعامله بها، وذلك خشيةَ أن يحسب أنها تُغالي في التمسك بالسلوك الحسن. لكن سرعان ما زال هذا الشعور، وأصبحتْ هي وفيليس، كما لاحظ هو، طيبتَين للغاية. كانت أمه تجلس معه عندما تكون أختاه خارج البيت. وجعلت عِبارةُ «إنه ليس هلوعًا» بيتر يعقد العزم على ألَّا يثير أي ضجةٍ حول الألم الذي في قدمه، رغم أن ألمه كان شديدًا بعض الشيء، خاصةً أثناء الليل.

إن المديح يفيد الناس كثيرًا، في بعض الأحيان.

لقد جاءه بعض الزوار كذلك. فجاءت زوجة السيد بيركس لتسأل عن حاله، وكذلك فعل ناظرُ المحطة، والعديد من سكان القرية. لكن الوقت مرَّ عليه ببطءٍ شديد.

قال بيتر: «ليتني أجد شيئًا أقرؤه. لقد قرأت كتبنا كلها خمسين مرة.»

قالت فيليس: «سأذهب إلى عيادة الطبيب. من المؤكد أن لديه بعضَ الكتب.»

قال بيتر: «فقط عن كيفية الإصابة بالأمراض، وعن الأجزاء الداخلية المقززة من أجسام الناس، أتوقع هذا.»

قالت بوبي: «إن لدى بيركس كومةً كاملةً من المجلات التي يُخرِجونها من القطارات عندما يملُّ الناس من قراءتها. سأذهب إليه وأطلبها منه.»

وهكذا ذهبت كل واحدةٍ من البنتَين في طريقها.

وجدت بوبي بيركس مشغولًا بتنظيف المصابيح.

قال بيركس: «وكيف حال الفتى الصغير؟»

قالت بوبي: «أفضل من ذي قبل، أشكرك. لكنه يشعر بمللٍ شديد. لقد جئتُ لأسألك إن كان لديكَ أي مجلاتٍ تستطيع أن تُعيرها إياه.»

قال بيركس بتأسفٍ وهو يحك أذنه بقطعة قطنٍ سوداء مشبعةٍ بالزيت: «يا إلهي، الآن، لماذا لمْ يخطر ذلك ببالي، الآن؟ لقد كنتُ أُحاول التفكير في شيءٍ يُسليه في صباح هذا اليوم تحديدًا، ولمْ أهتدِ إلى أي شيءٍ أفضل من أرنب غينيا. وسيذهب به إليه اليوم في وقت تناول الشاي فتًى من معارفي.»

«يا للروعة! أرنب غينيا حقيقي! سوف يسعد به بيتر. لكنه سيريد المجلات أيضًا.»

قال بيركس: «هذه تحديدًا هي المشكلة. لقد أرسلتُ أفضلها لتوِّي إلى ابن سنيجسون، الذي تعافى لتوه من الالتهاب الرئوي. لكن لا يزال لدي الكثيرُ من الجرائد المصورة.»

التفت بيركس إلى القدر الهائل من الجرائد التي في ركن الغرفة وأخذ منها كومةً بسُمك ستِّ بوصات.

وقال: «جيد! سوف أَلفُّها فقط بقطعة خيط وورقة جريدة.»

سحب بيركس جريدةً قديمةً من بين كومة الجرائد وبسطها فوق المنضدة، وصنع منها طردًا أنيقًا.

وقال: «ها نحن ذا، إن فيها الكثيرَ من الصور، ولو أراد أن يعبث فيها بعلبة ألوانه أو بطباشيره الملون، دعيه يفعل. أنا لا أريدها.»

قالت بوبي: «إنكَ رجلٌ لطيف.» ثم تناولت الطرد وانطلقت. كانت الجرائد ثقيلةً، وعندما اضطُرَّت إلى الوقوف عند المزلقان ريثما يمر أحد القطارات، أسنَدت الطرد فوق الحاجز الحديدي. وألقتْ نظرةً عشوائيةً على الكلام المطبوع على صفحة الجريدة التي تُغلِّف الطرد.

فجأةً أحكمَت قبضتها على الطرد بقوةٍ أكبر وأحنَت رأسها فوقه. بدا وكأنها في كابوسٍ فظيع. وراحت تقرأ، لكن الجزء الأخير من العمود في الجريدة كان مقطوعًا، ولمْ تستطع أن تقرأ أكثر مما قرأتْه.

لم تتذكر قطُّ كيف وصلتْ إلى البيت. لكنها سارت على أطراف قدمَيها إلى غرفتها وأغلقت الباب. بعد ذلك فكَّت الطرد وراحت تقرأ ذلك العمود من الجريدة مرةً أخرى، كانت تجلس على حافَة سريرها، وكانت يداها وقدماها في برودة الثلج وكان وجهها مُتقدًا. بعدما قرأت الكلام المكتوب كله، أخذت نفسًا طويلًا غير منتظم.

وقالت: «لقد عرَفتُ الآن إذن.»

كان عنوان ما قرأته: «نهاية المحاكمة. القرار. العقوبة.»

كان اسمُ الرجل الذي يُحاكَم هو اسم أبيها. كان الحُكم «مُدان»، وكانت العقوبة «خمس سنواتٍ من السجن مع الأشغال الشاقة.»

همست بوبي وهي تسحق الورقة بيدها بقوة: «آهٍ يا أبي، هذا ليس صحيحًا؛ أنا لا أُصدقه. إنكَ لم تفعلها أبدًا! أبدًا، أبدًا، أبدًا!»

كان ثمة طرقٌ على الباب.

قالت بوبي: «ما الأمر؟»

سمعتْ صوت فيليس تقول: «إنه أنا. الشاي جاهز، وقد أحضر صبي أرنب غينيا لبيتر. تعالي إلى الأسفل.»

واضطُرَّت بوبي إلى النزول.

الفصل الحادي عشر

كلب الصيد ذو الصدرة الصوفية الحمراء

عرَفَت بوبي السر الآن. صفحةٌ من جريدةٍ قديمةٍ تُغلِّف طردًا — مجرد صدفة صغيرةٍ مثل هذه — كشفَت لها السر. وكان عليها أن تنزل لتناول الشاي وأن تتظاهر بأنه لم يكن ثمة مشكلة. تظاهرَتْ بوبي بما أرادت التظاهر به في شجاعة، لكنَّ تظاهرها لم ينجح النجاح المرجو.

فعندما دخلَت عليهم رفع الجميع رءوسهم عن الشاي ورأوا عينَيها المتوردتَي الجفنَين ووجهَها الشاحبَ وقد تناثرت عليه بقعٌ حمراء من أثر الدموع.

صاحت أمها وقد هبَّتْ واقفةً عن صينية الشاي: «ما لكِ يا حبيبتي، ما الأمر؟»

قالت بوبي: «إن رأسي يُؤلمني، قليلًا.» وكان يؤلمها بالفعل.

سألتها أمها: «هل حدث أي مكروه؟»

قالت بوبي: «أنا بخير، حقًّا.» وأرسلت إلى أمها بعينَيها المتورمتَين هذه البرقية المتوسِّلة المختصرة: «ليس أمام الآخرين!»

لم تكن البهجة ترافق وجبة الشاي. كان بيتر مبتئسًا للغاية لأنه لمْ يكن خافيًا أنَّ شيئًا ما مُروعًا قد أصاب بوبي، لدرجة أنه قَصَر كلامَه على تكرار عبارة: «المزيد من الخبز والزبد من فضلك.» على فتراتٍ قريبةٍ بصورة مفزعة. أخذت فيليس تربت على يد أختها من تحت المنضدة لتُعبِّر لها عن تعاطفها معها، وسكبت فنجان لبنها وهي تفعل هذا. ساعد بوبي قليلًا أن تُحضِر قطعة قماشٍ وتجفف بها اللبن المسكوب. لكنها أحسَّت أن وجبة الشاي لن تنتهيَ أبدًا. ولكنها انتهت أخيرًا، كما تنتهي جميعُ الأشياء في نهاية المطاف، وعندما أخرجَت أمهم صينية الشاي، تبعتْها بوبي.

قالت فيليس لبيتر: «لقد ذهبت لتعترف بخطأٍ عمِلَتْه. تُرى ماذا فعلت.»

قال بيتر: «أظنها كسرتْ شيئًا ما. لكن ما كان عليها أن تتصرف بكل هذه السخافة من أجله. إن أمنا لا تتشاجر أبدًا حول الحوادث العارضة التي تقع دون قصد. أنصتي! نعم، إنهما تصعدان إلى الطابق العلوي. إنها تصحب أمنا إلى الأعلى لتُريَها ... دورقَ الماءِ المرسومَةَ عليه طيورُ اللقلاق، أتوقع أن يكون هذا ما تحطم.»

كانت بوبي، وهما في المطبخ، قد أمسكتْ بيد أمها بعدما وضعتْ أغراض الشاي.

فسألتها أمها: «ما الأمر؟»

لكنَّ بوبي لمْ تزد على أن قالت: «تعالَي إلى الطابق العلوي، تعالَي نصعد إلى حيث لا يستطيع أحدٌ أن يسمعنا.»

عندما انفردتْ بوبي بأمها في غرفتها أغلقتِ الباب ثم ظلتْ واقفةً بلا حراك في مكانها، ولمْ تنطق بكلمة.

لقد كانت تفكر طوال وقت الشاي فيما ستقوله؛ وكانت قد قررت أن عباراتٍ من قبيل «إنني أعرف كل شيء.» أو «لقد تبين لي كل شيء.» أو «لم يعد السرُّ الرهيب سرًّا بعد.» ستكون هي الأنسب. لكنها عندما أُفردت هي وأمها وورقة الجريدة المُخيفة تلك في الغرفة، وجدتْ نفسها عاجزةً عن قول أي شيء.

فجأةً توجهتْ إلى أمها وطوقتها بذراعَيها وانخرطتْ في البكاء من جديد. وظلتْ عاجزةً عن الكلام، سوى عن قول: «آهٍ يا أماه، آهٍ يا أماه، آهٍ يا أماه.» وأخذت تكررها مرةً بعد أخرى.

ضمتها أمها إليها بشدةٍ وانتظرتْ.

فجأةً تركتها بوبي وذهبتْ إلى فراشها. ومن تحت مرتبتها سحبت ورقة الجريدة التي كانت تخبئها هناك، وفتحتها، ثم أشارت إلى اسم أبيها بإصبعٍ مرتعشة.

عندما عرَفتْ أمُّها من نظرةٍ صغيرةٍ خاطفةٍ واحدةٍ ما الذي أرتها بوبي إياه صاحتْ قائلة: «يا إلهي، بوبي. إنكِ لا تصدقين هذا، أليس كذلك؟ لا تُصدقين أن أباكِ قد فعل هذا، أليس كذلك؟»

كادتْ بوبي تصرخ تقريبًا وهي تقول: «بلى، لا أُصدق.» وتوقفتْ عن البكاء.

قالت أمها: «لا بأس. إنه غير صحيح. ولقد زجوا به في السجن، لكنه لمْ يرتكب أي خطأ. إنه رجلٌ صالحٌ وشهمٌ وشريف، وهو واحدٌ منَّا. يجب أن نؤمن بهذا، وأن نفتخر به، وأن نصبر.»

احتضنت بوبي أمَّها من جديد، ومرةً أخرى لم تُسعفها سوى كلمةٍ واحدة، لكن في هذه المرة كانت الكلمة: «أبي» ثم «آهٍ يا أبي، آهٍ يا أبي، آهٍ يا أبي!» مرةً بعد مرة.

ثم سألت بعد مدةٍ قصيرة: «لماذا لمْ تخبريني يا أمي؟»

سألتها أمها: «وهل ستخبرين أنتِ الآخرين؟»

«لا.»

«ولمَ؟»

«لأنه …»

قالت أمها: «بالضبط، إذن لقد عرفتِ لماذا لمْ أُخبركِ. يجب أن تساعد إحدانا الأخرى على التحلي بالشجاعة.»

قالت بوبي: «نعم. أمي، هل سيَزيد من حزنك أن تخبريني كل شيءٍ عن الأمر؟ أريد أن أفهم.»

وهكذا استمعتْ بوبي — وهي جالسةٌ وأمُّها تضمها إليها بقوةٍ — استمعتْ إلى «كل شيءٍ عن الأمر.» سمعتْ كيف أن ذَينِك الرجلَين، اللذَين طلبا مقابلةَ أبيها في تلك الليلة الأخيرة التي لم تُفارق أذهانهم عندما كانوا يُصلِحون القاطرة اللعبة، كيف أنهما إنما جاءا ليقبضا عليه، وكيف أنهما اتهماه ببيع أسرار الدولة للرُّوس؛ وبأنه في الحقيقة جاسوسٌ وخائن. سمعت بوبي عن المحاكمة، وعن الأدلة؛ التي كانت عبارة عن رسائل، وقد عُثِر عليها في مكتب أبيها في مقر عمله، رسائل أقنعَت هيئةَ المحلَّفين بإدانةِ أبيها.

صاحت بوبي: «يا إلهي، كيف ينظرون إليه ثم يُصدِّقون هذه التهمة! وكيف يمكن لأي أحدٍ أن يصدقها!»

قالت أمها: «لقد صدقها شخصٌ ما، وقد كانت الأدلة كلها ضد أبيك. تلك الرسائل …»

«نعم. كيف وصلت الرسائل إلى داخل مكتبه؟»

«لقد وضعها أحدُهم هناك. والشخص الذي وضعها هناك كان هو المُذنب في الحقيقة.»

قالت بوبي في تمعن وتدبر: «لا بد أنه يشعر باستياءٍ شديدٍ من نفسه طوال ذلك الوقت.»

قالت أمها في انفعال: «لا أظن أن لديه أيَّ مشاعر. لو كانت لديه مشاعر لما فعل شيئًا مثل هذا.»

«لعله دس الرسائل في المكتب فقط ليُخفِيَها عندما ظنَّ أن أمره سيُكتشَف. لماذا لا تخبرين المحامين، أو أحدًا ما، بأنه لا بد أن ذلك الشخص هو الذي فعلها؟ ما كان أحد ليتعمَّد إيذاء أبي، أليس كذلك؟»

«لا أعرف، لا أعرف. لقد كان مرءوس أبيكِ في العمل والذي أخذ مكانه بعدما … بعدما وقعتْ تلك المصيبة؛ كان يغار من أبيكِ دائمًا؛ لأن أباكِ كان ماهرًا جدًّا وكان الجميعُ يحترمونه للغاية. كما أن أباكِ لمْ يكن يثق في ذلك الرجل مطلقًا.»

«ألا يمكننا أن نشرح هذا كله لأحدٍ ما؟»

قالت أمها بمرارةٍ شديدة: «لا أحد سيسمعنا؛ لا أحد على الإطلاق. أتظنين أني لمْ أُجرِّب كل شيء؟ لا يا حبيبتي، ليس أمامنا ما نفعله. كل ما يمكننا فعله، أنا وأنتِ وأبوكِ، أن نتحلى بالشجاعة والصبر و…» كانت تتكلم بهدوءٍ شديد، وأضافت: «وأن ندعو يا حبيبتي بوبي.»

قالت بوبي فجأةً: «أمي، لقد أصبحتِ نحيلةً جدًّا.»

«نحلتُ قليلًا، ربما.»

قالت بوبي: «و… يا إلهي، إنني حقًّا أراكِ أشجعَ إنسانٍ في الدنيا وألطفَ إنسانٍ كذلك!»

قالت أمها: «لن نتكلم عن هذا كله بعد الآن، أليس كذلك يا عزيزتي؟ يجب أن نتحمل وأن نتحلى بالشجاعة. وحاولي يا حبيبتي ألَّا تفكري في الأمر. حاولي أن تبتهجي، وأن تُسعِدي نفسكِ والآخرين. سوف تَهون المحنةُ على نفسي كثيرًا إذا استطعتم أن تَسعدوا قليلًا وأن تستمتعوا بالأشياء. اغسلي وجهَكِ المستدير المسكين الصغير، وتَعالَي نخرج إلى الحديقة قليلًا.»

كان الاثنان الآخران في غاية الرقة والطيبة مع بوبي. كما أنهما لمْ يسألاها عن الأمر. كانت هذه فكرةَ بيتر، وقد درب فيليس التي كان لتسأل مائةَ سؤالٍ لو أنها تُرِكَت لنفسها.

بعد مرور أسبوعٍ تمكنت بوبي من الخلوة بنفسها. ومن جديدٍ كتبَت رسالة. ومن جديدٍ كانت الرسالة إلى السيد العجوز.

> قالت بوبي: صديقي العزيز، أترى المكتوب في هذه الجريدة؟ إنه غير صحيح. إن أبي لمْ يرتكب هذه الجريمة قط. إن أمي تقول إن شخصًا ما قد وضع الأوراق في مكتب أبي، وتقول إن الرجل الذي كان يرأسه أبي والذي أخذ مكانه فيما بعد كان يغار من أبي، وإن أبي ظل يشك فيه مدةً طويلة. لكنَّ أحدًا لمْ يُنصِت لكلمةٍ مما قالته، ولكنكَ طيب وبارع جدًّا، وقد عرَفتَ مكان زوجة السيد الروسي في الحال. ألا تستطيع أن تكتشف الخائن؟ لأنه ليس أبي، قسمًا

بشرفي؛ إن أبي إنجليزي مخلصٌ لبلده ولا يستطيع ارتكاب مثل هذه الأشياء، وساعتها سيُخرِجون أبي من السجن. إنه أمرٌ فظيع، وأمي آخذةٌ في النحول. لقد طلبتْ منا ذات مرةٍ أن نُصليَ من أجل جميع السجناء والأسرى. لقد فهمتُ الآن. يا إلهي، أرجوك ساعدني؛ لا أحد يعرف بالأمر سواي أنا وأمي، ولا نستطيع عمل أيِّ شيء. بيتر وفِل لا يعلمان شيئًا. سوف أُصلي من أجلكِ مرتَين كل يومٍ طوال حياتي لو أنكَ حاولتَ فقط؛ فقط حاول اكتشاف الخائن. تخيل أنه كان أباك أنتَ، بمَ كنتَ ستشعر؟ أرجوك، ساعدني، ساعدني، ساعدني. لك كل الحُب.

صديقتُك المخلصةُ دائمًا

روبيرتا

ملحوظة: كانت أمي سترسل لك طيِّبَ تحياتها لو علمتْ أنني أكتب إليك؛ لكن لا فائدة من إخبارها بذلك، إذا لم تستطع فعل شيء. لكنني أعرف أنك ستستطيع. المُحبة بوبي.

قطعتْ بوبي بمقص أمها الكبير ذلكَ الجزءَ من الجريدة الذي يتناول محاكمة أبيها، ووضعتْه في المظروف مع رسالتها.

بعد ذلك أخذت المظروف إلى المحطة، وقد خرجتْ من الجهة الخلفية واستدارت حول الطريق، وذلك حتى لا يراها الآخران ويعرضا عليها القدوم معها، وأعطت الرسالة لناظر المحطة كي يُعطيها للسيد العجوز في صباح اليوم التالي.

صاح بيتر، من فوق سور الفناء حيث كان يجلس هو وفيليس: «أين كنتِ؟»

قالت بوبي: «كنت في المحطة بالطبع. ناولني يدكَ يا بِيت.»

وضعتْ بوبي قدمها على قفل باب الفناء، ومد لها بيتر يده.

«ماذا هنالك؟» هكذا سألتهما بوبي عندما وصلت إلى أعلى السور؛ فقد كان فيليس وبيتر مُلطَّخَين تمامًا بالوحل. كانت كتلة من الطين الرطب موضوعةً بينهما فوق السور، وكان كلٌّ منهما يُمسِك كسرةً من لوحِ أردواز بيدٍ شديدة الاتساخ، كما كان خلف بيتر — في مكانٍ آمن بعيدٍ عن يد الحوادث — عدة أشياء غريبة مستديرة تكاد تشبه قطع نقانق ممتلئة للغاية، كانت مجوفةً، لكنها كانت مغلقةً من أحد أطرافها.

قال بيتر: «إنها أعشاش، أعشاشٌ لطيور السنونو. سوف نُجفِّفها في الفرن، ثم نُعلِّقها بخيط تحتَ أفاريز مرأب العربات.»

قالت فيليس: «نعم، ثم سنجمع كل ما نستطيع تجميعه من الصوف والشعر، وسننظم الأعشاش في صفوفٍ عندما يأتي فصل الربيع، ويا للسعادة التي ستحظى بها طيور السنونو عندئذٍ!»

قال بيتر بنبرةٍ توحي بالفضيلة: «كثيرًا ما جال بذهني أن الناس لا يكادون يبذلون ما يكفي الحيوانات العجماء. أعتقد أن الناس ربما يكونون قد فكروا في صناعة أعشاشٍ لطيور السنونو المسكينة من قبل.»

قالت بوبي بشرود وغموض: «أوه، لو كان الجميعُ فكروا في كل شيءٍ لَما تبقى ما يُفكر فيه غيرُهم.»

قالت فيليس، وهي تمد يدها من أمام بيتر كي تُمسك بأحد الأعشاش: «انظري إلى الأعشاش، أليست جميلة؟»

قال أخوها: «احترسي يا فِل، أنتِ أيتها الخرقاء.» لكن كلامه كان متأخرًا جدًّا؛ إذ كانت أصابعها الصغيرة القوية قد حطمت العش.

قال بيتر: «ما العمل الآن؟»

قالت بوبي: «لا عليك.»

قالت فيليس: «إنه أحد أعشاشي أنا، فلا داعي للتوبيخ يا بيتر. نعم، لقد وضع كلٌّ منا الحرف الأول من اسمه على الأعشاش التي صنعها، لكي تعرف طيورُ السنونو من الذي يجب عليها أن تكون ممتنةً له ومُولعةً به.»

قال بيتر: «إن طيور السنونو لا تستطيع القراءة أيتها الحمقاء.»

ردت فيليس: «بل أنت الأحمق. من أين عرفتَ أنها لا تستطيع القراءة؟»

صاح بيتر: «من الذي فكر في صناعة الأعشاش على كل حال؟»

صرخت فيليس قائلةً: «أنا.»

رد بيتر بفظاظة: «هراء، إنما فكرتِ فحسب في عمل أعشاشٍ من القش وإلصاقها في نبات اللبلاب من أجل العصافير، وكان البلل سيغمرها قبل وقت وضع البيض بكثير. أنا الذي اقترحتُ الطين والسنونو.»

«لا يهمني ما قلتَه.»

قالت بوبي: «انظري، لقد أعدتُ إصلاح العش. أعطني العود الصغير لأكتب اسمكِ عليه. لكن كيف يمكنكِ هذا؟ إن اسمكِ واسمَ بيتر يبدآن بالحرف نفسه؛ P لاسم بيتر Peter، وP لاسم فيليس Phyllis.»

قالت الطفلة التي تحمل هذا الاسم: «لقد وضعتُ F لاسم فيليس. هكذا يُنطق. لن تتهجى طيورُ السنونو اسم فيليس بحرف P، أنا واثقةٌ تمامًا.»

ظل بيتر مصرًّا على رأيه، وقال: «إنها لا تستطيع التهجيَ على الإطلاق.»

«فلماذا إذن تراها دائمًا على بطاقات عيد الميلاد وبطاقات التهنئة بعيد الحب حاملةً رسائل حول أعناقها؟ كيف كانت ستعرف إلى أين تذهب لو لم تكن تستطيع القراءة؟»

«إن هذا في الصور فقط. إنكِ ما رأيتِ قط أحدَها وهو يحمل بعض الرسائل حول عنقه حقيقةً.»

«حسنٌ، سأقتني حمامةً إذن؛ على الأقل لقد قال لي أبي إن الحمام يحمل الرسائل. لكنه فقط كان يحملها تحت أجنحته وليس حول أعناقه، لكنها تؤدي الغرض نفسه، كما أن …»

قاطعتها بوبي قائلةً: «اسمعا، سوف يُقام سباق الأرانب وكلاب الصيد غدًا.»

سألها بيتر: «مَن سيلعبها؟»

«مدرسةٌ ثانوية. يعتقد بيركس أن الأرانب ستنطلق عبر خط السكة الحديدية أولًا. نستطيع نحن أن نجري في النفق المكشوف. يمكننا أن نرى لمسافةٍ كبيرةٍ من هناك.»

اكتشف الأطفال أن الحديث عن سباق الأرانب وكلاب الصيد كان مُسليًا أكثر من الحديث عن قدرة طيور السنونو على القراءة. كانت بوبي تأمل أن يكون مسليًّا. وفي صباح اليوم التالي سمحت لهم أمهم بأخذ غدائهم والخروج طوال اليوم لرؤية سباق الأرانب وكلاب الصيد.

قال بيتر: «لو ذهبنا إلى النفق المكشوف، سوف نرى العُمَّال هناك، حتى لو فاتتنا رؤية سباق الأرانب وكلاب الصيد.»

لا شك أن تنظيف خط السكة الحديدية من الصخور والتراب والأشجار التي سقطتْ عليه يوم وقوع الانهيار الأرضي الكبير قد استغرق بعضَ الوقت. كانت تلك هي الواقعة — كما تذكرون — التي أنقذ فيها الأطفالُ الثلاثةُ القطارَ من التحطمِ عندما لوحوا له بست رايات صوفية حمراء صغيرة. من الممتع دائمًا رؤية الناس وهم يعملون، خاصةً عندما يعملون بمثل هذه الأشياء المثيرة للاهتمام كالجواريف والمعاول والرفوش والألواح

الخشبية وعربات اليد، وعندما يُوقدون نيرانًا متوهجةً كثيرةَ الجمر في أوعيةٍ حديديةٍ ذاتِ ثقوبٍ مستديرة، ويُعلِّقون مصابيحَ حمراء بالقرب من منطقة العمل أثناء الليل. إن الأطفال بالطبع لمْ يخرجوا قط من البيت أثناء الليل؛ باستثناء مرة واحدة، وقتَ الغسق، عندما خرج بيتر من نافذة سقف حجرته إلى أعلى السطح، حين رأى المصباح الأحمر يلتمع على مسافةٍ بعيدةٍ عند حافة النفق المكشوف. كثيرًا ما كان الأطفال يذهبون إلى النفق لرؤية أعمال التنظيف، وفي ذلك اليوم أخرج اهتمامُهم بالمعاول والجواريف، وعرباتِ اليد التي يدفعها العمال فوق الألواح الخشبية، أخرجَ سباق الأرانب وكلاب الصيد من رءوسهم تمامًا؛ لذا فقد انتفضوا بقوة فزعًا عندما سمعوا صوتًا خلفهم مباشرةً يقول لاهثًا: «أفسحوا لي الطريق لو سمحتم.» لقد كان اللاعب الذي يقوم بدور الأرنب؛ كان فتًى ضخم الجسم، مرتخيَ الأطراف، وكان شعره الأسود مسترسلًا على جبينٍ غارقٍ في العرق. كانت الحقيبة المملوءة بقصاصات الورق والتي يحملها تحت ذراعه مثبتةً على أحد كتفَيه بحزام. تنحَّى الأطفال عن الطريق. وأخذ الفتى الذي يقوم بدور الأرنب يجري عبر خط السكة الحديدية، واستند العمال على معاولهم ليشاهدوه. راح الفتى يجري دون توقفٍ حتى وارته فتحةُ النفق المغلق.

قال مُلاحظ العمال: «هذا مخالفٌ لقوانين شركة السكة الحديدية.»

قال أَقدم العمال: «ولمَ تشغل بالك؟ إن شعاري في الحياة هو تمتع بحياتك ودع الآخرين يتمتعون بحياتهم. أما كنتَ فتًى صغيرًا يا سيد بيتس؟»

قال مُلاحظ العمال: «يجب أن أبلغ عنه.»

«إن شعاري في الحياة هو لماذا أقتل فرحة الآخرين.»

تمتم ملاحظ العمال بنبرةٍ متشككة: «لا يُسمَح للركاب بعبور خط السكك الحديدية تحت أي ذريعة كانت.»

قال أحد العمال: «لكنه ليس من الركاب.»

قال آخر: «كما أنه لمْ يعبر الخط؛ إنه لم يفعلها حيث نستطيع أن نراه.»

قال ثالث: «ولا هو حتى قدَّم أيَّ ذريعة.»

قال أقدم العمال: «كما أنه قد غاب عن أنظارنا الآن. إن شعاري في الحياة هو أن ما لا تراه العين لا ينبغي أن يشغل القلب.»

وفي هذه اللحظة، ومن خلال تتبع أثر الأرنب من بُقع الورق الصغيرة المتناثرة، جاءت كلابُ الصيد. كانوا ثلاثين فتًى، ونزلوا جميعًا على درجات السلم الشديدة الانحدار

الشبيهة بدرجات سلمٍ نقَّال، فُرادى وفي مجموعات ثنائية وثلاثية وسداسية وسباعية على التوالي. كانت بوبي وفيليس وبيتر يعدونهم أثناء مرورهم. تردد الفتيةُ الذين في المقدمة قليلًا عند قاعدة السلم، ثم لمحتْ أعينُهم بريقَ بياضٍ متناثرٍ على امتداد خط السكة الحديدية فتوجهوا إلى النفق، وراحت فتحته المظلمة تواريهم واحدًا واحدًا واثنَين اثنَين وثلاثةً ثلاثةً وستةً ستةً وسبعةً سبعة. بدا آخرُ واحدٍ منهم، وكان يرتدي صدارةً صوفيةً حمراء، وكأنما ظُلمة النفق قد أطفأته مثلَ شمعةٍ خبا ضوءُها.

قال ملاحظ العمال: «إنهم لا يعرفون ما هم مُقدِمون عليه من مشاكل؛ إن الجري في الظلام ليس بهذه السهولة. وإن في النفق لَمنعطفَين أو ثلاثة.»

تساءل بيتر قائلًا: «أتظنان أنهم سيستغرقون وقتًا طويلًا في عبور النفق؟»

«ساعة أو يزيد، على ما أظن.»

قال بيتر: «تعاليا نختصر الطريق إذن ونصعد فوق النفق لنراهم عندما يخرجون من الناحية الأخرى؛ سوف نصل هناك قبل وصولهم بمدةٍ طويلة.»

بدَت النصيحةُ جيدةً، فانطلقوا إلى هناك.

تسلق الأطفال الدَّرج شديد الانحدار الذي وقفوا عليه عندما قطفوا نُوار الكرز البري من أجل لحد الأرنب البري الصغير، وعندما وصلوا إلى قمة النفق المكشوف صوبوا وجوههم ناحية التلة التي نُحِت فيها النفقُ المغلق. لقد كان جهدًا شاقًّا.

قالت بوبي بأنفاسٍ متقطعة: «إنها تشبه جبال الألب.»

قال بيتر: «أو جبال الأنديز.»

قالت فيليس لاهثةً: «إنها كسلسلة جبال الهيما ... ماذا تُسمَّى؟ أو جبل إفرلاستينج. لنتوقف الآن.»

قال بيتر لاهثًا: «بل استمري، سوف تستردين أنفاسكِ قريبًا.»

وافقت فيليس على الاستمرار في التسلق؛ وواصلوا تقدمهم، وكانوا يجرون عندما يكون العُشب ناعمًا والانحدار قليلًا، وكانوا يتسلقون الحجارة، ويستعينون بفروع الأشجار على اعتلاء الصخور، ويزحفون عبر الفتحات الضيقة بين جذوع الأشجار والصخور، وظلوا هكذا يتقدمون ويصعدون، حتى وقفوا أخيرًا فوق قمة التلة نفسها التي كثيرًا ما تمنوا أن يقفوا فوقها.

«توقفا!» هكذا صاح بيتر، وانطرح فوق العُشب؛ حيث كانت قمةُ التلة منبسطةً وكان يكسوها عُشبٌ ناعم، وانتشر في أماكن متفرقة منها صخورٌ مغطاةٌ بالطحالب وأشجار صغيرة من الغبيراء البرية.

انطرحت البنتان كذلك على العشب.

قال بيتر وهو يلهث: «أمامنا الكثير من الوقت لمشاهدة السباق. إن ما تبقى من رحلتنا سيكون سهلًا.»

بعدما حصلوا على ما يكفي من الراحة كي ينهضوا وينظروا حولهم، صاحت بوبي: «يا إلهي، انظرا!»

قالت فيليس: «إلامَ ننظر؟»

قالت بوبي: «المنظر.»

قالت فيليس: «أنا أكره المناظر، ألا تكرهها يا بيتر؟»

قال بيتر: «هيا لننطلق.»

«لكن هذا ليس كالمناظر التي يأخذونكم إليها في عربات الخيل عندما تكونون على شاطئ البحر، تلك المناظر التي لا تتجاوز البحر والرمال والتلال الجرداء. إنه يشبه «الأقاليم الملونة» في واحدٍ من دواوين قصائد أمي.»

قال بيتر: «ليس سيئًا، انظُرا إلى قنطرة الماء وهي تمتد منفرجة مباشرةً عبر الوادي وكأنها دودة أم أربع وأربعين عملاقة، والمدن وهي تُبرزُ أبراج كنائسها من بين الأشجار وكأنها أقلامٌ في محبرة. أرى أنها أشبه ما تكون بالشِّعر القائل:

والآنَ علَّكَ تُبصرُ الراياتِ
من فوق عشرِ مدائنٍ نضِراتِ.

قالت بوبي: «أُحب هذا المنظر. إنه يستحق عناء التسلق.»

قالت فيليس: «إن لعبة الأرانب وكلاب الصيد تستحق عناء التسلق، هذا إذا لمْ تفتنا. هيا لننطلق. سيكون كلُّ شيء سهلًا الآن.»

قال بيتر: «لقد قلتُ هذا منذ عشر دقائق.»

قالت فيليس: «حسنٌ، وقد قلتُه أنا الآن، هيا بنا.»

قال بيتر: «أمامنا وقتٌ طويل.» وكان الأمر كذلك بالفعل؛ لأنهم عندما نزلوا إلى مستوًى مُوازٍ لِقمة فتحة النفق — فقد أسقطوا من حساباتهم للمسافة حوالي مائتَي ياردة ويلزمهم أن يزحفوا على امتداد سطح التلة — لم يكن ثمةَ أثرٌ للأرنب ولا لكلاب الصيد.

قالت فيليس عندما اتكَئوا على الحاجز القرميدي المنخفض فوق النفق: «لا شك أنهم خرجوا منذ مدةٍ طويلة.»

قالت بوبي: «لا أعتقد هذا، لكنهم حتى لو كانوا خرجوا فإن المكان رائعٌ هنا، وسوف نرى القطارات وهي تخرج من النفق كما تخرج التنانين من أوجرتها. لم يسبق لنا قط أن رأينا ذلك المنظر من أعلى.»

قالت فيليس وقد هدأت بعض الشيء: «لم يعد لدينا سوى ذلك.»

كان المكان حقًّا من أروع الأماكن التي يمكن للمرء أن يقف فيها؛ فقد بدت قمة النفق أبعدَ بكثيرٍ جدًّا عن خط السكة الحديدية مما توقعوا، وكان الأمر يُشبه الوقوف فوق أحد الجسور، لكنه جسرٌ تكسوه الشجيراتُ والنباتات المتسلقة والحشائش والزهور البرية.

«أعرف أن لعبة الأرانب وكلاب الصيد قد انتهت منذ مدةٍ طويلة.» هكذا أخذت فيليس تُردِّد كل دقيقتَين، ولم تكد تعرف إن كانت تشعر بالسعادة أم بخيبة الرجاء عندما صاح بيتر فجأةً وهو مستندٌ على الحاجز وقال:

«انظرا. ها هو ذا قد خرج!»

اتكأ الأطفال جميعًا على الحاجز القرميدي الذي أدفأته حرارة الشمس في الوقت المناسب لرؤية الأرنب، وهو يخرج من ظل النفق راكضًا ببطءٍ شديدٍ للغاية.

قال بيتر: «ما رأيكما الآن، ألم أقل لكما؟ والآن ستخرج كلاب الصيد!»

وسرعان ما خرجت كلاب الصيد — فُرادى ومَثانٍ وفي مجموعات ثلاثية وسداسية وسباعية — وكانوا كذلك يَجْرون ببطءٍ وقد بدا عليهم الإرهاق الشديد. تخلف اثنان أو ثلاثةٌ عن الآخرين بمسافة طويلة وخرجوا بعدهم بمدةٍ طويلةٍ أيضًا.

قالت بوبي: «ها قد انتهى كلُّ شيء؛ ماذا نحن فاعلون الآن؟»

قالت فيليس: «ننطلق إلى تلك الغابة الكثيفة الأشجار هناك ونتناول غداءنا. نستطيع أن نراهم على امتداد أميالٍ من هنا.»

قال بيتر: «ليس بعد. ليس هذا هو الأخير. لا يزال الفتى الذي يرتدي الصدرة الصوفية الحمراء لم يخرج بعد. فلنرَ آخر واحدٍ منهم وهو يخرج.»

لكن برغم أنهم ظلوا ينتظرون وينتظرون وينتظرون، لم يخرج الفتى ذو الصدرة الصوفية الحمراء.

قالت فيليس: «يا إلهي، هيا نتناول الغداء. إن جبهتي تؤلمني من شدة الجوع. لا بد أن الفتى ذا الصدرة الصوفية الحمراء قد خرج بين الآخرين دون أن تلاحظه ...»

لكن بوبي وبيتر أجمعا على أنه لمْ يخرج مع الآخرين.

قال بيتر: «هيا ننزل إلى مدخل النفق، لعلنا نراه حينئذٍ وهو قادمٌ من الداخل. أتوقع أن يكون قد شعر بدوارٍ، وجلس يستريح على فتحة إحدى البالوعات. ابقي هنا وراقبي يا بوبي، وعندما أُشير لكِ من الأسفل انزلي. ربما تفوتنا رؤيتُه ونحن في طريقنا إلى الأسفل، مع وجود كل هذه الأشجار.»

وهكذا نزل الآخران وانتظرت بوبي حتى أشارا إليها من خط السكة الحديدية بالأسفل. ثم راحتْ هي الأُخرى تنزل زاحفةً على الطريق الزلق الملتوي بين الجذور والطحالب إلى أن خرجتْ من بين اثنتَين من أشجار القَرانْيا ولحقت بالآخرَين عند خط السكة الحديدية. لكنهم ظلوا عاجزين عن رؤية أي أثرٍ لكلب الصيد ذي الصدرة الصوفية الحمراء.

أخذت فيليس تنتحب: «يا إلهي، هيا نأكل شيئًا، سوف أموتُ إن لمْ تفعلا، وستندمان عندئذٍ.»

قال بيتر بنبرةٍ قاسية بعض الشيء: «ناوليها الشطائر، يا لهذا الإزعاج، وأسكتي فمها السخيف.» ثم التفت إلى بوبي وأضاف: «اسمعي، ربما يجدر بكلٍّ منا أن يتناول شطيرةً كذلك. قد نحتاج إلى كامل قوتنا. لكن، ليس أكثر من شطيرةٍ واحدة. لا وقتَ أمامنا.»

سألته بوبي: «ماذا؟» كان فمها مليئًا بالطعام بالفعل؛ فقد كانت تشعر بمثل ما تشعر به فيليس من الجوع تمامًا.

أجابها بيتر بنبرةٍ مؤثرةٍ في النفس: «ألا ترين أن كلب الصيد صاحب الصدرة الصوفية الحمراء هذا قد أصابه حادث؛ هذا هو ما حدث. ربما حتى ونحن نتكلم الآن يكون هو ممددًا على الأرض ورأسه على القضبان؛ فريسةً — لا حول لها ولا قوة — لأي قطارٍ يمر ...»

صاحت بوبي وهي تزدرد ما تبقى من شطيرتها: «أوه، لا تحاول أن تتكلم وكأنك كتاب، كُفَّ عن هذا. فِل، ابقي قريبةً خلفي، وإذا جاء قطارٌ فالتصقي بجدار النفق وضمي إليكِ تنورتكِ.»

قالت فيليس متوسلةً: «أعطيني شطيرةً أخرى، وسوف أفعل ما تقولين.»

قال بيتر: «سوف أنطلق أنا في المقدمة، لقد كانت فكرتي أنا.» وتقدمَهما.

بالطبع تعرفون طبيعة ما يجري داخل أي نفق، أليس كذلك؟ إن محرك القطار يُطلق نفيرًا ثم فجأةً تتغير جَلبةُ القطار الذي ينطلق مُقرقعًا وتَختلفُ ويعلو صوتُها.

يرفع البالغون النوافذ ويُثبِّتونها بأحزمتها. تُصبح عربة القطار فجأةً مظلمةً كالليل؛ وتُضيئها المصابيح بالتأكيد، إلَّا إذا كنتَ على متن قطارٍ محليٍّ بطيء؛ ففي تلك الحال لا تكون المصابيح دائمًا متوفرة. ثم سرعان ما تمسُّ الظلمةَ خارج نافذة العربة هبَّاتُ بياضٍ غائمٍ، ثم ترون ضوءًا أزرق على جدران النفق، ثم يتغير صوت القطار المتحركِ مرةً أخرى، وتخرجون إلى الهواء الطلق المنعش من جديد، ويحل البالغون أحزمة النوافذ. تنزل النوافذ، التي غبَّشها جميعَها هواءُ النفقِ الوخيمُ، مقرقعةً في أماكنها، وترون من جديدٍ أسلاكَ أعمدة التلغراف، المرتخيَ منها والمشدود، على جانب خط السكة الحديدية، ووشائعَ أشجار الزعرور المستقيمةَ والأشجار الصغيرة النابتة حديثًا تمتدُّ خارجها كلَّ ثلاثين ياردة.

كل هذا بالطبع هو ما يبدو عليه النفق عندما تكونون على متن أحد القطارات. لكنَّ كل شيءٍ يختلف تمامًا عندما تدخلون إلى أحد الأنفاق سيرًا على أقدامكم، وتطئون الأحجار والحصباء المتحركة الزلقةَ على طريقٍ ينحني باتجاه الأسفل من عند القُضبان اللامعة إلى الجدار. ثم ترون نزيزَ ماءٍ موحلٍ لزجٍ يجري داخل النفق، وتُلاحظون أن القرميد ليس أحمر ولا بُنيًّا، كما يبدو عند فتحة النفق، وإنما ذو لونٍ أخضر باهتٍ كئيبٍ دبِق. وعندما تتكلمون يتغير صوتكم تمامًا عمَّا كان عليه وأنتم في ضوء الشمس خارج النفق، ويطول الوقتُ قبل أن يتحول النفق إلى الظلام المُطبق.

لم يكن الظلام قد اشتد بعدُ داخل النفق عندما أمسكتْ فيليس ذيل تنورة بوبي، وانتزعت نصف ياردةٍ من كشكشته؛ لكنَّ أحدًا لم يُلاحظ ذلك في حينها.

وقالت: «أريد أن أرجع، أنا لستُ مطمئنة. سوف يصير الظلامُ حالكًا كالقطران في غضون دقيقة. لن أواصل السير في الظلام. لا يهمني رأيكما، لن أسير.»

قال بيتر: «لا تكوني حمقاء تافهة. إن معي عقبَ شمعة وأعوادَ ثقاب، و... ما هذا؟»

كان «هذا» صوتَ طنينٍ خافتٍ فوق خط السكة الحديدية، وارتعاشًا في الأسلاك التي بجانبه، صوتُ طنينٍ وأزيزٍ ظلَّ يعلو ويعلو كلما أنصتوا له.

قالت بوبي: «إنه قطار.»

«على أي خطٍ يسير؟»

صاحت فيليس، وهي تعافر للتخلص من يد بوبي الممسكة بها: «دعيني أعود.»

قالت بوبي: «لا تكوني جبانة، إننا آمنون تمامًا. تراجعي.»

صاح بيتر، الذي كان يتقدمهما بياردات قليلةٍ: «تعاليا، أسرعا! فتحة البالوعة!»

كانت زمجرة القطار المندفع إلى الأمام في تلك اللحظة أعلى من الجلبة التي تسمعونها عندما تكون رءوسكم تحت الماء في حوض الاستحمام والماء ينصب من الصنبورَين كلَيهما، وأنتم تركلون جانبَي حوض الاستحمام المصنوع من القصدير بأعقابكم. لكنَّ بيتر صاح بأعلى صوته، وسمعته بوبي، وسحبت فيليس إلى غطاء البالوعة. أما فيليس فتعثرت بالطبع في الأسلاك وسُحِجت كلتا ساقَيها. لكن بوبي وبيتر سحباها إلى الداخل، ووقف الثلاثة داخل الفجوة المظلمة الرطبة المقبَّبة بينما راحت زمجرة القطار تعلو أكثر وأكثر. بدا القطار كأنه سيُصِمُّ آذانهم. وكانوا، من بعيدٍ، يرون عينَيه المتوهجتَين بالنيران وهما تزدادان اتساعًا وتوهجًا في كل لحظة.

صاحت فيليس: «إنه تنينٌ حقيقي — طالما عرَفتُ أنه تنين — وهو يظهر بهيئته الحقيقية هنا؛ في الظلام.» لكنَّ أحدًا لم يسمعها. كان القطار يصيح هو الآخر، وكان صوته أعلى من صوتها.

وفي تلك اللحظة، اندفع القطارُ مزمجرًا ومقرقعًا، مُطلقًا وميضًا باهرًا ممتدًّا من نوافذ عرباته المُضاءةِ ورائحةَ دخانٍ وعاصفةً من الهواء الساخن، وكان له طنينٌ وخشخشةٌ وصدًى راح يتردد في السقف المقبب للنفق. تشبثت فيليس وبوبي بعضهما ببعض. حتى بيتر قبض على ذراع بوبي، «خشيةَ أن تكون قد شعرت بالخوف» كما أوضح هو فيما بعد.

والآن، وببطءٍ، أخذت أضواء الذيل تخفتُ شيئًا فشيئًا، وكذلك الضجيج، إلى أن اندفع القطار خارج النفق مطلِقًا أزيزًا واحدًا أخيرًا، وحلَّ السكون من جديدٍ في جدران النفق الرطبة وسقفه الراشح بالماء.

«يا إلهي!» هكذا همس الأطفال كلهم في لحظةٍ واحدة.

كان بيتر يحاول إشعال عقب الشمعة بيدٍ مرتجفة.

وقال: «تعاليا.» لكنه احتاج إلى شيءٍ من السعال لتنقية حلقه كي يتمكن من الكلام بصوته الطبيعي.

قالت فيليس: «يا إلهي، آهٍ لو كان الفتى ذو الصدرة الصوفية الحمراء في طريق القطار!»

قال بيتر: «يجب أن نذهب ونرى.»

قالت فيليس: «أما يمكننا أن ننصرف ونرسل شخصًا ما من المحطة؟»

سألتها بوبي بحدة: «أتفضلين أن تنتظرينا هنا؟» ولا شك أن هذا قد حسم المسألة.

وهكذا واصل الثلاثة السير متوغلين في ظلمة النفق التي اشتدت أكثر وأكثر. كان بيتر يسير في المقدمة، حاملًا عقب شمعته عاليًا ليضيء الطريق. كان شحم الشمعة يسيل على أصابعه، وكان بعضه ينسكب فوق كمه. حتى إنه وجد شريطًا طويلًا منه ممتدًا من رسغه إلى مرفقه عندما ذهب إلى فراشه في تلك الليلة.

لم يكد الأطفال يبتعدون أكثر من مائة وخمسين ياردةٍ عن المكان الذي وقفوا ينتظرون فيه ريثما يمر القطار حتى وقف بيتر ثابتًا في مكانه، وصاح: «مرحبًا.» ثم سار بسرعةٍ أكبر من ذي قبل. عندما لحقت به الفتاتان توقف. وتوقف على مسافة ياردةٍ من ذلك الشخص الذي دخلوا إلى النفق يبحثون عنه. لمحت فيليس وميضًا خافتًا من اللون الأحمر، وأحكمت إغلاق عينَيها. كان الفتى ذو الصدرة الحمراء الذي يلعب دور كلب الصيد جالسًا هناك بجوار خط السكة الحديدية المُنعطِف المكسو بالحصى، الذي تمر عليه القطارات القادمةُ من العاصمة. كان ظهره ملتصقًا بالجدار، وذراعاه متدليَين بترهلٍ إلى جنبَيه، وعيناه مغلقتَين.

سألت فيليس وهي تُحكم زمَّ جفنَيها أكثر من ذي قبل: «هل كان اللون الأحمر دمًا؟ هل مات؟»

قال بيتر: «مات؟ هذا هُراء! ليس فيه شيءٌ أحمر سوى صدرته الصوفية. لقد أُغمي عليه فقط. ماذا عسانا نصنع؟»

سألته بوبي: «هل نستطيع أن ننقله؟»

«لا أدري؛ إنه فتًى ضخم.»

«افترِضا أننا غسَلنا جبهته بالماء. لا، أعرفُ أنه ليس لدينا أي ماء، لكن اللبن نديٌّ كالماء تمامًا. معنا زجاجةٌ كاملة.»

قال بيتر: «نعم، وهم يدلكون أيدي الناس كذلك، على ما أظن.»

قالت فيليس: «إنهم يُحرقون الريش على حد علمي.»

«ما فائدةُ قول هذا وليس معنا أي ريش؟»

قالت فيليس بنبرة المنتصر المتأفف: «في الواقع، إن معي كُرة من كرات تنس الريشة في جيبي. ما رأيك إذن!»

وفي تلك اللحظة أخذ بيتر يدلك يد الفتى ذي الصدرة الصوفية الحمراء. وراحت بوبي تحرق ريش كرة تنس الريشة واحدةً تلو الأخرى تحت أنفه، وأخذت فيليس ترش اللبن الفاتر على جبهته، وظلَّ الثلاثة يُردِّدون بقدر ما استطاعوا من سرعةٍ وهِمَّة:

«أوه، أَفِق، أجبني! أرجوك من أجلي، تكلم!»

الفصل الثاني عشر

ما أحضرته بوبي إلى المنزل

«أوه، أَفِق، أجبني! أرجوك من أجلي، تكلم!» ظل الأطفال يرددون الكلمات مرةً تلو الأخرى على كلب الصيد الغائب عن الوعي الذي يرتدي صدرةً صوفيةً حمراء، والذي جلس مُغلقَ العينَين شاحبَ الوجه قبالةَ جانب النفق.

قالت بوبي: «بللي أُذنَيه باللبن، أعرف أنهم يصنعون هذا بمن فقدوا وعيهم؛ يفعلونها بالكولونيا. لكنني أظن أن اللبن كالكولونيا تمامًا.»

وهكذا بللوا أذنَيه، وسال بعض اللبن على رقبته تحت الصدرة الصوفية الحمراء. كان النفقُ مظلمًا للغاية؛ ولم يكد ينبعثُ من عقب الشمعة الذي كان يحمله بيتر، والذي راح في تلك اللحظة يحترق فوق حجرةٍ مسطحةٍ، أيُّ ضوءٍ على الإطلاق.

قالت فيليس: «يا إلهي، أفق أرجوك، من أجلي! أعتقد أنه مات.»

رددت بوبي كلامها قائلةً: «من أجلي. لا، لمْ يمت.»

قال بيتر: «من أجل أي أحد، أَفِق من غيبوبتك.» وراح يهز الفتى الغائب عن الوعي من ذراعه.

وفي تلك اللحظة خرجت زفرة من الفتى ذي الصدرة الصوفية الحمراء، وفتح عينَيه، وأغلقهما مرةً أخرى وقال بصوتٍ خافتٍ للغاية: «كُفَّ عن هذا.»

قالت فيليس: «يا إلهي، لم يمت. كنت أعرف أنه لم يمت.» وبدأت تبكي.

قال الفتى: «ما الأمر؟ أنا بخير.»

قال بيتر بلهجةٍ حاسمةٍ وهو يُقحِم فم زجاجة اللبن داخل فم الفتى: «اشرب هذا.» لكنَّ الفتى قاومه؛ وانسكب بعضُ اللبن قبل أن يتمكن من تخليص فمه ليقول: «ما هذا؟»

قال بيتر: «إنه لبن. لا تخف، أنت في أيدٍ آمنة. فِل، كُفي عن هذا النشيج في الحال.»

قالت بوبي بلطف: «اشربه، فسوف يفيدك.»

وهكذا شرب الفتى اللبن. ووقف الأطفالُ الثلاثة بجواره منتظرين دون أن يوجهوا له أي كلمة.

همس بيتر قائلًا: «اتركاه دقيقةً، وسوف يصبح على ما يرام بمجرد أن يبدأ اللبن في السريان كالنار داخل عروقه.»

وأصبح الفتى على ما يرام.

وقال: «أشعر بتحسنٍ الآن. إنني أذكر كل شيء.» حاول الفتى أن يتحرك، لكن حركته انتهت بتأوُّه. وقال: «أخي! أظن أن رجلي قد انكسرت.»

سألته فيليس وهي تتنشق بصوتٍ مسموع: «هل وقعت؟»

قال الفتى بسخط: «بالطبع لا؛ أنا لستُ طفلًا صغيرًا، إنما تعثرتُ في أحد هذه الأسلاك البغيضة، وعندما حاولتُ النهوض مجددًا لمْ أستطع الوقوف على قدمَي، لذا جلست. يا إلهي! لكنها تؤلمني حقًّا. كيف أتيتم هنا؟»

قال بيتر بفخر: «لقد رأيناكم جميعًا وأنتم تدخلون إلى النفق ثم صعدنا إلى التلة لنراكم وأنتم تخرجون جميعًا. وقد خرج الآخرون؛ جميعهم خرجوا إلا أنت، لم تخرج. لذا فنحن فرقة إنقاذ.»

قال الفتى: «إنكم تتحلَّون بشيءٍ من الشجاعة، هكذا أرى.»

قال بيتر بتواضع: «أوه، هذا شيءٌ هين. هل تظن أنك ستستطيع السير إذا ساعدناك؟»

قال الفتى: «يمكنني المحاولة.»

حاول الفتى أن يسير. لكنه لم يستطع سوى الوقوف على قدمٍ واحدة؛ أما الأخرى فراح يجرها على الأرض جرًّا مُرهِقًا للغاية.

قال الفتى: «دعوني أجلس يا أطفال. إنما أريد أن أستلقي وأموت، اتركوني؛ اتركوني، أسرعوا ...» تمدد الفتى على الأرض وأغلق عينَيه. أخذ الآخرون ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ في ضوء الشمعة الصغيرة الخافت.

قال بيتر: «يا إلهي، ما هذا!»

قالت بوبي، مسرعةً: «أنصت إليَّ، يجب أن تذهب لإحضار المساعدة. توجهْ إلى أقرب منزل.»

قال بيتر: «نعم، هذا هو الحل الوحيد، هيا بنا.»

«إذا أمسكتَ قدمَيه أنت وفِل وأمسكتُ أنا رأسه، فسنتمكن من حمله إلى فتحة البالوعة.»

فعل الأطفال ذلك. ولعله كان من مصلحة الفتى المصاب في تلك اللحظة أنْ فقد وعيه من جديد.

قالت بوبي: «والآن، سأبقى أنا معه. خذا أنتما جزءَ الشمعةِ الأطولَ، و... يا إلهي ... أسرِعا، فلن يُضيءَ هذا الجزءُ طويلًا.»

قال بيتر بتردد: «لا أظن أن أمي كانت سترضى بتركي لكِ بمفردك. دعيني أبقى، واذهبي أنتِ وفِل.»

قالت بوبي: «لا، لا، اذهب أنتَ وفِل؛ وأعِرْني سكينك. سأحاول نزع حذائه قبل أن يُفيق من جديد.»

قال بيتر: «أرجو أن يكون ما نفعله صوابًا.»

قالت بوبي في نفاد صبر: «إنه صوابٌ بالتأكيد، ماذا كنت ستفعل غير هذا؟ تتركه هنا بمفرده تمامًا لأن النفق مُظلم؟ هُراء. أسرِعا، انتهى الأمر.»

وهكذا أسرَعا بالانصراف.

أخذتْ بوبي تشاهد شبحَيهما المظلمَين والضوءَ الخافت المنبعث من الشمعة الصغيرة وقد خالجها شعورٌ غريبٌ بأنها وصلتْ إلى نهاية كلِّ شيء. لقد أدركتِ الآن — هكذا حسبتْ — ما الذي كانت تشعر به الراهباتُ اللاتي كانت تُغلَق عليهنَّ جدرانُ الأديرة وهن أحياء. لكنها هزَّتْ نفسها هزةً خفيفةً فجأة.

وقالت لنفسها: «لا تكوني طفلةً بلهاء.» لقد كانت دائمًا تشعر بغضبٍ شديدٍ عندما ينعتها أيُّ أحدٍ آخر بالطفلة، حتى ولو كانت الصفة التالية لتلك الكلمة ليست «بلهاء» بل «لطيفة» أو «طيبة» أو «ذكية»، وما كانت تسمح لروبيرتا بوصف بوبي بهذه الكلمة إلَّا عندما تكون غاضبةً من نفسها للغاية.

ثبَّتت بوبي عقب الشمعة الصغيرَ فوق قالب مكسور من الطوب قريب من قدمَي الفتى ذي الصدرة الصوفية الحمراء. ثم فتحت سكين بيتر. دائمًا ما كان التحكم فيها صعبًا، وعادةً ما كانت تحتاج إلى عملةٍ معدنيةٍ من فئة نصف البنس لفتحها ولو لأقل مقدار. في هذه المرة تمكنَت بوبي بطريقةٍ ما من فتحها بظُفر إبهامها. لكنها كسرت الظفر، وقد آلمها ألمًا فظيعًا. بعد هذا قطعت رباط حذاء الفتى، وخلعت الحذاء. حاولت نزع جوربه، لكن رجله كانت متورمةً تورمًا مفزعًا، ولم يَبدُ أنها في حالةٍ جيدة؛ لذا

أخذت بوبي تُقطِّع الجورب من فوقه لأسفله، ببطءٍ وحذرٍ شديدَين. كان جوربًا بُنيًّا مَحيكًا، وراحت بوبي تتساءل مَن عساه يكون حاكه؟ وهل كانت أم الفتى هي التي حاكتْه؟ وهل تُراها تشعر بالقلق عليه؟ وكيف سيكون شعورها عندما يُؤتى بابنها إلى المنزل ورِجلُه مكسورة؟ بعدما خلعت بوبي الجوربَ ورأت الرِّجلَ المسكينةَ أحستْ وكأنما النفق كان يشتد ظُلمةً، وأن الأرض تحتها لم تكن ثابتةً، ولم يَعُد شيءٌ يبدو حقيقيًّا.

قالت روبيرتا لبوبي: «طفلةٌ بلهاء!» وشعرت بعدها أنها أحسنُ حالًا.

وراحت تقول لنفسها: «الرِّجل المسكينة، ينبغي أن توضع على وسادة.» ثم التمعَتْ في رأسها فكرة.

لقد تذكرت اليوم الذي مزقت فيه هي وفيليس قميصَيهما الداخليَّين الأحمرَين المصنوعَين من الصوف الناعم لكي تصنعا منهما إشاراتِ تحذيرٍ لإيقافِ القطار ومنعِ وقوع حادثة. كان قميصها الداخلي اليومَ أبيض اللون، لكنه كان في نعومة القميص الأحمر سواء بسواء. خلعت بوبي قميصها.

وقالت: «كم هي نافعةٌ تلك القمصانُ الداخليةُ الصوفية! ينبغي صُنع تمثالٍ للرجل الذي اخترعها.» وقد قالتها بصوتٍ عالٍ؛ إذ بدا أن أيَّ صوتٍ، حتى وإن كان صوتها، سوف يُواسيها في تلك الظُّلمة.

سألها الفتى فجأةً وبوهنٍ شديد: «ما الذي ينبغي أن يُصنَع؟ ولمن؟»

قالت بوبي: «يا إلهي، لقد تحسنْتَ الآن! جُزَّ على أسنانك ولا تدَع الأمر يؤلمك كثيرًا. هيَّا!»

كانت بوبي قد طوَت القميص الداخلي، وبعدما رفعت رِجل الفتى وضعَتها على وسادة الصوف الناعم المطوي.

قالت بوبي عندما تأوَّه الفتى: «لا تغِب عن الوعي مجددًا، أرجوك لا تفعل.» أسرعت بوبي إلى تبليل منديلها باللبن ونشرَته فوق الرِّجل المسكينة.

انقبض الفتى وصاح قائلًا: «يا إلهي، هذا مؤلم. حسنٌ ... لا، ليس مؤلمًا ... هذا لطيف، لطيفٌ حقًّا.»

قالت بوبي: «ما اسمُك؟»

«جيم.»

«وأنا بوبي.»

«ولكنكِ بنتٌ، أليس كذلك؟»

«بلى، اسمي الحقيقي هو روبيرتا.»

«اسمعي يا … بوبي.»

«نعم؟»

«ألم يكن هنا آخرون غيرك الآن؟»

«بلى، بيتر وفِل؛ إنهما أخي وأختي. لقد ذهبا لإحضارِ شخصٍ ما ليحملك إلى خارج النفق.»

«يا لها من أسماء غريبة. كلها أسماء صبيان.»

«نعم؛ ليتني كنتُ صبيًّا، ألا تتمنى أنتَ ذلك؟»

«بل أظن أنكِ جيدةٌ كما أنتِ هكذا.»

«لم أقصد هذا؛ إنما قصدتُ ألا تتمنى أنتَ أن تكون فتًى، لكنكَ فتًى بالطبع من دون أن تتمنى.»

«إنكِ شجاعةٌ مثل أيِّ صبيٍّ تمامًا. لماذا لم تذهبي مع الآخَرين؟»

قالت بوبي: «كان ينبغي أن يبقى أحدٌ ما معك.»

قال جيم: «أتعرفين يا بوبي، أنتِ فتاةٌ يُعتَمد عليها. صافحيني.» ومدَّ ذراعًا يكسوه قماشُ الصدرة الصوفية الحمراء وضغطت بوبي على يده.

قالت بوبي موضحةً: «لن أهز يدك؛ لأنها ستهزك، وستهتز رجلك المسكينة، وهذا سيؤلمك. هل معك منديل؟»

«لا أعتقد أن معي منديلًا.» وأخذ يتحسس جيبه. وقال: «نعم، معي. لماذا تريدينه؟»

أخذت بوبي المنديل وبللته باللبن ووضعته على جبهته.

قال: «هذا رائع. ما هذا؟»

قالت بوبي: «إنه لبن، فليس معنا أيُّ ماءٍ …»

قال جيم: «أنتِ ممرضةٌ صغيرةٌ بارعةٌ للغاية.»

قالت بوبي: «أفعل هذا لوالدتي أحيانًا، ليس باللبن، طبعًا، وإنما بالعطر، أو بالخل والماء. اسمع، يجب أن أُطفئ الشمعة الآن؛ فربما لا تكفي الشمعة الأخرى لكي نُخرِجك من النفق في ضوئها.»

قال: «يا إلهي، إنكِ تحسبين لكل شيء حسابه.»

نفخَت بوبي نفخةً من فمها، وانطفأت الشمعة. ليس لديكم فكرةٌ كم كان كانت الظلمةُ سوداءَ مخملية هناك.

جاء صوتٌ عبر السواد يقول: «اسمعي يا بوبي، ألستِ خائفةً من الظلام؟»

«نعم، ليس بدرجةٍ كبيرة؛ لأن ...»

«ليمسك أحدنا بيد الآخر.» هكذا قال الفتى، وكان هذا بحقٍّ في غاية النبل منه؛ لأنه كان كمعظم الفتية في سنه وكان يُبغض كل دلالات الحب المادية، كالتقبيل وتشبيك الأيدي. كان يُسمِّي كل هذه الأشياء «تلامسات شهوانية طائشة» وكان يُبغِضها.

أصبحتْ بوبي أكثر قدرةً على تحمل الظلام الآن بعد أن صارت تلك اليد الضخمة الخشنة للفتى المُصاب ذي الصدرة الصوفية الحمراء تمسكُ بيدها؛ أما هو، فقد تفاجأ، بعدما أمسك يدها الدافئة الناعمة الصغيرة، بأنه لم ينزعج منها كثيرًا كما كان يتوقع. حاولت بوبي أن تتكلم، كي تُسلِّيَه، و«تَصرِف ذهنه» عن آلامه، لكنَّ مواصلة الحديث في الظلام أمرٌ صعبٌ للغاية، وبعد قليلٍ وجد الاثنان نفسَيهما في صمتٍ ما كان يقطعه من حينٍ لآخر سوى عبارةٍ مثل:

«هل أنتِ بخيرٍ يا بوبي؟»

أو أخرى مثل:

«أخشى أن رِجلك تؤلمك للغاية يا جيم. أنا في غاية الأسى لما أصابك.»

وقد كان الجو باردًا للغاية.

أخذ بيتر وفيليس يسيران متثاقِلَين على درب النفق الطويلة باتجاه ضوء النهار، وراح شحم الشمعة يتقاطر فوق أصابع بيتر. لم تقع أي حادثةٍ إلَّا إذا حسبتم انشباكَ فستان فيليس في أحد الأسلاك، وإصابته بشقٍّ طوليٍّ محزز طويل، وتعثرَها في رباط حذائها عندما انحلَّ، أو سقوطَها على يديها وركبتَيها، التي انسحجت جميعها.

قالت فيليس: «هذا النفق لا نهاية له.» وقد بدا بالفعل طويلًا جدًّا جدًّا.

قال بيتر: «استمري في السير؛ فلكل شيءٍ نهاية، وستَصلين إليها إذا واصلتِ التقدم فقط.»

وهو أمرٌ صحيح تمامًا، إذا أعملتم عقولكم فيه، كما أنَّ تذكُّره يفيدكم في أوقات الأزمات؛ كأوقات الإصابة بالحصبة، أو حل مسائل الحساب، أو التكليف بتمارينَ إضافيةٍ تأديبية، وتلك الأوقات التي تُحِسون فيها بالخزي، وتشعرون وكأنَّ أحدًا لن يُحبكم بعدها أبدًا، وأنكم لن تستطيعوا أن تحبوا أيَّ أحدٍ من جديدٍ أبدًا؛ أبدًا.

قال بيتر فجأةً: «مرحى، ها هي ذي نهاية النفق؛ إنها تبدو تمامًا كثقب دبوسٍ في قطعة ورقٍ سوداء، أليس كذلك؟»

أخذ ثقب الدبوس يكبر شيئًا فشيئًا؛ كان ثمةَ أضواءٌ زرقاء منتشرةٌ على جانِبَي النفق. تمكن الطفلان من رؤية الطريق المكسو بالحصى الممتد أمامهما؛ وأصبح الهواء أكثر دفئًا ونقاءً. بعد عشرين خطوةٍ أخرى أصبحا خارج النفق تحت أشعة الشمس الصحية المبهجة والأشجار الخضراء على الجانبَين.

أخذت فيليس نفسًا عميقًا.

وقالت: «لن أدخل نفقًا بعد ذلك أبدًا مهما طالت بي الحياة، حتى ولو كان به عشرون مائة ألف مليون فتًى يلعبون دور الأرنب ويرتدون صدراتٍ صوفيةً حمراء وقد كُسِرَت أرجلهم.»

قال بيتر، كعادته: «لا تكوني حمقاء سخيفة. كان عليك أن تدخلي.»

قالت فيليس: «أعتقد أنها كانت شهامةً وشجاعةً كبيرة مني.»

قال بيتر: «ليس هذا هو السبب؛ أنتِ لم تدخلي لأنكِ كنتِ شجاعةً، وإنما لأنني أنا وبوبي لسنا حقيرَين. والآن أين أقرب منزلٍ يا ترى؟ لا يمكننا رؤية أي شيءٍ هنا بسبب الأشجار.»

قالت فيليس وهي تشير باتجاه خط السكة الحديدية: «ثمةَ سقفٌ هناك.»

قال بيتر: «هذا كشك الإشارات، وأنتِ تعلمين أنه غير مسموحٍ لكِ بالكلام مع عمال الإشارات أثناء عملهم. هذا خطأ.»

قالت فيليس: «إن خوفي من فعل الخطأ لا يكاد يُماثل ما شعرتُ به من خوفٍ من دخول ذلك النفق. هيا بنا.» وبدأت تجري بمحاذاة خط السكة الحديدية. وكذلك فعل بيتر.»

كان الجو حارًّا جدًّا تحت أشعة الشمس، وعندما توقف الطفلان عن الجري كانا قد شعرا بالحر وانقطعتْ أنفاسهما، ثم أمالا رأسَيهما للوراء لينظرا إلى الأعلى ناحية النوافذ المفتوحة في كشك الإشارات، وأخذا يناديان بأعلى صوتٍ تمكنت منه أنفاسهما اللاهثة. لكنَّ أحدًا لمْ يُجب. كان كشك الإشارات هادئًا كحجرةٍ نومِ طفلٍ خالية، وكان درابزين دَرَجِهِ ساخنًا على أيدي الطفلَين وهما يصعدان برفقٍ إلى الأعلى. اختلس الطفلان النظر إلى داخل الكشك من الباب المفتوح. كان عامل التحويلة يجلس على كرسيٍّ مائلٍ على الحائط. كان رأس الرجل مائلًا على جنبٍ، وكان فمه مفتوحًا. لقد كان يغط في سُباتٍ عميق.

صاح بيتر: «يا إلهي! استيقِظ!» وقد صاح بهذه الكلمات بصوتٍ رهيب؛ لأنه كان يعرف أنه إذا نام أحد عمال التحويلة أثناء أداء عمله، فإنه يخاطر بفقدان وظيفته، هذا فضلًا عن كل المخاطر المروعة الأخرى التي تتهدد القطارات التي تنتظر منه أن يخبرها متى تنطلق إلى وجهاتها بأمان.

لم يتحرك عامل التحويلة مطلقًا؛ وعندئذٍ وثب إليه بيتر وراح يهزه. وببطءٍ استيقظ الرجلُ وهو يتثاءب ويتمطَّى. لكنه ما إن استيقظ حتى وثب على قدمَيه، ووضع يدَيه على رأسه كـ «مجنونٍ هائج» كما قالت فيليس فيما بعد، وصاح قائلًا:

«يا للهول، يا إلَهي، كم الساعة؟»

قال بيتر: «الثانية عشرة وثلاث عشرة دقيقة.» وقد كانت كذلك بالفعل في الساعة البيضاء المستديرة المُعلَّقة على حائط كشك الإشارات.

نظر الرجل إلى الساعة، فوثب إلى روافع التشغيل، وراح يَلويها في هذا الاتجاه وذاك. بدأ جرسٌ كهربائيٌّ يرن؛ وراحت الأسلاك وأذرع التدوير تَصِرُّ، وألقى الرجل نفسه على كرسي. كان وجهه شاحبًا للغاية، وكانت حبَّات العرق على جبينه «كقطراتٍ كبيرةٍ من الندى فوق ثمرةِ كرنبٍ بيضاء» كما قالت فيليس فيما بعد. وكان يرتعد كذلك؛ كان الطفلان ينظران إلى يدَيه الكبيرتَين الشَّعراوَين وهما تهتزان من جانبٍ لآخر، «باهتزازاتٍ كبيرة الحجم للغاية» بعبارة بيتر التي ستأتي بعد ذلك. أخذ الرجل أنفاسًا عميقةً. ثم فجأةً صاح قائلًا: «حمدًا للرب، حمدًا للرب على دخولكما في ذلك الوقت الذي دخلتما فيه؛ يا إلهي، حمدًا للرب!» وبدأت كتفاه ترتفعان واحمرَّ وجهه من جديد، وخبأه في يدَيه الكبيرتَين الشعراوَين.

قالت فيليس: «لا تبكِ، أرجوك؛ لا تبكِ. لقد صارت الأمور على ما يُرام الآن.» وراحت تربت على إحدى كتفَيه الكبيرتَين العريضتَين، بينما راح بيتر يضرب على الأخرى بتأنٍّ وتُؤدة.

لكنْ يبدو أن عامل التحويلة كان منهارًا للغاية، مما جعل الطفلَين يربتان ويضربان على كتفَيه طويلًا جدًّا قبل أن يجد منديله — وكان منديلًا أحمرَ اللون مرسومًا عليه حدواتُ حصانٍ خبازيةٌ وبيضاء — ويمسح وجهه ويتكلم. وأثناء فترة التربيت والضرب على كتفه هذه، مرَّ أحدُ القطارات بجوارهم كان له دويٌّ كدويِّ الرعد.

قال عامل التحويلة الضخم الجثة عندما توقف عن البكاء: «أنا خجلانٌ بكل ما في الكلمة من معنًى؛ لأنني أنتحب كالطفل.» ثم بدا عليه الانزعاجُ فجأةً؛ وقال: «وماذا كنتما تفعلان هنا على أي حال؟ أنتما تعلمان أنه غير مسموحٍ لكما بذلك.»

قالت فيليس: «نعم، كنا نعلم أنه خطأ؛ لكنني لمْ أخف من ارتكاب الخطأ، وقد تبين في النهاية أنه صواب. أنتَ لستَ نادمًا لأننا جئنا.»

«أَحبَّكِ الربُّ، لو لم تأتيا» وتوقف عن الكلام ثم أكمل قائلًا: «إنه لشيءٌ مخزٍ، مخزٍ للغاية، أن ينام المرء، ينام المرءُ أثناء تأدية عمله. لو عُلم هذا الأمر؛ حتى كما حدث، حيث لم يترتب عليه أذًى.»

قال بيتر: «لن يعلم به أحد، نحن لسنا نمَّامَيْن. لكن رغم هذا، ينبغي لك ألَّا تنام أثناء عملك؛ هذا خطير.»

قال الرجل: «قل لي شيئًا لا أعرفه. لكنَّ الأمر ليس بيدي. إنني أعلم تمامًا ما الذي كان سيحدث. لكنني لم أتمكن من الانصراف؛ لأنهم لم يستطيعوا إحضار أحد ليتولى عملي. صدقاني، إنني لم أنم ولو عشر دقائق في تلك الأيام الخمسة الماضية. إن طفلي الصغير مريض — يقول الطبيب إنه مصاب بالتهابٍ رئوي — ولا يوجد من يُعنى به سواي أنا وأخته الصغيرة. هذه هي حقيقة الأمر. يجب أن تحصل البنت على نصيبها من النوم. الأمر محفوف بالمخاطر؟ نعم، إنني أُصدِّقكما. اذهبا الآن وأفشيا سري إذا أردتما.»

قال بيتر بسخط: «بالتأكيد لن نفعل هذا.» لكن فيليس تجاهلت كلام عامل التحويلة كله، باستثناء الكلمات الخمس الأولى.

قالت: «لقد طلبتَ منا أن نخبرك شيئًا لا تعرفه. حسنٌ، أنا سأخبرك. يوجد فتًى في النفق هناك يرتدي صدرةً صوفيةً حمراء ورجلُه مكسورة.»

قال الرجل: «وما الذي أراده من دخوله إلى النفق اللعينِ إذن؟»

قالت فيليس بود: «لا تغضب هكذا. نحن لم نرتكب أي خطأٍ سوى أننا أتينا وأيقظناك، وقد كان هذا صوابًا في الواقع.»

ثم أخبره بيتر كيف دخل الفتى إلى النفق.

قال الرجل: «حسنٌ، لا أظن أن بإمكاني فعلَ أي شيء. فأنا لا أستطيع تركَ الكشك.»

قالت فيليس: «لكنك تستطيع أن تخبرنا أين نذهب إذا أردنا شخصًا لا يجلس في كشك إشارات.»

«ها هي ذي مزرعةُ بريجدن هناك؛ حيث ترون الدخان يتصاعد من بين الأشجار.» هكذا قال الرجل، ومزاجه يزداد حِدةً، كما لاحظت فيليس.

قال بيتر: «حسنٌ، وداعًا إذن.»

لكن الرجل قال: «انتظرا قليلًا.» ووضع يده في جيبه وأخرج بعض النقود؛ كثيرًا من البنسات وشلنًا أو شلنَين وقطعًا أخرى من فئة الستة بنسات وقطعةً من فئة نصف الكراون. التقط الرجل شلنَين ومد يده بهما.

وقال: «خُذا، سأعطيكما هذا المال كي تُمسكا لسانَيكما عمَّا حدث اليوم.»

خيم صمتٌ بغيضٌ لفترةٍ قصيرةٍ. ثم:

قالت فيليس: «أنت رجلٌ شريرٌ، أليس كذلك؟»

تقدم بيتر خطوةً إلى الأمام وضرب يد الرجل لأعلى، فقفز الشلنان منها وتدحرجا على الأرض.

وقال: «لو كان لشيءٍ أن يدفعني إلى النميمة لكان فعلُك هذا! هيَّا يا فِل.» وخرجا من كشك الإشارات وخدودهما متوهجة من الغضب.

ترددت فيليس. ثم أمسكت اليدَ التي كان فيها الشلنان، والتي ظلت ممدودةً ببلاهة.

وقالت: «لقد سامحتُك، حتى لو لم يُسامحك بيتر. إنك لستَ في حالتك الطبيعية، وإلَّا لَما كنتَ فعلتَ هذا مطلقًا. أعلم أن قلة النوم تذهب بصواب الناس. لقد أخبرتني أمي بهذا. أرجو أن تتحسن حالةُ طفلك الصغير قريبًا، و...»

صاح بيتر بإصرار: «هيَّا يا فِل.»

قالت فيليس، وهي تشعر كم كان نبيلًا منها أن تسعى لتسوية خلافٍ لم تتسببْ فيه: «أَعدُك بشرفي أننا لن نخبر أيَّ أحد. قبِّلني ولنُصبح أصدقاء.»

انحنى عاملُ التحويلة وقبَّلها.

وقال: «أعتقد حقًّا أنَّ عقلي مُشوشٌ قليلًا أيتها الفتاة. والآن انصرِفا إلى البيت إلى أمكما. أنا لم أقصد إزعاجكما؛ تفضلا.»

وهكذا تركت فِل كشك الإشارة الحارَّ وسارت وراء بيتر عبر الحقول إلى المزرعة.

عندما وصل المزارعون، حاملينَ لوحًا نقَّالًا مغطًّى بكسوة حصانٍ وبيتر وفيليس يتقدمانهم، إلى فتحة البالوعة في النفق، كانت بوبي مستغرقةً في نومٍ عميق وكذلك كان جيم. كان مرهقًا من الألم، هكذا قال الطبيب فيما بعد.

قال وكيل المزرعة عندما حُمل جيم على اللوح النقال: «أين يسكن؟»

أجابته بوبي: «في مقاطعة نورثمرلاند.»

قال جيم: «أنا طالب في المدرسة في ميدبريدج. أظن أنه يجب عليَّ أن أعود إلى هناك، بطريقةٍ ما.»

قال ناظر المزرعة: «أرى أنه ينبغي أن يُلقيَ الطبيب نظرةً على رِجلك أولًا.»

قالت بوبي: «أوه، أحضروه إلى منزلنا. إنه يقع إلى جوار الطريق على مسافةٍ ليست ببعيدة. أنا واثقةٌ أن أمي ستقول إنه كان ينبغي لنا أن نفعل هذا.»

«هل ستسمح لكِ أمك بإدخال غرباء مكسوري الأرجل إلى المنزل؟»

قالت بوبي: «لقد أخذَتِ الرجلَ الروسيَّ المسكين إلى المنزل بنفسها. أعرف أنها ستقول إنه كان ينبغي لنا فعلُ هذا.»

قال ناظر المزرعة: «حسنٌ، من المفترض أنك على علمٍ بما ستسمح به أمك. أما أنا فلم أكن لأتطوع بأخذه إلى منزلنا دون أن أستأذن السيدة زوجتي أولًا، وإنهم ليسمونني السيد أيضًا.»

همس جيم قائلًا: «هل أنتِ واثقةٌ أن أمك لن تمانع؟»

قالت بوبي: «بالتأكيد.»

قال وكيل المزرعة: «إذن علينا أن نأخذه إلى المنزل ذي المداخن الثلاث، أليس كذلك؟»

قال بيتر: «بالطبع.»

«إذن سينطلق غلامي بدراجته مسرعًا إلى عيادة الطبيب، ويَطلب منه الحضور إلى هناك. والآن أيها الرجال، احملوه بهدوءٍ وثبات. واحد، اثنان، ثلاثة!»

وهكذا بينما كانت الأم منهمكةً بكلِّ حواسها وقوَّتها في كتابةِ قصةٍ عن دوقةٍ، وشريرٍ يدبر المكائد، وممرٍّ سري، ووصيةٍ مفقودة، أسقطتْ قلمها على إثر انفتاح باب حجرة عملها، واستدارت لترى بوبي حاسرةَ الرأس محمرَّةَ الوجه من أثر الجري.

قالت بوبي: «أمي، تعالَي إلى الأسفل. لقد وجدنا كلب صيدٍ يرتدي صدرة صوفيةً حمراء في النفق، وقد انكسرت رجله والناس قادمون به إلى منزلنا.»

قالت أمها بوجهٍ عابسٍ قلِق: «يجدر بهم أن يأخذوه إلى الطبيب البيطري. فأنا لا يمكنني حقًّا إدخالُ كلبٍ أعرج هنا.»

قالت بوبي بصوتٍ بين الضحك والاختناق: «إنه ليس كلبًا في الحقيقة؛ إنه فتًى.»

«إذن يجب أن يُؤخَذ إلى البيت إلى أمه.»

قالت بوبي: «إن أمه متوفاة، وأبوه في مقاطعة نورثمرلاند. أمي، سوف تُعاملينه بلطف، أليس كذلك؟ لقد قلتُ له إنني متأكدةٌ أنكِ كنتِ ستريدين منَّا أن نحضره إلى البيت. إنكِ دائمًا ما ترغبين في مساعدة الجميع.»

ابتسمت أمها، لكنها تنهدت كذلك. من الجميل أن يعتقد أبناؤك أنك مُستعدٌّ لفتح بيتك وقلبك لأيٍّ أحدٍ ولكلِّ أحدٍ يحتاج إلى المساعدة. لكن من المحرج بعض الشيءِ أحيانًا كذلك أن يتصرفوا بحسب اعتقادهم.

قالت أمها: «أوه، حسنٌ، يجب أن نبذل قصارى جهدنا للتعامل مع هذا الموقف.»

عندما حُمل جيم إلى داخل المنزل، وكان وجهه شاحبًا بصورةٍ مفزعةٍ وشفتاه مُطبقتَين وقد تلاشت حُمرتهما وتحولت إلى لونٍ بنفسجيٍّ مزرقٍّ مروع، قالت أمها:

«أنا سعيدةٌ لأنكم أحضرتموه إلى هنا. والآن يا جيم، لنجعلك تستريح في الفراش قبل أن يأتي الطبيب!»

وعندما نظر جيم إلى عينَيها الطيبتَين، أحسَّ بشيءٍ من شجاعةٍ جديدةٍ دافئةٍ مريحةٍ تَدفقُ داخله فجأة.

وقال: «سيكون هذا مؤلمًا بعض الشيء، أليس كذلك؟ أنا لا أقصد أن أكون جبانًا. لن تظنوني جبانًا إذا أُغمي عليَّ ثانيةً، أليس كذلك؟ أنا في الحقيقة وبصدقٍ لا أتعمد فعل هذا. كما أنني أكره حقًّا أن أتسبب لكم في كل هذا العناء.»

قالت الأم: «لا تُقلق نفسك، إنك أنتَ من يعاني، أيها العزيز المسكين؛ وليس نحن.»

وقبَّلتْه وكأنما هو بيتر وقالت: «نحن نحب أن تكون معنا هنا؛ أليس كذلك يا بوبي؟»

قالت بوبي: «بلى.» ورأت من تعبيرات وجه أمها كم كانت مُحِقة عندما أحضرت كلب الصيد الجريحَ ذا الصدرة الصوفية الحمراء إلى المنزل.

الفصل الثالث عشر

جَدُّ كلب الصيد

لم تَعُد الأم إلى كتابتها طوال ذلك اليوم؛ لأن كلب الصيد ذا الصدرة الصوفية الحمراء الذي أحضره الأطفال إلى المنزل ذي المداخن الثلاث كان يحتاج إلى أن يُوضَع في الفراش. وبعد ذلك أتى الطبيبُ، وآلمه ألمًا رهيبًا للغاية. كانت الأم معه طوال ذلك كله، وهذا جعل الأمرَ أفضلَ قليلًا مما كان سيجري عليه، لكن «وصف ألمه بالسيئ كان ألطفَ ما يمكن قوله» كما قالت السيدة فايني.

جلس الأطفال في الردهة في الطابق السفلي وراحوا يسمعون وقع حذاء الطبيب وهو يتحرك جيئةً وذهوبًا على أرضية الغرفة. كما سمعوا تأوُّهًا مرةً أو مرتَين.

قالت بوبي: «هذا رهيب. يا إلهي، أرجو أن يُسرِع الدكتور فوريست. يا إلهي، كم أنت مسكين يا جيم!»

قال بيتر: «إنه رهيبٌ حقًّا، لكنه مثيرٌ للغاية. ليت الأطباء لم يكونوا متغطرسين هكذا في اختيار من يسمحون لهم بالبقاء في الغرفة أثناء قيامهم بأعمالهم. كنتُ أتوق جدًّا لرؤية رِجلٍ تُجبَّر. أعتقد أن العظام تنسحق مثلما ينسحق أيُّ شيء آخر.»

قالت البنتان في الوقت نفسه: «لا تقل هذا!»

قال بيتر: «هراء! كيف ستصبحان ممرضتَين في الصليب الأحمر كما كنتما تتحدثان ونحن قادمون إلى المنزل، إذا كنتما لا تُطيقان حتى أن تسمعاني وأنا أتحدث عن انسحاق العظام؟ سوف يتعين عليكما سماعُها وهي تنسحق في ميدان المعركة؛ وتنغمس في الدم المتخثر حتى المرفقَين على الأرجح، و...»

صاحت بوبي وقد شحب وجهها: «كف عن هذا! لا تدري كم يُصيبني كلامك بالغثيان.»

قالت فيليس التي اصطبَغ وجهها باللون الوردي: «وأنا أيضًا.»

قال بيتر: «جبانتان!»

قالت بوبي: «لستُ جبانةً. لقد ساعدتُ أمي وهي تعالج قدمك التي جرحَتها مجرفة الحديقة، وهكذا فعلتْ فِل؛ أنت تعلم أننا فعلنا هذا.»

قال بيتر: «حسنٌ إذن! والآن أنصِتا إليَّ. سيكون من الجيد جدًّا لكما إذا تحدثتُ إليكما لمدةِ نصف ساعةٍ يوميًّا عن العظام المكسورة وأجسام الناس من الداخل، لكي أُعوِّدكما على الأمر.»

تحركَ كرسيٌّ في الطابق العلوي.

قال بيتر: «اسمعا، هذا هو صوت انسحاق العظم.»

قالت فيليس: «ليتك لا تفعل. إن بوبي لا تحب هذا.»

قال بيتر: «سأخبركما ماذا يفعلون.» لا أعرف ما الذي جعله بغيضًا للغاية هكذا. ربما لأنه ظلَّ لطيفًا وطيبًا للغاية طوال الجزء الأول من اليوم، وقد آن له الآن أن يُغير أسلوبه بطريقةٍ ما. هذا ما يُسمَّى بالارتكاس. إن الواحد منَّا يُلاحظه في نفسه بين الحين والآخر. أحيانًا عندما يكون المرءُ قد ظلَّ طيبًا جدًّا لفترةٍ أطول من المعتاد، فإنه يُصاب فجأةً بنوبةٍ عنيفةٍ من الانعدام الكلي للطيبة. قال بيتر: «سأخبركما ماذا يفعلون. إنهم يشدون الشخص المكسور بأربطة إلى الأرض حتى لا يتمكن من مقاومة أو معارضة خططهم الطبية، ثم يمسك شخصٌ ما رأسه، ويمسك آخرُ رجله؛ الرجل المكسورة، ويشدها إلى أن يعود العظمُ إلى مكانه محدِثًا صوتَ انسحاق، ثم يلفونها بالأربطة و… هيا لنلعب لعبة تجبير العظام!»

قالت فيليس: «يا إلهي، لا!»

لكن بوبي قالت فجأةً: «حسنٌ؛ لنلعب! سألعب أنا دور الطبيبة، وتستطيع فِل أن تلعب دور الممرضة. يمكنك أنت أن تكون صاحب العظم المكسور؛ يمكننا الوصول إلى رِجلَيك بسهولةٍ أكبر؛ فأنت لا ترتدي تنورةً داخلية.»

قال بيتر: «سأُحضر الجبائر والضمادات، وأنتما جهزا سرير المرضى.»

كانت جميع الحبال التي ربطوا بها الصناديق التي جاءوا بها من منزلهم القديم موضوعةً في صندوق تعبئةٍ خشبي في القبو. عندما أحضر بيتر منها كتلةً متشابكةً تجرجر على الأرض، ولوحَين عريضَين من أجل الجبائر، كانت فيليس تقهقه بجذل.

قال بيتر: «الآن إذن.» واستلقى على المقعد الخشبي الطويل، وراح يئن أنينًا شديدًا للغاية.

بدأت بوبي تلف الحبل حوله هو والمقعد، وقالت: «لا ترفع صوتك بالأنين هكذا! شُدي أنتِ يا فِل.»

أخذ بيتر يئن ويقول: «لا تُحكِمي الشدَّ هكذا. ستكسرين رجلي الأخرى.»

واصلت بوبي العمل في صمت، حيث أخذت تلف المزيد والمزيد من الحبال حوله.

قال بيتر: «يكفي هذا، إنني لا أستطيع الحركة على الإطلاق. يا إلهي، رجلي المسكينة!» وأخذ يئنُّ من جديد.

سألتْه بوبي بنبرةٍ غريبةٍ بعض الشيء: «أواثقٌ أنكَ لا تستطيع الحركة؟»

أجاب بيتر: «تمام الثقة.» وسألها بمرح: «هل سنتظاهر بأنها تنزف دون انقطاعٍ أم لا؟»

قالت بوبي بتجهمٍ، وقد شبكت ذراعَيها، وراحت تنظر إليه وهو مستلقٍ على الكرسي الطويل والحبال تحوطه بالكامل: «تستطيع أن تلعب ما تشاء. أنا وفِل ذاهبتان من هنا. ولن نفكك حتى تَعدنا بأنك لن تكلمنا أبدًا عن الدماء والجروح إلَّا إذا سمحنا لكَ بهذا. هيا يا فِل!»

قال بيتر وهو يتلوى من الألم: «أيتها المتوحشة! لن أعدكِ أبدًا، أبدًا. سأصيح بصوتٍ عالٍ، وستأتي أمي.»

قالت بوبي: «فلتفعل، ولتقل لها لِمَ ربطناك! هيا يا فِل. لا، أنا لستُ متوحشةً يا بيتر. لكنك لمْ ترضَ أن تسكت عندما طلبنا منك و...»

قال بيتر: «حقًّا، إنها حتى لم تكن فكرتكِ أنتِ. لقد أخذتها من رواية ستوكي!»

بينما بوبي وفِل تتراجعان إلى الوراء بصمتٍ ووقار، التقتا بالطبيب عند الباب. أقبل الطبيبُ عليهما وهو يفرك يدَيه، ووجهُه يشي بالرضا عن نفسه.

وقال: «حسنٌ، لقد انتهت هذه المهمة. إنه كسرٌ بسيط، وسوف يلتئم على خير، لا أشك في هذا. كما أن الفتى شجاعٌ أيضًا؛ يا إلهي! ما كل هذا؟»

لقد وقعت عينه على بيتر الذي ظلَّ مستلقيًا هادئًا هدوء الفئران في قيوده على المقعد الطويل.

وقال: «تلعبون لعبة السجناء، أليس كذلك؟» لكنَّ حاجبَيه ارتفعا قليلًا. بطريقةٍ ما لمْ يكن يتصور أن تُقدِم بوبي على اللعب بينما شخصٌ ما تُجبَّر عظامُه المكسورة في الغرفة التي فوقها.

قالت بوبي: «أوه، لا! ليست لعبة السجناء. لقد كنا نلعب لعبة تجبير العظام. بيتر هو الذي انكسرت عظامه، وأنا كنت الطبيبة.»

قطَّب الطبيب جبينه.

وقال بنبرة صارمة جادة نوعًا ما: «إذن فإنني لا أجد بُدًّا من القول إنها لعبةٌ قاسيةٌ جدًّا. أليس لديكم من الخيال ما يكفي لتخيل ولو صورة باهتةٍ عمَّا كان يحدث في الطابق العلوي؟ ذلك الفتى المسكين، الذي تكسو قطراتُ العرق جبينه، وهو يعضُّ على شفتَيه كي لا يصرخ، وكل لمسةٍ على رجله تعذبه و...»

قالت فيليس: «أنت تستحق أن تُقيَّد، إنك لا تَقلُّ سوءًا عن ...»

قالت بوبي: «صه. أنا آسفةٌ، لكننا لم نكن قاسيتَين في الحقيقة.»

قال بيتر بنبرةٍ غاضبة: «لقد كنتُ، أظنُّ، حسنٌ، بوبي، لا تُكملي معروفكِ وتتحملي اللومَ عنِّي؛ لأنني لن أقبل بهذا أبدًا. ما حدث هو أنني ظللتُ أتحدث عن الدم والجروح. كنتُ أريد أن أُدرِّبهما كي تُصبحا ممرضتَين في الصليب الأحمر. ولم أشأ أن أسكت عندما طلبتا مني ذلك.»

جلس الدكتور فوريست وقال: «جيد، وماذا بعد؟»

«حسنٌ ... بعد ذلك قلتُ: «هيا نلعب لعبة تجبير العظام.» لقد كان الأمر كله هُراءً. كنتُ أعرف أن بوبي لن توافق. إنما قلتُ هذا لأغيظها. ثم لمَّا وافقتْ، كان عليَّ بالطبع أن أخوض في الأمر. لكنهما قيدتاني. لقد أخذتا تلك الحيلة من رواية ستوكي. وأظن أنه شيءٌ مخجلٌ بغيض.»

استطاع بيتر أن يلف نفسه ويخبئ وجهه في الظهر الخشبي للمقعد الطويل.

قالت بوبي، في ردٍّ غاضبٍ على توبيخ بيتر الذي لمْ ينطقه: «لم أظن أن أيَّ أحدٍ غيرنا كان سيعرف. لم يخطر ببالي مطلقًا أنك ستأتي هنا. كما أن سماع الكلام عن الدم والجروح يصيبني حقًّا بغثيانٍ رهيب. لم نقصد سوى المزاح عندما قيدناه. دعني أفك قيودك يا بِيت.»

قال بيتر: «لا يهمني إذا لم تفكيني أبدًا، وإذا كان هذا هو تصوركِ عن المزاح ...»

قال الطبيب، رغم أنه في الحقيقة لم يكن يعرف حقًّا ماذا عليه أن يقول: «لو كنتُ مكانك، لحرَصتُ على أن أُحرَّر قبل أن تنزل أُمك. إنك لا ترغب في إقلاقها الآن تحديدًا، أليس كذلك؟»

قال بيتر بنبرةٍ جافيةٍ للغاية، عندما بدأت بوبي وفيليس تفكان العُقَد: «لا أعدكما بأيِّ شيءٍ عن عدم الكلام عن الجروح، انتبِها لهذا.»

همست بوبي، وهي منحنيةٌ قريبًا منه أثناء تخبطها في حل العقدة الكبيرة التي تحت المقعد: «أنا آسفةٌ جدًّا يا بِيت، لكنك لو علمت فقط إلى أي مدًى جعلتني أشعر بالغثيان.»

أجابها بيتر بفظاظةٍ قائلًا: «إنك لا تعلمين مدى الغثيان الذي جعلتِني أشعر به.» ثم تخلص من الحبال المفكوكة، ونهض واقفًا.

قال الدكتور فوريست: «لقد أتيتُ لأرى إن كان أيٌّ منكم سيأتي معي إلى العيادة. ثمة بعض الأشياء ستحتاجها أمكم في الحال، وقد أعطيتُ مساعدي إجازةً كي يذهب إلى السيرك؛ هل ستأتي معي يا بيتر؟»

ذهب بيتر دون كلمة أو نظرة لأختَيه.

مشى الاثنان صامتَين حتى وصلا إلى البوابة التي تؤدي من مرجة المنزل ذي المداخن الثلاث إلى الطريق. ثم قال بيتر:

«دعني أحمل حقيبتك. أرى أنها ثقيلة؛ ماذا بداخلها؟»

«أوه، مشارط، ومباضع وعدة أدواتٍ لجرح الناس. وزجاجة الإثير المخدر. كان عليَّ أن أُعطيه الإثير؛ فقد كان ألمه شديدًا جدًّا.»

لم يقل بيتر شيئًا.

قال الدكتور فوريست: «أخبرني كيف وجدتم هذا الفتى، قل لي كل شيء.»

أخبره بيتر بما حدث. بعد ذلك قصَّ عليه الدكتور فوريست قصصًا عن عمليات إنقاذ شُجاعةٍ؛ لقد كان الحديث مع الدكتور فوريست مثيرًا للغاية، كما سبق وقال بيتر كثيرًا.

بعد ذلك أُتيحت لبيتر وهو في العيادة فرصةٌ لم يُتَح له أفضل منها قبل ذلك قط ليتفحص موازين الطبيب ومِجهره وأكواب القياس. وعندما أصبحتْ كلُّ الأشياء التي سيعود بها بيتر جاهزةً قال الطبيبُ فجأةً:

«سوف تغفر لي إقحام نفسي فيما لا يعنيني، أليس كذلك؟ لكنْ ثمة شيء أريد أن أخبرك به.»

قال بيتر في نفسه: «ها قد حان وقتُ الشِّجار.» وقد كان يتعجب كيف نجا من الشجار.

أضاف الطبيب: «شيءٌ علمي.»

قال بيتر وهو يعبث بصَدَفة الأمونيت المتحجرة التي يستخدمها الطبيبُ ثقالة للأوراق كي لا تتطاير: «تفضل.»

«حسنٌ إذن، أنصت إلي. إن الصبيَّين والبنات إنما هم رجالٌ ونساءٌ صغار. ونحن أصلب منهن بكثيرٍ وأقدر على التحمل» (أُعجب بيتر بالضمير «نحن». ربما كان الطبيب يعلم أنه سيُعجَب به.) «كما أننا أقوى منهنَّ بكثير، والأشياء التي تجرحهنَّ لا تجرحنا. أنت تعلم مثلًا أنه يجب عليك ألَّا تضرب فتاةً ...»

تمتم بيتر بسخطٍ قائلًا: «أعتقد أنه يجب عليَّ ألَّا أفعل هذا حقًّا.»

وأضاف قائلًا: «حتى وإن كانت أختَك. هذا لأن البنات أوهنُ وأضعف منَّا بكثير. ينبغي أن يكُنَّ هكذا، كما تعرف، وإلَّا لما صارت الأمور في صالح أطفالهن الرُّضع. وهذا هو ما يدفع جميع الحيوانات لمعاملة إناثها معاملةً لطيفةً جدًّا. إنها لا تتشاجر معها مطلقًا كما تعلم.»

قال بيتر باهتمام: «أعلم هذا، إن اثنَين من ذكور الأرانب ربما يتشاجران طوال اليوم لو تركتهما، لكنهما لن يؤذيا أنثى.»

«أبدًا؛ وكذلك الحيوانات البرية — الأسود والأفيال — إنها لطيفةٌ لأبعد الحدود مع إناثها. وعلينا أن نكون هكذا نحن أيضًا.»

قال بيتر: «فهمت.»

واصل الطبيب حديثه قائلًا: «كما أن قلوبهن ضعيفةٌ أيضًا، والأشياء التي لا نُلقي نحن لها بالًا البتةَ تجرحهنَّ بشدة. لذلك ينبغي لكلِّ رجلٍ أن يحذرَ غاية الحذر، ليس فقط من قبضتَيه، وإنما من كلماته كذلك.» واستمر قائلًا: «إنهن شُجاعاتٌ إلى أبعد حد، أتدري؟ انظُر إلى بوبي مثلًا وهي تنتظر بمفردها في النفق مع ذلك الفتى المسكين. إنه شيءٌ غريب؛ كلمَّا كانت المرأةُ أضعفَ وكان إلحاقُ الأذى بها أيسرَ، كان إصرارُها على فعل ما ينبغي فعلُه أكبر. لقد رأيتُ بعض الشجائع من النساء؛ وأمكَ واحدة منهن.» وأنهى الطبيب كلامه فجأة.

قال بيتر: «نعم.»

«حسنٌ، هذا كل ما لديَّ. سامحني لأنني ذكرتُ هذا. لكن لا أحد يعرف كل شيءٍ من دون أن يُخبره أحد. وأنت تفهم ما أعنيه، أليس كذلك؟»

قال بيتر: «بلى. وأنا آسفٌ لما حدث. ها قد قلتُها!»

«لا شكَّ أنكَ آسفٌ! إن الناس دائمًا ما يأسفون على أخطائهم؛ بمجرد أن يفهموا. ينبغي أن تُدرَّس هذه الحقائق العلمية للجميع. إلى اللقاء!»

تصافح الاثنان بحماسة. عندما عاد بيتر إلى المنزل نظرت إليه أختاه بارتياب.

قال بيتر وهو يُفرغ السلةَ على المنضدة: «لنتهادن. كان الدكتور فوريست يتكلم معي كلامًا علميًّا. لا، لا جدوى من إخباركما بما قال؛ فلن تفهما. لكنَّ مُؤدى كلامه كله أنكنَّ أيتها البنات مسكيناتٌ واهناتٌ ضعيفات، وأنكنَّ كائناتٌ مذعورةٌ كالأرانب؛ لذا ليس علينا نحن الرجال سوى أن نتحملكنَّ. لقد قال إنكنَّ متوحشات. هل أحمل هذه الأشياء إلى أمي في الدور العلوي، أم ستحملانها أنتما؟»

قالت فيليس بوجنتَين متَّقدتَين: «وأنا أعرف صفات الصبيان؛ إنهم فقط أَبغضُ وأفظُّ ...»

قالت بوبي: «إنهم في غاية الشجاعة، أحيانًا.»

«تقصدين الفتى الذي بالطابق العلوي؟ أفهم هذا. استمري يا فِل؛ سأسامحكِ في أيِّ شيءٍ تقولينه؛ لأنكِ مسكينةٌ ضعيفةٌ مذعورةٌ واهنة ...»

قالت فيليس وهي تثب عليه: «لن تسامحني إذا شددتُ شعرك.»

قالت بوبي وهي تجذبها بعيدًا: «لقد قال «لنتهادن».» ثم قالت هامسةً بينما كان بيتر يأخذ السلة ومضى يتبختر بها: «ألا ترين؟ إنه نادمٌ على ما فعل حقًّا، لكنه فقط لن يقول ذلك. هيَّا نعتذر له.»

قالت فيليس في ارتياب: «هذا تصنُّع مبالغ فيه للفضيلة؛ لقد قال إننا متوحشات، وإننا واهناتٌ ومذعورات ...»

قالت بوبي: «إذن فلنرِه أننا لسنا مذعورتَين من أن يحسبنا نبالغ في الفضيلة، وأننا لن نكون أكثر منه وحشيةً بعد الآن.»

وعندما عاد بيتر، وهو لا يزال شامخًا بأنفه، قالت بوبي:

«نعتذر لأننا قيدناك يا بِيت.»

قال بيتر بجَفاءٍ وترفُّعٍ شديدَين: «كنتُ أتوقع أنكما ستعتذران.»

كان هذا يفوق القدرة على التحمل. لكن ...

قالت بوبي: «حسنٌ، وها نحن نعتذر. والآن لنعتبر أن كلًّا منا قد دافع عن كرامته بما يكفي.»

قال بيتر بنبرةٍ جريحة: «لقد قلتُ لنتهادن.»

قالت بوبي: «إذن فلنتهادن. هيَّا يا فِل، لنجهز الشاي. من فضلك يا بِيت، ضع مفرش المائدة.»

قالت فيليس، بعدما عاد السلام بينهم بالفعل، وهو ما لمْ يتحقق إلَّا وهم يغسلون الفناجين بعدما شربوا الشاي: «أظن أن الدكتور فوريست لم يقُل بالفعل إننا متوحشات، أقال هذا؟»

قال بيتر بنبرةٍ جازمة: «نعم، لكن أظن أنه كان يقصد أننا نحن الرجال حيوانات ضارية أيضًا.»

قالت فيليس، وقد انكسر منها أحد الفناجين: «ما أغرب هذا الكلام منه!»

«أيمكنني الدخول يا أمي؟» كان بيتر واقفًا عند باب ورشة كتابة أمه، حيث كانت جالسةً على منضدتها وأمامها شمعتان. بدا لهبُ الشمعتَين ملونًا باللونَين البرتقالي والبنفسجي في مواجهة الزُّرقة القاتمة الصافية للسماء التي كانت تتلألأ فيها بعضُ النجوم.

قالت الأم دون تركيز: «نعم يا عزيزي. ثمةَ خطبٌ ما؟» وكتبت بضع كلماتٍ أخرى، ثم وضعت قلمها وبدأتْ تطوي ما كتبتْه. وقالت: «كنتُ لتوِّي أكتب رسالةً إلى جَدِّ جيمس. إنه يعيش بالقرب من هنا، كما تعلم.»

«نعم، لقد قلتِ هذا ونحن نشرب الشاي. وهذا ما أريد قولَه. هل عليكِ أن تُرسلي له يا أمي؟ ألا يمكننا أن نُبقي جيم، ولا نقول أيَّ شيءٍ لأسرته إلى أن يتعافى؟ ستكون مفاجأةً كبيرةً لهم.»

قالت أُمه ضاحكةً: «حسنٌ، نعم، أظن أنها ستكون كذلك.»

واصل بيتر كلامه قائلًا: «أتعلمين يا أمي، إن البنات بالتأكيد لا بأسَ بهنَّ وكل هذا الكلام؛ أنا لا أقول أيَّ شيءٍ ضدهن. لكنني أود أن يكون عندي أخٌ أتكلم معه من حينٍ لآخر.»

قالت أمه: «نعم، أعرف أنك تملُّ يا عزيزي. لكنَّ الأمر ليس بيدي. ربما أستطيع أن أرسلك إلى المدرسة في العام القادم؛ أنت تحب هذا، أليس كذلك؟»

اعترف بيتر قائلًا: «أنا فعلًا أفتقد الأولاد الآخرين، نوعًا ما، لكن لو يمكن أن يبقى جيم بعد أن تتعافى رجله، فسوف نحظى بالكثير من المرح.»

قالت الأم: «لا أشك في هذا. حسنٌ؛ ربما يمكنه ذلك، لكنك تعلم يا حبيبي أننا لسنا أغنياء. وأنا لا أستطيع أن أوفر له كل ما سيريده. ولا بد له من ممرضة.»

«ألا يمكنكِ أن تُمرِّضيه أنتِ يا أمي؟ إنكِ تمرِّضين الناس جيدًّا جدًّا.»

«هذه مجاملةٌ لطيفةٌ يا بِيت؛ لكنني لا أستطيع أن أُمرِّضه وأن أكتب في الوقت نفسه. هذا هو أسوأ ما في الأمر.»

«إذن لا بد أن ترسلي الرسالة لجده؟»

«بالتأكيد؛ ولناظر مدرسته كذلك. لقد أرسلنا برقيةً لكلَيهما، لكن لا بد أن أرسل رسالةً أيضًا. وإلَّا فسيقلقون للغاية.»

اقترح عليها بيتر قائلًا: «أمي، لماذا لا يدفع جَدُّه للممرضة؟ سيكون هذا رائعًا. أتوقع أن هذا العجوز يتمرغ في الأموال. إن الأجداد دائمًا ما يكونون هكذا في الكتب.»

قالت أمه: «حسنٌ، لكن هذا العجوز ليس من أحد الكتب. لذا يجب ألَّا نتوقع أنه يتمرغ في الكثير من المال.»

قال بيتر متأملًا: «أما كان سيصبح مُبهجًا لو كنَّا جميعًا في أحد الكتب، وكنتِ أنتِ تكتبينه؟ حينئذ كان سيمكنك أن تجعلي كلَّ الأشياء المُفرحة تحدث، وتجعلي رِجلَي جيم تتعافيان في الحال وتصبحان على ما يرام غدًا، وتجعلي أبي يعود إلى البيت قريبًا و...»

سألتْه أمه بشيءٍ من الفتور، كما تراءى لبيتر: «أتشتاق إلى أبيكَ كثيرًا؟»

قال بيتر باقتضاب: «كثيرًا.»

كانت أمه تضع الرسالةَ الثانيةَ في مظروفٍ وتكتب العنوان عليه.

واصل بيتر كلامه ببطء: «أتعلمين، أتعلمين، ليس لأنه أبي وحسب، بل لأنه الآن بعيدٌ ولا رجلَ في البيت غيري؛ هذا هو ما يجعلني أرغب بشدةٍ في بقاء جيم. ألا تحبين أن تكتبي ذلك الكتاب وتضعينا كلنا فيه يا أمي، وتجعلي أبي يعود إلى البيت قريبًا؟»

طوقت الأم بيتر بذراعها فجأةً، وضمته إليها في صمتٍ مدةَ دقيقة. ثم قالت:

«ألا ترى أن من الجميل نوعًا ما أن تعتقد أننا في كتابٍ يكتبه الرب؟ لو كنتُ أنا مَن يكتب الكتاب، لربما ارتكبتُ أخطاءً. لكنَّ الربَّ يعلم كيف يُنهي القصةَ على الوجه الصحيح؛ بالطريقةِ الأفضل لنا.»

سألها بيتر بهدوء: «هل تعتقدين ذلك حقًّا يا أمي؟»

قالت أمه: «نعم، بالتأكيد أعتقد هذا — طوال الوقت تقريبًا — باستثناء الأوقات التي يكون حزني فيها أكبر بكثيرٍ من أن أُصدق أيَّ شيء. لكنني حتى عندما أعجز عن تصديق الأمر، فإنني أعرف أنه حقيقة؛ وأحاول أن أُصدقه. إنك لا تعرفُ كم أُحاول يا بيتر. والآن خُذ الرسالتَين إلى البريد، ودعنا لا نحزن بعد ذلك. الشجاعةَ الشجاعة! إنها أرقى الفضائل! أظن أن جيم سيبقى هنا أسبوعَين أو ثلاثة أخرى.»

ظلَّ بيتر فيما تبقَّى من الليلةِ ملائكيًّا للغاية، لدرجة أن بوبي خشيت أن يكون على وشك أن يَمرض. لكنها اطمأنتْ للغاية في الصباح عندما رأتْه وهو يضفر شعر فيليس في ظهر كرسيها كعادته القديمة تمامًا.

بعد الإفطار بوقتٍ قصيرٍ سمعوا طرقًا على الباب. كان الأطفال منهمكين في تنظيف الشمعدانات النحاسية احتفاءً بزيارةِ جيم.

قالت الأم: «لا بد أن هذا هو الطبيب، أنا ذاهبة. أغلقوا باب المطبخ؛ لستم في حالٍ مناسبةٍ لأن يراكم أحد.»

لكنه لم يكن الطبيب. لقد علموا ذلك من صوت المتكلم ومن وقع حذائه وهو يصعدُ الدَّرَج. لم يميزوا صوتَ الحذاء لكنَّهم كانوا واثقين جميعًا أنهم سمعوا ذلك الصوت من قبل.

كان هناك فترةٌ فاصلةٌ طالت قليلًا. لم ينزل الصوت ولا الحذاء مرةً أخرى.

«مَن عساه يكون هذا؟» هكذا ظلَّ كلٌّ منهم يسأل نفسه ويسأل صاحبه.

قال بيتر أخيرًا: «ربما يكون قطاع الطرق قد هاجموا الدكتور فوريست وتركوه ليلقى حتفه، وهذا هو الرجل الذي أرسل إليه برقيةً ليحل محله. لقد قالت السيدة فايني إن لديه طبيبًا ينوب عنه عندما يأخذ إجازة، أليس كذلك يا سيدة فايني؟»

قالت السيدة فايني من المطبخ الخلفي: «بلى، قلتُ يا عزيزي.»

قالت فيليس: «لقد أصابته نوبةٌ مرَضية، على الأرجح، تعجز عن علاجها كلُّ مساعداتِ البشر. وهذا هو عامله وقد أتى ليبلغ أمنا بالخبر.»

أسرع بيتر يقول: «هراء! لو كان هذا صحيحًا لَمَا صعدتْ أمي بالرجل إلى غرفة نوم جيم. لِمَ عساها تفعل هذا؟ اسمعا؛ إن الباب ينفتح. سينزلان الآن. سأوارب الباب قليلًا.»

وارب بيتر الباب.

وردَّ مُغضَبًا على تعليقات بوبي المستهجَنة: «هذا ليس تنصُّتًا. ما من عاقلٍ يقول أسرارًا على الدَّرَج. ولا يمكن أن يكون لدى أمي أسرارٌ تقولها لسائس الدكتور فوريست؛ وأنتِ قلتِ إن هذا هو عامله.»

نادت أمُّهم قائلةً: «بوبي.»

فتح الأطفال باب المطبخ، واستندت أمهم على درابزين الدَّرَج.

وقالت: «لقد جاء جَدُّ جيم، اغسلوا أيديَكم ووجوهكم وبعدها يمكنكم مقابلته. إنه يريد أن يراكم!» وانغلق بابُ حجرة النوم من جديد.

قال بيتر: «يا للمفاجأة! تخيلوا أن هذا لمْ يخطر ببالنا حتى! لتُسخني لنا بعض الماء يا سيدة فايني. لقد أصبحت في سواد قبعتك.»

كان الثلاثة متسخين بالفعل؛ لأن المادة التي تُنظفون بها الشمعدانات النحاسية بعيدةٌ كل البعد عن أن تُنظِّف مَن يستخدمها.

كان الأطفال لا يزالون منشغِلين بالصابون وفوط التنظيف الصغيرة عندما سمعوا وقع خطوات الحذاء وصوت الرجل ينزلان على الدَّرَج ويتجهان إلى غرفة الطعام. وبعدما تنظفوا، رغم بقاء النداوة عليهم — لأن تجفيف الأيدي جيدًا يستغرق وقتًا طويلًا جدًّا، وقد كانوا متشوقين جدًّا لرؤية الجد — دخلوا في طابورٍ إلى غرفة الطعام.

كانت أمهم جالسةً على المقعد الذي تحت عتبة النافذة، وكان جالسًا على الكرسي ذي الذراعَين المكسو بالجلد، والذي كان أبوهم يجلس عليه دائمًا في المنزل الآخر.

صاحبُهم السيد العجوز!

قال بيتر: «حسنٌ، لم أكن قَط ...» حتى قبل أن يقول «كيف حالُك؟» لقد كان، كما أوضح فيما بعد، متفاجئًا بدرجةٍ أكبر حتى من أن يتذكر أن ثمةَ شيئًا يُدعى حُسن السلوك؛ فضلًا عن أن يمارسه.

قالت فيليس: «إنه صديقنا السيد العجوز!»

قالت بوبي: «يا إلهي، هذا أنت!» لكنهم بعد ذلك استعادوا سلوكَهم الحسنَ ورحبوا بالسيد العجوز ترحيبًا مهذبًا للغاية.

قالت الأم: «هذا هو جَدُّ جيم، السيد ...» وذكرت اسم السيد العجوز.

قال بيتر: «يا للروعة! هذا مثل ما يحدث في الكتب تمامًا، أليس كذلك يا أمي؟»

قالت الأم مبتسمة: «بلى، نوعًا ما. إن بعض ما يحدث في الواقع شبيهٌ بعض الشيء بما يحدث في الكتب، في بعض الأحيان.»

قالت فيليس: «أنا سعيدةٌ للغاية لأنك أنت جد جيم. عندما يُفكر المرء في العدد الكبير من السادة كبار السن الموجودين في العالم؛ من المحتمل أن يكون جده أيَّ واحدٍ منهم.»

قال بيتر: «لكنني أظن أنك لن تأخذ جيم، هل ستفعل؟»

قال السيد العجوز: «ليس الآن. لقد تفضلتْ والدتُك ووافقتْ على أن يبقى هنا. وقد فكرت أن أرسل ممرضةً، لكنَّ والدتك تكرمتْ بالقول إنها ستُمرِّضه بنفسها.»

قال بيتر، قبل أن يتمكن أيُّ أحدٍ من إيقافه: «لكن ماذا عن كتابتها؟ لن يكون هناك أيُّ شيءٍ يأكله إذا توقفتْ أمي عن الكتابة.»

أسرعتْ أمه قائلة: «لا بأس بهذا.»

نظر السيد العجوز إلى أمهم بنظرة غاية في الرقة.

وقال: «أرى أنكِ تثقين في أطفالكِ وتأتمنينهم على أسرارك.»

قالت الأم: «بالطبع.»

قال: «اسمحي لي إذن أن أُخبرهم باتفاقنا الصغير. لقد وافقت أمكم، يا أحبابي، على أن تترك الكتابة قليلًا وأن تكون رئيسة الممرضات في مستشفاي.»

قالت فيليس بذهول: «يا إلهي! وهل سيتوجب علينا أن نترك البيت ذا المداخن الثلاث والسكةَ الحديدية وكل شيء؟»

أسرعت أمها قائلة: «كلا، كلا يا حبيبتي.»

قال السيد العجوز: «إن اسم المستشفى هو «المستشفى ذو المداخن الثلاث» وحفيدي عاثر الحظ جيم هو المريض الوحيد به، وأرجو أن يستمر هكذا. ستكون والدتُكِ رئيسة ممرضات، وسيكون هناك طاقم مساعدين في المستشفى مكونٌ من خادمةٍ وطاهيةٍ؛ وذلك إلى أن يتعافى جيم.»

سأله بيتر: «وهل ستواصل أمي الكتابة ثانيةً بعد ذلك؟»

قال السيد العجوز، وهو ينظر إلى بوبي نظرةً صغيرةً عجلى: «سوف نرى، ربما يحدث شيءٌ جميلٌ ولا تكون مضطرةً إلى ذلك.»

بادرت أمهم قائلة: «أنا أحب كتابتي.»

قال السيد العجوز: «أعرف هذا، لا تخافي من أن أسعى إلى التدخل في ذلك. لكن الواحد منَّا لا يدري مطلقًا. إن ثمة أشياء رائعة وجميلة للغاية تحدث، أليس كذلك؟ ونحن نعيش معظم حيواتنا على أمل حدوثها. هل يمكنني المجيءُ ثانيةً لرؤية الفتى؟»

قالت الأم: «بالتأكيد، ولا أعرف كيف أشكرك على أن مكَّنْتني من تمريضه. ذلك الفتى العزيز!»

قالت فيليس: «لقد ظلَّ ينادي أمي أمي أثناء الليل. لقد استيقظتُ مرتَين وسمعتُه.»

قالت أمها بصوتٍ خافتٍ للسيد العجوز: «لم يكن يقصدني، وهذا هو ما جعلني أرغب بشدةٍ في بقائه.»

نهض السيد العجوز من مكانه.

قال بيتر: «أنا سعيدٌ للغاية يا أمي لأنكِ ستُبقينه معنا.»

قال السيد العجوز: «اعتنوا بأمكم يا أحبابي، إنها سيدةٌ فريدة.»

همست بوبي: «نعم، أليس كذلك؟»

قال السيد العجوز وهو يمسك بيدَيْ أمها: «باركها الربُّ، باركها الرب! بلى، ولتُسدَّد خطاها. يا إلهي، أين قبعتي؟ هل سترافقني بوبي إلى البوابة؟»

عند البوابة توقف السيد العجوز وقال:

«أنتِ طفلةٌ صالحةٌ يا حبيبتي؛ لقد تلقيتُ رسالتك. لكنها لم تكن ضرورية. فعندما قرأتُ عن قضية أبيكِ في الجرائد في حينها، ساورتني الشكوك. ومنذ ذلك الحين عرَفتُ من تكونون، ولم أنفكَّ أحاول اكتشاف الحقائق. لم أبذل الكثير بعد. لكنني متفائلٌ يا حبيبتي؛ متفائل.»

قالت بوبي وقد اختنق صوتها بالدموع قليلًا: «يا إلهي!»

«نعم؛ يمكنني القول إنني متفائلٌ للغاية. لكن اكتمي سرَّكِ مدةً صغيرةً أخرى. فمن غير المقبول أن نزعج والدتكِ بأملٍ كاذبٍ، أليس كذلك؟»

قالت بوبي: «يا إلهي، لكنه ليس كاذبًا! أنا واثقةٌ أنك تستطيع أن تفعلها. كنتُ واثقةً من هذا عندما كتبتُ لك. ليس أملًا كاذبًا، أليس كذلك؟»

قال: «بلى، لا أعتقد أنه أملٌ كاذب، وإلَّا لَمَا أخبرتُكِ. وأعتقد أنكِ تستحقين أن تعرفي أن هناك أملًا بالفعل.»

«ولا تعتقد أن أبي فعل هذا، أليس كذلك؟ يا إلهي، قُل إنك لا تعتقد أنه فعلها.»

قال: «عزيزتي، أنا واثقٌ تمامًا أنه لم يفعلها.»

لو كان أملًا كاذبًا، فلقد كان برغم ذلك أملًا مُشرقًا للغاية ألقى دفئًا في قلب بوبي، وعلى مدى الأيام التالية أضاء وجهَها الصغيرَ كما يضيءُ مصباحٌ يابانيٌّ بنور الشمعة التي بداخله.

الفصل الرابع عشر

النهاية

لم تعد الحياة في المنزل ذي المداخن الثلاث مطلقًا إلى ما كانت عليه قبل مجيء السيد العجوز لرؤية حفيده. مع أن الأطفال صاروا الآن يعرفون اسمه، فإنهم لم يتحدثوا عنه به قط؛ أعني عندما كانوا ينفردون بأنفسهم. لقد ظلَّ دائمًا بالنسبة إليهم السيدَ العجوز، وأظنُّ أن من الأفضل أن يظلَّ السيدَ العجوز بالنسبة إلينا نحن أيضًا. فما كان سيبدو لكم حقيقيًّا أكثرَ بأي حال لو كنتُ أخبرتُكم أن اسمه سنوكس أو جينكينز (ولم يكن ذلك اسمه) أليس كذلك؟ وفي النهاية، لا بد من أن يُسمَح لي بالاحتفاظ بسرٍّ واحد. إنه السر الوحيد؛ لقد أخبرتُكم بكلِّ ما سوى ذلك، باستثناء ما سأخبركم به في هذا الفصل، الذي هو الفصل الأخير. إنني، على أية حالٍ، لم أُخبركم بكل شيءٍ، بالطبع. لو كنتُ فعلتُ هذا لَمَا انتهى الكتابُ مطلقًا، ولأصبح هذا شيئًا يدعو للأسف، أليس كذلك؟

حسنٌ، كما كنتُ أقول، فإن الحياة في المنزل ذي المداخن الثلاث لم تعد مطلقًا إلى ما كانت عليه من قبل. كانت الطاهية والخادمةُ لطيفتَين للغاية (لا مانع لديَّ أن أخبركم باسمَيهما؛ إنهما كلارا وإثيلوين)، لكنهما أخبرتا الأم أنهما لا تريدان السيدة فايني، وأنها عجوزٌ فوضوية. لذا لم تعد السيدة فايني تأتي إلى المنزل سوى مرتَين في الأسبوع لتغسل الملابس وتَكويَها. بعد ذلك قالت كلارا وإثيلوين إنهما قادرتان على القيام بالعمل كما ينبغي إذا لم يتدخل فيه أحد، وكان معنى هذا أن الأطفال لم يعودوا يجهزون الشاي ولا يرفعون أدواته ولا يغسلونها ولا ينفضون الغبار عن الغرف.

كان هذا سيُسبب فراغًا كبيرًا في حياتهم، رغم أنهم كثيرًا ما كانوا يتظاهرون أمام أنفسهم وأمام بعضهم البعض بأنهم لا يحبون الأعمال المنزلية. لكن الآن لأن أمهم لم

تعد منشغلةً بالكتابة ولا بأعمال المنزل، أصبح لديها وقتٌ للدروس. وأصبح على الأولاد أن يذاكروا دروسهم. ومهما كان الشخص الذي يعلمكم لطيفًا، فالدروس هي الدروس في العالم بأسره، وهي — في أفضل أحوالها — أقلُّ متعةً من تقشير البطاطس أو إشعال النار.

من ناحيةٍ أخرى، إذا كان قد أصبح لدى أمهم الآن وقتٌ للدروس، فقد أصبح لديها وقتٌ للعب كذلك، ولتأليف أناشيد صغيرةٍ للأطفال كما اعتادت أن تفعل من قبل. فلم يكن لديها كثيرُ وقتٍ للأناشيد مُذ جاءت إلى المنزل ذي المداخن الثلاث.

كان ثمة شيءٌ غريبٌ جدًّا في هذه الدروس. كان الأطفال دائمًا يرغبون في أن يذاكروا درسًا غير الدرس الذي يذاكرونه، أيًّا كان هو. فعندما كان بيتر يذاكر اللغة اللاتينية، كان يظن أنه سيكون من اللطيف أن يذاكر التاريخ مثل بوبي. وكانت بوبي تفضل درس الحساب، الذي كانت تذاكره فيليس، أما فيليس بالطبع فكانت ترى أن درس اللغة اللاتينية هو أمتع درسٍ على الإطلاق. وهكذا.

وهكذا، في أحد الأيام، عندما جلس الأطفال يذاكرون دروسهم، وجد كلٌّ منهم نشيدًا صغيرًا في مكانه. وسأعرض الأناشيد عليكم لأريكم أن أمهم كانت بالفعل تفهم إلى حدٍّ ما شعورَ الأطفال تجاه الأشياء، وكذلك نوعَ الكلمات التي يستخدمونها، وهذا الأمر لا يُتقنه سوى قلةٍ قليلةٍ من البالغين. أظن أن ذاكرةَ معظم البالغين سيئةٌ للغاية، وأنهم نسوا كيف كانوا يشعرون وهم صغار. بالطبع يفترض أن الأناشيد مكتوبةٌ حسبما جاءت على لسان الأطفال.

بيتر:

ذاتَ يومٍ كان قيْصرُ في حسابي تافهًا!

كنتُ أحمقَ يومها   لا بُدَّ، كنتُ مُغفَّلا!
حينما يُعطون درسًا   من كتابكَ للفتى
لن يعي يا قيصري حر   فًا، ولا، لن يعقِلا.
يا إلهي! كلُّ فِعلٍ   في الكتابِ حماقة

ليت أدرس من تواريخ الملوكِ سَلاسِلا!

بوبي:

ثقيلٌ دَرْسُ أصحابِ الجَنَابِ!
وأسوأُ درس من دونِ ارتيابِ!
تواريخُ الملوكِ بكلِّ عصرٍ،
وما فعلوا بشيبٍ أو شبابِ!
ومَن جا بعدَ مَن؟ ومتى؟ وكيفا؟!
قوائمُ لا تُحدَّدُ في كتابِ!
تواريخٌ تُصيبكَ باكتئابٍ
أغيثوني بدرسٍ في الحسابِ!

فيليس:

كذا رطلٍ ورطلٍ من ثمارٍ تكتبينْ
على لوح الكتابةِ؛ كم تُراكِ ستُنفقينْ؟
تظلُّ يداكِ تشطبُ ما كتبتِ وتحسبينْ
إلى أن تدمعي حُزنًا على ما تَقسِمينْ.

* * *

لوْ أنَّ لاتينيةً ما تدرسينْ
بكتابِ قيصرَ؛ لابتهجتِ بها سنينْ!

لا شك أن مثل هذه الأشياء جعلت الدروس أكثر بهجةً. إنَّ الهدف منها هو أن تعلموا أن الشخص الذي يُعلِّمكم يَفهم أن الأمر ليس بالغَ السهولة كشرب الماء بالنسبة إليكم، وأنه كذلك لا يظن أن بَلاهتكم فقط هي التي تمنعكم من معرفة دروسكم قبل أن تُشرَح لكم!

فيما بعد عندما تحسَّنَتْ رِجلُ جيم، أصبح من الممتع للغاية الصعودُ إلى الطابق العلوي والجلوسُ معه وسماعُ حكاياتٍ عن حياته في المدرسة وعن الفِتيان الآخرين. كان ثمة فتًى يُدعى بار، ويبدو أن رأي جيم فيه كان من أسوأ ما يمكن، وفتًى آخر يُدعى ويجسباي ماينر، وكان جيم يُكِنُّ لآرائه احترامًا كبيرًا للغاية. كما كان هناك ثلاثةُ إخوةٍ يُدعَون بيلي، وكان اسمُ أصغرهم بيلي تيرت، وكان شديد الميل إلى المشاجرة.

كان بيتر يستمع إلى هذا كله بابتهاجٍ كبير، ويبدو أن أمه كانت تُصغي للكلام بشيءٍ من الاهتمام؛ لأنها ذات يومٍ أعطتْ جيم صحيفةً من الورقِ كانت قد كتبتْ عليها قصيدةً عن الفتى بار، وذكرتْ فيها بيلي وويجسباي باسمَيهما بطريقةٍ من أروع ما يكون، كما ذكرت فيها كل مبررات جيم لعدم إعجابه ببار، وكذلك رأيَ ويجسباي الحكيمَ في الأمر. لقد سعد جيم للغاية بهذه القصيدة. إنه لم يحظ قبل ذلك قط بقصيدةٍ تُكتَب خصيصى من أجله. فظلَّ يقرؤها حتى حفظها عن ظهر قلبٍ ثم أرسلها إلى ويجسباي، الذي أحبها بقدر حب جيم لها تقريبًا. ربما تحبونها أنتم أيضًا.

الفتى الجديد:

فـتًـى أَسـمـاهُ والـدُهُ ... ببـارٍ حِـيـنَ أَسـمـاهُ
يـقـولُ الـخُـبزُ مَـطعمُهُ ... كـذا والـدَّرُّ سُـقـيـاهُ
ويـزعـمُ أن والـدَهُ ... سَـبَـى دُبًّـا وأَردَاهُ
وأن الـشَّـعـرَ تَـحـلـقُـهُ ... لـهُ أمٌّ وتـرعـاهُ

* * *

لَـهُ جُـرمُـوق يـحـمـيـهِ ... فـمـا بـالـغـيـثِ يـتـبلَّـلْ
ويُـدعـى بـيـن أسـرتِـهِ ... «حبيب القلبِ» ويُدلَّلْ!
ولـيـس يـخـافُ من لـومٍ ... ولا يَـخـشـى ولا يـخـجَـلْ
فـهـا قـد أخـبـر الـفـتـيا ... نَ — عمدًا — باسمِهِ الأوَّلْ

* * *

«حبيبُ القلبِ» لا يقوى ... عـلـى إمـسـاكِ طـابـتِـهِ
إذا في لُعبة الكريكيت ... رُمـيتْ نـحـو حـضـرتـهِ
يُـثـيـر الـرُّعبَ مـنـظـرُهـا ... وتُـمـعـنُ فـي إخـافـتِـهِ!
يُرى في البيتِ ساعاتٍ ... وسـاعـاتٍ مـع الـكُـتـبِ
ويَـدري بـاسـمِ أزهـارٍ ... قِبـاحٍ! فاعجبوا عجبي!

* * *

ويـنـطـقُ بـالـفَـرَنـسـيـة ... كـلامًـا لـيـس يُـحـسـنُـهُ

يُجَوِّدُ نُطقَهُ كِبرًا فهلْ كِبرٌ يزينُهُ؟!
ويأبى أنْ يُحذِّرَ أصـ ـدقاءَ الفصلِ من خطرِ
يقول لهم: أتيتُ إلى هنا للعلْمِ والظَّفَرِ!

* * *

كذلك بارُ لا يلهو بلعبةِ طابةِ القَدَمِ
يقول بأنها تُؤذي ويخشى تيرتَ يا قومي
ويأبى أن يُقاتلَهُ شُجاعٌ بارُ كالغنمِ!
ومهما حاوَلَ التصفيـ ـرَ لا يدري ولا يعرفْ
ويضحكُ منهُ معظمُنا فيبكي بعدما يهنفْ!

* * *

رأيتمْ بار في عيني ولكنْ عينُ ويجسباي
ترى أن الفتى غِرٌّ ككُلِّ الفتيةِ الجُدُدِ
ولكنِّي نظرتُ إلى الَّ ذي قد كان من عهدي
غداةَ أتيتُ مدرستي بأولِ مرةٍ وحدي
فلمْ أرَ أنَّني قد كنـ ـتُ مثل الأبلهِ الوغدِ!

لم يستوعب جيم مطلقًا كيف كانت أمهم ذكيةً إلى ذلك الحد الذي مكَّنها من كتابة هذه القصيدة. أما بالنسبة إلى الآخرين فقد بدَت لطيفةً، لكنها عادية. إنهم كما تعلمون قد تعودوا دائمًا على أن لهم أمًّا تستطيع وضع الجمل التي قالها الناسُ في شِعرها كما قالوها تمامًا، حتى ولو كان ذلك التعبير الصادم الذي في آخر القصيدة، والذي هو من كلام جيم نفسه.

تعلَّم بيتر من جيم لعب الشِّطْرنج والدَّاما والدومينو، وكان وقتًا هادئًا لطيفًا إجمالًا.

ما إن أخذت رِجلُ جيم تتحسن يومًا بعد يومٍ حتى ساد بين كلٍّ من بوبي وبيتر وفيليس شعورٌ مفاجئٌ بضرورة عملِ شيءٍ ما لتسليته؛ ليس الألعاب وحسب، وإنما شيءٌ كبيرٌ بحق. لكنهم وجدوا أن التفكير في أيِّ شيءٍ يفعلونه كان أصعبَ كثيرًا من المعتاد.

قال بيتر، بعدما ظلَّ كلٌّ منهم يُفكر ويفكر إلى أن أحسوا وكأن رءوسهم قد ثقلت وتورمت للغاية: «لا جدوى من هذا إذا كنا لا نستطيع الاهتداءَ إلى أيِّ شيءٍ لتسليته،

فإننا لا نستطيع وحسب، ويجب أن نتوقف عن هذا. ربما يحدثُ شيءٌ ما من تلقاء نفسه يحبه جيم.»

«إن الأشياء بالفعل تحدث من تلقاء نفسها أحيانًا، من دون أن يكون من صنيعكم.» هكذا قالت فيليس، وكأنما كلُّ ما حدث في الكون كان من صنيعها هي.

قالت بوبي بنبرةٍ حالمة: «أتمنى أن يحدث شيءٌ ما، شيءٌ رائع.»

وقد حدث بالفعل شيءٌ رائعٌ بعدما قالت هذا بأربعة أيامٍ بالتمام. ليتني أستطيع أن أقول إنه حدث بعد ثلاثة أيام؛ فدائمًا ما تحدث الأمور في القصص الخيالية بعد ثلاثة أيام. لكن هذه ليست قصةً خيالية، وعلاوة على هذا، فقد كانت أربعة أيامٍ بالفعل وليس ثلاثة، وإنَّ ما يُميزني فوق كل شيءٍ هو أمانتي المتناهية.

لم يكد الأطفال في تلك الأيام يُشبِهون أطفالَ السكة الحديدية على الإطلاق، وكانوا بمرور الأيام يشعرون جميعًا بشيءٍ من القلق تجاه ما عبرتْ عنه فيليس يومًا ما.

لقد قالتْ بحزُّنٍ: «أتساءل إن كانت السكة الحديدية تشتاق إلينا. إننا لم نعد نراها الآن مطلقًا.»

قالت بوبي: «يبدو هذا نكرانًا للجميل؛ لقد كنا نحبها للغاية عندما لم يكن هناك أيُّ أحدٍ آخر يلعب معنا.»

قال بيتر: «إن بيركس يأتي دائمًا للسؤال عن جيم، وقد تحسنت صحةُ طفل عامل التحويلة. هكذا أخبرني.»

قالت فيليس موضحةً: «لم أقصد الناس، وإنما قصدتُ السكة الحديدية الحبيبة نفسها.»

قالت بوبي، في اليوم الرابع هذا، وكان يوم ثلاثاء: «إن ما لا يُعجبني هو أننا توقفنا عن التلويح لقطار التاسعة والربع، ولم نعد نرسل معه تحايانا لأبي.»

قالت فيليس: «فلنبدأ من جديد.» وهكذا فعلوا.

إن التغيير الذي أصاب كلَّ شيءٍ، والذي نَجَمَ عن وجود خدمٍ في المنزل وعن عدم انشغال الأم بشيءٍ من كتابتها، قد جعل الوقت الذي مرَّ عليهم منذ ذلك الصباح الغريب في بداية الأمر — عندما استيقظوا مبكرًا جدًّا وأحرقوا قعر غلاية الشاي، وتناولوا فطيرة تفاحٍ على الإفطار، ورأوا السكة الحديدية لأول مرة — جعله بطريقةٍ ما يبدو طويلًا للغاية.

كانوا في شهر سبتمبر في ذلك الحين، وكان العشب الذي يكسو المنحدرَ المؤديَ إلى السكة الحديدية يابسًا وهشًّا. كان قليلٌ من سبلات العشب الطويلة ينتصب مثل قطعٍ صغيرةٍ من أسلاكٍ ذهبية، وكانت بعض أزهار الجريس الزرقاء الهشة تهتزُّ في سويقاتها الصلبة الهيفاء، وأزهار الجيبسي تفتح أقراصها الأرجوانية الشاحبة حتى بدت عريضةً منبسطة، وكانت الأزهار النجمية الذهبية في عشبة القديس يوحنا تلتمع على حواف بِركة الماء الواقعة في منتصف الطريق بين المنزل والسكة الحديدية. قطفتْ بوبي مجموعةً من الأزهار ملأتْ بها يدها وراحت تتخيل كم ستبدو جميلةً عندما تُوضَع على البطانية ذات اللونَين الأخضر والوردي المصنوعة من عادم الحرير التي تُغطي رجل جيم المكسورة المسكينة الآن.

قال بيتر: «أسرِعا، وإلَّا فسيفوتنا قطارُ التاسعة والربع!»

قالت فيليس: «لا أستطيع الإسراعَ أكثر من هذا. أوه، تبًّا! لقد انفكَّ رباطُ حذائي ثانيةً!»

قال بيتر: «عندما تتزوجين، سينفكُّ رباطُ حذائكِ وأنتِ تسيرين في ممر الكنيسة، وسيتعثر فيه الرجلُ الذي ستتزوجينه ويتهشم أنفُه على الأرضية المُزخرفة؛ وساعتها ستقولين إنكِ لن تتزوجيه، وستُصبحين عانِسًا رغمًا عنكِ.»

قالت فيليس: «لن أفعل هذا. أُفضل كثيرًا أن أتزوج رجلًا بأنفٍ مُهشمٍ على ألَّا أتزوجَ أحدًا.»

أكملتْ بوبي قائلةً: «لكنَّ الزواج برجلٍ مُهشمِ الأنف شيءٌ مُروع. إنه لن يستطيع شمَّ الأزهار في العُرس. ألن يكون هذا فظيعًا!»

صاح بيتر قائلًا: «سُحقًا لأزهار العُرس! انظُرا! لقد نزلت الإشارة. يجب أن نجري!»

جرى الأطفال. ومن جديدٍ راحوا يلوحون بمناديلهم لقطار التاسعة والربع، دونما أيِّ اكتراثٍ لِما إن كانت المناديل نظيفةً أم لا.

صاحت بوبي قائلةً: «أبلِغ حبنا لأبينا!» وكذا صاح الآخران:

«أبلغ حبنا لأبينا!»

لوَّح لهم السيد العجوز من نافذة عربة الدرجة الأولى التي يستقلها. كان يلوح بحماس شديد. ولم يكن ذلك غريبًا؛ لأنه دائمًا ما كان يلوح لهم. لكنَّ الغريب حقًّا أن ثمة مناديل راحت ترفرف، وجرائدَ تومئ، وأياديَ تلوح بشدة، من كل نافذةٍ من

نوافذ القطار. لقد اندفع القطار بجوارهم بقوةٍ بقعقعة وزمجرة، وراح الحصى الصغيرُ يتواثب ويرقص تحته أثناء مروره، وتَرك الأطفالَ ينظر أحدُهم إلى الآخر.

قال بيتر: «حسنٌ!»

قالت بوبي: «حسنٌ!»

قالت فيليس: «حسنٌ!»

تساءل بيتر قائلًا: «أيَّ شيءٍ قد يعنيه هذا؟» لكنه لم يتوقع أيَّ رد.

قالت بوبي: «لا أعرف. ربما يكون السيد العجوز قد طلب من الناس في محطته أن يرقبونا ويُلوِّحوا لنا. إنه يعلم أن هذا سيعجبنا!»

لكن الغريب للغاية أن هذا هو ما حدث تمامًا. لقد ذهب السيد العجوز في وقت مبكر من صباح اليوم إلى محطته، وكان معروفًا ويحظى باحترام شديد فيها، وانتظر عند الباب الذي يقف عنده الشابُّ حاملًا تلك الآلة المثيرة للاهتمام التي تثقب التذاكر، وأخذ يقول شيئًا ما لكل راكبٍ يمر من ذلك الباب. وبعدما أومأ الركابُ بالموافقة على ما قاله السيد العجوز — وكانت إيماءاتهم تُعبر عن كل درجات الدهشة، والاهتمام، والشك، والرِّضا المبهِج، والموافقة المتذمرة — توجه كلٌّ واحدٍ منهم إلى الرصيف وراح يقرأ جزءًا معينًا من جريدته. وبعدما دخل الركابُ القطار، أَخبروا الركاب الآخرين الذين كانوا بداخله بالفعل بما قاله السيد العجوز، وعندها نظر الركاب الآخرون كذلك في جرائدهم وبدَوْا مندهشين للغاية، ومسرورين في العموم. بعد ذلك، عندما مرَّ القطارُ أمام السور الذي كان الأطفال الثلاثة يجلسون عليه، أخذت الجرائد والأيدي والمناديلُ تُلوِّح بجنون، حتى راح ذلك الجانب كلُّه من القطار يُرفرف بالبياض كصور تتويج الملك في جهاز عرض الصور في مسرح ماسكلين آند كوك للألعاب السحرية. أما في أعين الأطفال، فقد كان الأمر يبدو وكأن القطار نفسه قد سرَت فيه الحياة، وكان يتجاوب أخيرًا مع الحُب الذي منحوه إيَّاه بسخاءٍ كبيرٍ ومنذ زمنٍ طويل.

قال بيتر: «هذا من أعجب ما يكون!»

حاولت فيليس ترديد كلامه: «من أعجب ما يكون!»

لكن بوبي قالت: «ألا تعتقدان أن تلويحات السيد العجوز بدتْ ذات دلالةٍ أكثر من المعتاد؟»

قال الآخران: «نعم.»

قالت بوبي: «لكنني أعتقد هذا. أظن أنه كان يحاول أن يُوضح لنا شيئًا ما بجريدته.»

تساءل بيتر، كما هي عادته: «يوضح ماذا؟»

أجابته بوبي: «لا أدري، لكنني أشعر بغثيانٍ رهيب. أشعر تمامًا وكأنما شيءٌ ما كان سيحدث.»

قال بيتر: «ما سيحدث أن جورب فيليس سيسقط.»

لم يكن هذا إلَّا صحيحًا تمامًا. لقد انهارت حمَّالةُ الجورب بسبب الرجِّ العنيف الذي أحدثه التلويحُ لقطار التاسعة والربع. وقام منديل بوبي مقام الإسعافات الأولية للجورب المُصاب، وعادوا جميعًا إلى المنزل.

كانت الدروس أصعب على بوبي من المعتاد في ذلك اليوم، بل إنها شعرت بخِزْي شديد من نفسها بسببِ مسألةٍ حسابيةٍ يسيرةٍ للغاية حول قسمةِ ٤٨ رطلًا من اللحم و٣٦ رطلًا من الخبز بين ١٤٤ طفلًا جائعًا لدرجة أن أمها راحت تنظر إليها في قلق.

وسألتْها: «ألا تشعرين بأنكِ على ما يُرام يا عزيزتي؟»

كان جواب بوبي غير المتوقع: «لا أدري. لا أعرف ما الذي أشعر به. لكنني لا أتكاسل. أمي، هلا أعفيتِني من الدروس اليوم؟ أُحس وكأنني أريد أن أكون بمفردي تمامًا.»

قالت أمها: «نعم، بالطبع سأُعفيكِ منها، لكن ...»

أسقطتْ بوبي لوح الكتابة من يدها. انصدع اللوحُ من عند العلامة الخضراء الصغيرة التي تساعد كثيرًا في رسم الأشكال حولها، ولمْ يعد لحاله الأولى بعد ذلك مطلقًا. ودون أن تنتظر لتلتقطه انطلقتْ. لمحتْها أمها في الردهة تبحث بشرودٍ بين معاطف المطر والمظلات عن قبعة الحديقة خاصتها.

فقالت: «ما الأمر يا حبيبتي؟ هل تشعرين بتوعك؟»

قالتْ بوبي، بأنفاسٍ متقطعة قليلًا: «لا أعرف، لكنني أريد أن أخلوَ بنفسي وأرى إن كان رأسي حقًّا مصابًا بدوار وبطني متلويًا مرتبكًا.»

قالت أمها وهي تُملِّس على شعرها من عند جبهتها إلى أطرافه: «ألم يكن من الأفضل لكِ أن تستلقي في فراشكِ لتستريحي قليلًا؟»

قالت بوبي: «أظن أني سأستفيق أكثر في الحديقة.»

لكنها لم تستطع البقاءَ في الحديقة؛ لقد بدت نباتاتُ الخطمية البرية وزهور النجمة والورودُ الحديثة وكأنما كانت تترقب جميعُها حدوث شيءٍ ما. كان يومًا من أيام فصل الخريف، تلك الأيام المشمسة الهادئة، التي تبدو فيها جميعُ الأشياء وكأنما في انتظار.

أما بوبي فلمْ تستطع الانتظار.

وقالت: «سأذهب إلى المحطة وأتحدث مع بيركس وأسأل عن طفل عامل التحويلة.»

وهكذا ذهبتْ إلى هناك. وفي طريقها مرتْ على السيدة العجوز التي تعمل في مكتب البريد، والتي قبَّلتْها وعانقتْها، لكنَّ ما أدهش بوبي بعض الشيء أنها لم تقل لها أي شيء سوى:

«بارككِ الربُّ يا حبيبتي ...» وأضافت، بعد فترةِ صمتٍ قصيرة: «انطلقي ... اذهبي.»

أما صبيُّ بائع الأقمشة، والذي كان يبدو أحيانًا دُونَ المهذب قليلًا وفوق الوَقِحِ قليلًا، فقد لمس قبعته مُحَيِّيًا، ونطق بتلك الكلمات الغريبة:

«صباح الخير يا آنستي، أنا واثقٌ ...»

كان سلوكُ الحداد، وهو قادمٌ وفي يده جريدةٌ مفتوحةٌ، أكثر غرابةً؛ فقد ابتسم ابتسامةً عريضةً، رغم أنه لم يكن يميل، في أغلب الأحيان، إلى الابتسامات، وراح يلوح بالجريدةِ قبل أن يصل إلى بوبي بمسافةٍ كبيرة. وعندما مرَّ أمامها، قال، ردًّا على قولها «صباحُ الخير»:

«صباحُ الخيرِ عليكِ يا آنستي، ولتنعمي بأيامٍ كثيرةٍ قادمةٍ صباحُها خيرٌ! أرجو لكِ السعادة، من كل قلبي!»

قالت بوبي في نفسها وقد تسارعت دقات قلبها: «يا إلهي! لا بد أن شيئًا ما سيحدث! أنا واثقةٌ من هذا؛ إن الجميع يتصرفون بغرابةٍ شديدة، مثلما يفعل الناس في الأحلام.»

صافحها ناظرُ المحطة بحرارةٍ. في الواقع، لقد ظلَّ يرفع يدها ويخفضها وكأنها مقبض مضخة. لكنه لم يُفسر لها سبب هذه التحية الحماسية غير المعتادة، وإنما قال فقط:

«لقد تأخر قطارُ الحادية عشرة وأربعٍ وخمسين دقيقةً قليلًا يا آنستي؛ إنها الحقائب الزيادة في وقت الإجازة هذا.» ثم انصرف سريعًا جدًّا إلى معبده الداخليِّ ذلك الذي لم تجرؤ بوبي حتى على أن تلحق به إليه.

لم ترَ بوبي بيركس؛ لذا تشاركت الرصيف الخاليَ مع قطة المحطة. هذه السيدةُ المبرقشة اللون، والتي عادةً ما تميل إلى الانطواء على نفسها، جاءت اليومَ لتحك نفسها في جوربَي بوبي البُنيَّين، جاءت بظهرٍ مقوس، وذيلٍ مُلوحٍ، وخرخرةٍ مسرورةٍ مدوية.

قالت بوبي وهي تنحني لتتلمس على ظهرها: «يا إلهي! ما أطيب الجميع اليوم؛ حتى أنتِ أيتها الهرة!»

لم يظهر بيركس حتى دقَّتْ إشارةُ قطار الحادية عشرة وأربعٍ وخمسين دقيقة، وحين ظهرَ، كان — كالآخرين جميعًا في صباح ذلك اليوم — يحمل في يده جريدة.

قال بيركس: «مرحبًا! ها أنتِ ذي. حسنٌ، لو كان هذا هو القطار، فسيكون هذا ذكاءً منكِ! حسنٌ، بارككِ الربُّ يا حبيبتي! لقد رأيته في الجريدة، ولا أظنني سعدتُ بأيِّ شيءٍ في حياتي كلها مِثلَ هذه السعادة الغامرة!» ونظر إلى بوبي قليلًا، ثم قال: «لا بُد أن أحظى بواحدةٍ يا آنستي، وأعرف أنكِ لن تغضبي مني في يومٍ كهذا!» وبعد هذه الكلمات مباشرةً طبعَ قبلةً على أحد خدَّيها، ثم على الآخر.

لكنه سألها في قلق: «لم تغضبي مني، أليس كذلك؟ لم أتجاوز حدودي كثيرًا، أليس كذلك؟ في يومٍ كهذا، أتعرفين ...»

قالت بوبي: «بلى، بلى، بالطبع ليس هذا تجاوزًا يا عزيزي السيد بيركس؛ إننا نحبك وكأنك عم لنا تمامًا ... لكن ... في يومٍ مثل ماذا؟»

قال بيركس: «مثل هذا اليوم! ألم أقل لكِ إني رأيته في الجريدة؟»

سألته بوبي: «رأيتَ ماذا في الجريدة؟» لكنَّ قطار الحادية عشرة وأربعٍ وخمسين دقيقة كان قد دخل المحطة بالفعل، وكان ناظر المحطة ينظر إلى جميع الأماكن التي لم يكن بيركس موجودًا فيها والتي كان ينبغي أن يكون فيها.

تُرِكَت بوبي واقفةً بمفردها، وراحت قطة المحطة تنظر إليها من تحت المقعد الطويل بعينَين ذهبيتَين وَدودتَين.

بالطبع تعلمون بالفعل ما الذي كان سيحدث تحديدًا، لكن بوبي لم تكن على هذه الدرجة من الفطنة. لقد كان يتملكها ذلك الشعور الغامض المربك المترقِّب الذي يتملَّك قلب المرء في الأحلام. لا أعلم ما الذي كان يتوقعه قلبُها — ربما الشيء نفسه الذي أعلم أنا وأنتم أنه كان سيحدث — لكنَّ عقلها لمْ يتوقع شيئًا؛ لقد كان شبه خاوٍ، وما كان يشعر بشيءٍ سوى الإرهاق والبلادة وشعورٍ بالخواء، كذلك الذي تشعر به أجسامكم عندما تكونون قد مشيتم مسافةً طويلةً ويكون قد مرَّ وقتٌ طويلٌ بالفعل على موعد غدائكم.

لم يخرج من قطار الحادية عشرة وأربعٍ وخمسين دقيقةً سوى ثلاثة أشخاص. كان أولهم مزارعًا يحمل صندوقَين من الخوص مليئَين بدجاجٍ حيٍّ وقد أخرج الدجاجُ

رءوسه الخمرية اللون من بين أماليد الصندوق المجدولة وراح ينظر في قلق؛ أما الثانية فكانت الآنسة بيكيت، ابنة عم زوجة البقال، وكان معها صندوقٌ قصديريٌّ وثلاثة طرودٍ ملفوفةٍ في ورقٍ بُنِّي؛ أما الثالث …

«يا إلهي! أبي! أبي!» اندفعت تلك الصرخة مثل سكينٍ في قلوب جميع مَن في القطار، وأخرج الناس رءوسهم من النوافذ ليروا رجلًا طويلًا شاحبًا شفتاه مطبقتان في خطٍّ دقيقٍ ضيق، وفتاةً صغيرةً متشبثةً به بذراعَيها ورِجلَيها، بينما ذراعاه تُطوقانها بقوة.

قالت بوبي وهما يسيران في الطريق: «كنتُ أعلم أن شيئًا رائعًا سيحدث، لكن لم يخطر ببالي أنه سيكون هذا. يا إلهي، أبي، أبي!»

سألها أبوها: «أخبريني، أما تلقتْ والدتُك رسالتي؟»

«لم تأتِ أي رسائل هذا الصباح. يا إلهي! أبي! إنه أنتَ بالفعل، أليس كذلك؟»

أكدتْ لها قبضةُ يدٍ لم تنسها أنه كان هو بالفعل. «يجب أن تدخلي بمفردكِ يا بوبي وتخبري أمكِ بهدوءٍ شديدٍ أن كل شيء على ما يرام. لقد أمسكوا الرجل الذي فعلها. الجميع يعلمون الآن أن أباكِ لم يفعل ذلك.»

قالت بوبي: «كنتُ أعلم طوال الوقت أنكَ لم تفعلها، أنا وأمي وصاحبنا السيد العجوز.»

قال: «نعم، إن الفضل كله يعود إليه. لقد أرسلتْ لي أمكِ رسالةً وأخبرتْني أنكِ اكتشفتِ الأمر. وأخبرتْني كيف كُنتِ بالنسبة إليها. يا صغيرتي الحبيبة!» وتوقفا قليلًا بعد ذلك.

وها أنا أراهما الآن يَعبران المرج. دخلتْ بوبي إلى المنزل وهي تحاول أن تمنع عينَيها من الكلام قبل أن تجد شفتاها الكلمات المناسبة لكي «تخبر والدتها بهدوءٍ شديد» أنَّ الحزن والعناء والفراق قد انتهوا أخيرًا، وأن أباها قد عاد إلى البيت.

أرى أباها يسير في الحديقة، ينتظر وينتظر. إنه ينظر إلى الزهور، وكلُّ زهرةٍ إنما هي معجزةٌ لعينَين لمْ ترَيا طوال شهور الربيع والصيف سوى حَجَرِ الرصْفِ والحصى والقليل النادر من العشب. لكنَّ عينَيه ظلَّتا تلتفتان إلى المنزل. وبعد قليلٍ ترك الحديقة وذهب للوقوف أمام أقرب باب. إنه الباب الخلفي، وطيور السنونو تدور في الفِناء. إنها تستعد للطيران بعيدًا عن الريح الباردة والصقيع القارس والذَّهاب إلى أرض الصيف الدائم. إنها طيور السنونو نفسها التي بنى لها الأطفال أعشاش الطين الصغيرة.

الآن فُتح باب المنزل. وجاء صوتُ بوبي من داخله قائلًا:

«ادخل يا أبي؛ ادخل!»

دخل أبوها وأُغلِق الباب. أظن أننا لن نفتح الباب أو نتبعه. أظن أن الآن تحديدًا لا داعي لوجودنا هناك. أرى أن أفضل شيءٍ نفعله أن نبتعد سريعًا وبهدوء. ومن عند طرف المرجة، بين سبلات العُشب الذهبية الهزيلة وأعشاب الجريس المستديرة الأوراق وورود الجيبسي وعشبة القديس يوحنا، يمكننا فقط أن نُلقِيَ نظرةً أخيرة، من خلف ظهورنا، على المنزل الأبيض الذي لم يعد لوجودنا فيه نحن ولا أيِّ أحدٍ آخر أيُّ داعٍ الآن.


هنداوي